٣

طه عبد الله العفيفي

من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم

الخَلقية و الخُلقية

الدار المصرية اللبنانية

من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم

الخَلقية والخُلقية

الناشر : الدار المصرية اللبنانية
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ٩٤/١٠٨٥٦
الترقيم الدولى: 0 - 179 - 270 - 977
تجهيزات فنية : آر ـ تك
العنوان: ٤ ش بنى كعب ـ متفرع من ش السودان
الكيت كات ـ إمبابة . ـ ت: ٣٤٦٣٦٣٢
طبع: آمون
العنوان: ٤ عطفة فيروز ـ متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ ـ ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولى: ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م
تصميم الغلاف: صالح وحيد

من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم

الخلقية والخلقية

خادم القرآن والسنة
طه عبد الله العفيفي

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)

«القلم : ٤»

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(إنّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارِمَ الأخلاق)

رواه مالك

الإهـــــداء

إلى جميع أحباب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى مشارق الأرض ومغاربها.

أقدم هذا الْجَهد اْلمتواضع، حول: (صفات الرسول صلى الله عليه وسلم الخِلْقِيِّة واْلخُلُقية)

سائلاً المولى سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المتخلقين بها.. حتى نكون بهذا أهلاً لأن نُحْشَرَ معه صلوات الله وسلامه عليه فى جنة الخلد إن شاء الله

والله ولى التوفيق

المـؤلف

تمهيد

أخى المسلم/ أختى المسلمة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... أما بعد:

فإن الحديث عن رسول الله (محمد) صلوات الله وسلامه عليه لابد أن يكون حديث القلب للقلب؛ وذلك لأنه صلوات الله وسلامه عليه حبيب القلوب المؤمنة المطمئنة التى عرفت قدره، وعرفت أنه النبى المصطفى الذى رفعه الله إلى أعلى الدرجات الحِسِّية والمعنوية التى لم ولن يصل إليها أحد، كما يشير إلى هذا الإمام محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى، حيث يقول فى كتابه: (المقامات العلية):

طه الذى عَمَّ الأنامَ بفضله ... سادَ النبيينَ الأُلَى من قَبْلِهِ
هو صفوةُ البارِى وخاتَم رُسْلِهِ ... يأ يـهـا الـمستمسـكـون بـحبـلِهِ

إن تبتغوا أجرًا يكون جَزيلاً
صلُّوا عليه بكرةً وأَصِيلاَ

* * *

الـلـه أدنـاه إلـيـه وَقَـرَّبَـا ... فَعَلاَ مَقَامًا لم ينله أُولُو النَّبَا
وله يقول ابْشر فأنت المجتبى ... أهلاً وسَهلاً بالحبيب ومرحبًا

أنت الذى تستوجبُ التفضيلاَ
صلوا عليه بكرةً وَأَصيلاَ

* * *

ملأتْ نُبُوَّتُهُ الوجودَ وأظهرَا		بِحُسَامِه الدّين الصحَيح فأسفَرَا

واستبشَرتْ فرحًا بِبِعثته الورى		ومحا الضلال كما بذلِكَ خَبَّرَا

نَصٌّ الْكتابِ مُفَصَّلاً تَفْصِيلاَ

صلُّوا عليه بُكرةً وأَصِيلاَ

* * *

والسُّحْبُ لا تَحكى عطاياهُ فَمَا		أَنْداهُ بحرًا بالسَّخَاءِ وأكرمَا

أنْعِمْ بمن أسْنَى الكمالِ له انْتَمى		مولاهُ قد صَلَّى عليهِ وسَلَّمَا

من لم يُصَلِّ عليه كان بَخِيلاَ

صلُّوا عليه بكرةً وأصِيلاَ

ولهذا، فإن الحديث عنه صلوات الله وسلامه عليه ـ كما أشرتُ ـ لا بد أن يكون حديثًا على مستوى هذه الذروة المحمدية التى لا يَعرفُ قدرها إلا الله وَرَسُولُه، وجميعُ الأصحاب الفضلاء الذين أَحَبُّوا اللهَ ورسولَه أكثر من أى شىء، بل أكثر من أنفسهم وأهليهم وأموالهم، فتذوقوا بذلك، أو لذلك حلاوة الإيمان(١).

* وحسبنا تأكيدًا لكل هذا أن نقرأ فى القرآن الكريم، قوله تبارك وتعالى: لأصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ورضى الله عنهم أجمعين:

---

(١) كما جاء فى نص حديث شريف يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه: (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحَبَّ إليه مما سِواهُما، وأن يُحب المرءَ لا يُحِبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقْذَفَ فى النار) متفق عليه.

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾(١)، أى إذا أردتم مخاطبته فلا تقولوا له: يا محمد، وإنما قولوا له: يا نبىَّ الله، يا حبيبَ الله، يا رسولَ الله مع أنهم فى الأمم السابقة كانوا يخاطبون أنبياءهم بأسمائهم ولم يُنْهَوا عن هذا. كما قال الله تعالى: مشيرًا إلى هذا:

﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا ﴾(٢)، ﴿ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(٣)، ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾(٤)، ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ... ﴾(٥)، ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ... ﴾(٦).

** وفى السنه المطهرة، ورد:

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (أنا سيِّدُ وَلَد آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخْر، وبيدى لواءُ الحمدِ ولا فَخْر، وما من نَبِىٍّ يومئذ: آدم فمن سواه إلا تحت لوائى، وأنا أول من تنشقُّ عنه الأرض، وأنا أَوَّلُ شافع وأَوَّل مُشَفَّع)

أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذى، وقال: حسن صحيح.

* عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وقد سمع ناسًا من أصحابه يتذاكرون فى تفاضُل الأنبياءِ فقال: قد سمعتُ كلامكُم وعَجَبَكُم: إنَّ

(١) النور - من الآية: ٦٣.
(٢) هود - من الآية: ٣٢.
(٣) الأعراف - من الآية: ٧٧.
(٤) هود - من الآية: ٥٣.
(٥) مريم - من الآية: ٤٦.
(٦) المائدة - من الآية: ١١٢.

ابراهَيم خليلُ الله وهو كذلك، وموسى نَجِيٌّ اللهِ، وهو كذلك، وعيسى روحُ الله وكَلمته، وهو كذلك، وآدَم اصطفاه الله، وهو كذلك، ألا وأنا حبيبُ الله ولَا فخر، وأنا حامِلُ لواءِ الحمدِ يومَ القيامةِ ولا فخر، وأنا أوَّلُ شافعٍ وأوَّلُ مُشفَّعٍ يوَم القيامةِ ولا فخر، وأنا أول مَنَ يُحرك حِلَق الجنة، فيفتحُ اللهُ لى فيُدخِلُنِيها ومَعِىَ فقراءُ المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرمُ الأولينَ والآخرينَ ولا فخر)

أخرجه الترمذى: وقال حديث غريب.

** ومن أجمل ما قرأتُ حول حب أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه:

أن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ذهب ذاتَ يومٍ لزيارته صلوات الله وسلامه عليه، وقد كان مريضًا. فلما رآه على فراش المرض، مَرِضَ هو الآخرُ حُزْنًا على حبيبه وقُرَّةِ عينه صلواتُ الله وسلامُه عليه.

ثم بعد ذلك، وبعد أن عادت الصحة إلى جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى أبى بكر لزيارته. فلما رأى أبو بكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قد شُفِى وجاء لزيارته، شُفِى هو الآخر فرحًا بشفاءِ الرسول صلوات الله وسلامه عليه. وإلى هذا يشير رضى الله عنه فى قوله الذى ورد عنه:

مَـرِضَ الـحـبـيـبُ فـعُـدْتـُه فمرِضْتُ مـن أَسَـفِى عـليه
شُفِـىَ الحـبيـبُ فـزارنِـى فشُفِيتُ مـن نـظـرى إلـيـه

وكذلك قرأت أنَّ الفاروق عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه حَزِنَ حُزنًا شَديدًا فى يوم وفاةِ الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه ظل يبكى على فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قال:

ليس البكاءُ وإنْ أُطيلُ بمقنعِى | الخطبُ أعظمُ قيمةً من أَدْمُعِى
تا لَّله ما جاء الزمانُ ولا اعتدى | بأشدَّ من هذا المُصَابِ وأوجَعِ
فُقِدَ الرسولُ فأظلمتْ كُلُّ الدُّنَا | والحزنُ عَمَّ بكُلِّ قَلبٍ مُوجَعِ
ما زال بالمعروف فينا آمِرًا | يَهدى الأنامَ بنوره المتَشَعْشِعِ

* وأنه رضى الله عنه، سُمِعَ بعد موتِ النبى صلى الله عليه وسلم يبكى ويقول:

بأبى أنتَ وأُمِّى يا رسول الله! لقد كان جِذْعٌ تخطب الناسَ عليه، فلما كَثُرَ الناسُ اتخذتَ منبرًا لتُسمعَهم، فما حَنَّ الجَذعِ لفراقك حتى جَعَلْتَ يدك عليه فسكن. . فأُمَّتُكَ كانت أولى بالحنين إليك لـمَّا فارقتَها.

بأَبى أنت وأُمِّى يا رسولَ الله! لقد بَلَغَ من فضيلتك عند الله تعالى، أن جعلَ طاعتَك طاعتَه، فقال عز وجل:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾(1).

بأبى أنت وأمى يا رسولَ الله! لقد بلغ من فضيلتك عند الله تعالى، أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يُخبرك بالذنب(2)، فقال عز وجل:

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾(3).

بأبى أنت وأُمى يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عند الله تعالى، أن بعثكَ آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم، فقال عز وجل:

---

(1) سورة النساء ـ من الآية ٨٠.
(2) وهذا عتاب لطيف رقيق من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم. ومعناه: لأى شىء أذنت لهؤلاء المنافقين بالتخلف عن الخروج للجهاد بعد أن أبدوا بعض أعذارهم. وكان مطلوبًا منه أن يتيقن صدقهم من كذبهم.
(3) سورة التوبة ـ من الآية ٤٣.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾(١).

بأبى أنت وأمِّى يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عند الله تعالى، أنَّ أهل النارِ يَوَدُّون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أَطْباقها يُعذَّبون:

﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾(٢).

بأبى أنت وأمى يا رسول الله! لئن كان موسى بنُ عمران أعطاه الله حَجَرًا تَتَفَجَّرُ منه الأنهار، فما ذا بأعجبَ من أصابعك حين نبع منها الماء! صلى الله عليك.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله! لئن كان سليمانُ بنُ داود أعطاهُ اللهُ الريَح غُدُوُّها شهر ورواحُها شهر، فما ذا بأعجب من البُراقِ حين سَرَيتَ عليه من مكة إلى بيت المقدس، ثم عُرِج بك إلى السماء السابعة، ثم صليتَ الصبح بالأبطح! صلى الله عليك.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله! لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى ـ بإذن الله ـ فما ذا بأعجَب من الشاة المسمومة حين كَلَّمَتْكَ وهى مَشْوِيَّةٌ فقالت لك الذراعُ: لا تأكُلْنى فإنى مسمومة!

بأبى أنت وأُمى يا رسول الله! لقد دعا نوح على قومه، فقال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٣)، ولو دعوتَ علينا بمثلها لهلكْنَا، فقد وُطِئَ ظهرُكَ، وأُدْمِىَ وجهُكَ، وكُسرت رَبَاعِيَتُك، فأبيتَ أن تقول إلاَّ خيراً، فقلت: ﴿اللهم اغْفِرْ لقومِى فإنَّهم لا يَعلَمُونَ﴾.

(١) سورة الأحزاب ـ من الآية: ٧.

(٢) سورة الأحزاب ـ من الآية: ٦٦.

(٣) سورة نوح ـ من الآية: ٢٦.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله! لقد اتَّبعك فى قلَّة سِنِّك وقِصَرِ عُمرك، ما لم يتبع نوحًا فى كَثرةِ سِنِّه، وطولِ عمره، ولقد آمن بك الكثيرُ، وما آمن معه إلا القليل.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله! لو لم تُجالس إلا كُفْئًا لك ما جالستنا، ولو لم تنكح إلا كُفْئًا لك ما نكحتَ إلينا(1)، ولم لم تُواكِل إلا كُفْئًا لك ما واكَلتنا(2)، فقد والله جالستنا، ونكحتَ إلينا، وواكلتنا، ولبستَ الصوفَ، وركبتَ الحمارَ، وأردفْتَ خَلفَكَ، ووضعتَ طعامك علي الأرض تواضعًا منك. صلي الله عليك وسلم).

** وكما أشار سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى نهاية رثائه: كان النبى صلى الله عليه وسلم متواضعًا فى كل أحيانه، وقد ورد فى الخبر:

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، من بعض تواضعه: يخصفُ نعله، ويَرْقَعُ ثوبه، ويحلُب شاته، ويَطحنُ مع الجارية ويأكل معها، وكان هينَ المؤنة، ليِّن الجانب، سَخِيَّ الكفَّين، سهلَ الخلق، عَبْلَ الذراعين، كثير الحياء، حنَّ الجذع اليابسُ له، وسلَّم الضَّبُّ عليه، وتزلزل تحتَ قدميه الجبل، وخاطبه الضَّب والجمل، فَنُورُه أنور، وسِرُّه أظهر، قدره أعلى، ذكره أَحْلَى، صوته أجمل، دينُه أكمل، لسانه أفصح، دُعاؤه أنجح، نصره مويَّد. واسمه فى السماء أحمد، وفى الأرض محمد. هذا نبى وفِىٌّ. عفيف لطيف. راكع ساجد. مليح الهامة. معتدل القامة. مُدَوَّر العمامة. شريف الهمة. عالى الدرجة. صادقُ اللهجة. واضح الحُجة. من الطِّيبِ أنفاسُه، ومن الصِّدقِ لسانه. لا طويل

(1) أى ما تزوجت منا.

(2) أى: ما أكلت معنا.

ولا قصير. مكة مولده، والدُّلْدُل بغلته(١)، والعضباء ناقته(٢). أحسن من القمر طلعته، تكلم الذئب لهيبته، وسَعَت الأشجار والأحجار لخدمته، واختار شفاعته لأمته، وسبَّح الحصا في كفه، ونبع الماء من بين أصابعه، والعنكبوت نسج عليه، والحمام عَشَّشَ عليه، والرب صلى وسلم عليه):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(٣).

فصلاة ربي وسلامه عليك يا سيدي وحبيبي، ونورَ قلبي وعيني يا رسولَ الله:

أزكَى صَلاةٍ معْ سلام عاطِرٍ يَنْمُو بها يومَ الحصادِ حَصادِي(٤)

وهكذا - أخا الإسلام - تَعَرَّفَ الأصحابُ الفضلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحبوه وعزَّرُوه ونصروه واتبعوا النورَ الذي أُنزِل معه.. فكانوا بسبب هذا هُداةً مهديين وقادَةً منتصرين، وكانوا ورجالاً كما تحدث الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله:

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾(٥).

فإذا أردتَ - أخا الإسلام - أن تتعرف على رسول الله صلى الله عليه

(١) وهي أول بغلة رُئيت في الإسلام، أهداها له المقوقس وأهدى معها حماراً يقال له عُفَير، فكانت البغلة قد بقيت حتى كان زمن معاوية (طبري)

(٢) وهي القصواء التي قطع بعض أذنها.

(٣) سورة الأحزاب: ٥٦.

(٤) من قصيدتي: دعاء ورجاء.

(٥) سورة النور: ٣٧.

وسلم مثلَهُم حتى تكون مثلهم، أو على الأقل متشبها بهم - فحسبك أن تقرأ الكتاب المتواضع الذى بين يديك، والذى جمعتُ فيه ما استطعتُ جمعه من (صفات الرسول صلى الله عليه وسلم: الخِلْقِيةِ و الخُلُقية)

فلسوف تقرأ فيه - إن شاء الله - ما يُغنيك عن مراجع كثيرة، قد لا تستطيع جمعها، أو العثور عليها.

والله أسأل أن يجعله همزة وصل بيننا وبين الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه؛ حتى نكون بسبب هذا الوصل الإيجابى معه فى الجنة إن شاء الله.

والله ولى التوفيق

خادم القرآن السنة
طه عبد الله العفيفى

الـصِّفَاتُ الخِلْقِيَّةُ
لـرسول الله صـــلى الله عليه وسلم

من هو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؟
وما هو نسبه من جهة أبيه ؟

هو أبو القاسم: محمد بن عبد الله(١) بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن

---

(١) وكان عبد الله من أجمل رجال قريش عفة وعصمة. روى أبو نعيم الخرائطى وابن عساكر عن ابن عباس قال: إن فاطمة بنت مر الخثعمية لما أظهرت لعبد الله حبها ومالت إليه أوجبت على نفسها مائة من الإبل، ولكنه أعرض عنها وقرأ عليها بيتين من الشعر هما:

أما الحرام فالممات دونه .·. والحل لا حِلَّ فأستبينه

فكيف بالأمر الذى تبغينه .·. يحيى الكريم عرضه ودينه

فذكر لآمنة بنت وهب جماله وهيئته، فتزوجت منه فدخل بها، وعلقت برسول الله صلى الله عليه وسلم،

ولم يكن لعبد الله ولد غيره صلى الله عليه وسلم، وبعث عبد المطلب ابنه فى ميرة (والميرة: الطعام) أى فى تجارة إلى المدينة يحمل لهم تمرًا فمات بالمدينة، فبعث عبد المطلب ابنه الحارث فى طلبه حين أبطأ فوجده قد مات، فدُل على قبره، فإذا هو قد دُفِن فى دار النابغة، وقيل النابغة فى الدار الصغرى، وتلك الدار إذا دخلت الدار عن يسارك.

(الطبري وأبو حاتم وخصائص كبري)

** كما جاء فى كتاب: (عيون التاريخ والسير) للإمام عبد الرحمن بن الجوزى. رحمه الله تعالى.

مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم بغير شك، غير أن أهل النسب يختلفون فى الأسماء ما بين عدنان وإسماعيل، وربما جرى منهم فى أكثر الأسماء تصحيف أو اختلاف.

ومن أثبت ما رأيت فى ذلك ما نقلته من خط أبى محمد بن السمرقندى الحافظ، قال: نقلت من خط علىّ بن عبيد الكوفى، وهو صاحب ثعلب محمد بن عبد الله ـ فذكره كما ذكرنا إلى عدنان بن أدد بن زيد بن يقددد بن الُمقوَّم(١) بن اليسع بن بنت بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارح بن ناحور بن شاروخ بن أعور بن فالغ بن عابر بن شالخ(٢) بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لامكِ بن مُتوشلخْ بن خنوخ بن مرة بن مهلاييل بن قَيْنُن بن أنوس بن شيس بن آدم.

فأما أمه صلى الله عليه سلم، فهى: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة(٣).

وقد قرأتُ، أنه حين مات عبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم، رثته آمنة زوجه بهذه الأشعار:

عفا جانب البطحاء من آل هاشم   وجاور لحدًا خالدًا(٤) فى الغمائمِ

(١) ومعناه المستقيم.

(٢) وفى اليعقوبى: شالح بالحاء المهملة.

(٣) وهذا معناه أن نسب أمه صلى الله عليه وسلم من جهة أبيها يلتقى مع نسب الرسول من جهة أبيه فى الجد الخامس وهو ابن مرة. فهو من الجهتين: خيار من خيار من خيار. . صلوات الله وسلامه عليه.

(٤) خارجًا.

دعته المنايا دعوة فأجابها وما تركت فى الناسِ مثل ابن هاشِمِ

عَشيَّةَ راحوا يحملونَ سَرِيرَهُ تعاوره[1] أصحابه فى التَّزَاحُمِ

فإن تَكُ غالتْهُ المنايَا وَرَيْبُهَا فقد كان مِعْطاءً كثير التَّراحُمِ

** وفى صحيح البخارى، ذكر نسب الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال[2].

* إنه: (محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فِهْر بن مالك بن النضر بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدرِكَة بن إلياس بن مضر ابن نِزَار بن مَعَدٍّ بن عدنان).

ولكل واحد من هذه السلسلة عدة مكارم ومفاخر مبسوطة فى كتب السير والتاريخ.

لم تزل فى ضمائر الكون تُختا رُ لك الأمهاتُ والآباءُ

* * *

أبانَ مولده عن طِيبِ عُنْصُرِهِ يا طِيبَ مُبتدأ منه ومُخْتَتَمِ

يقول صلوات الله وسلامه عليه، فيما رواه الإمام مسلم:

* (إنَّ الله اصطفَى من وَلَدِ إبراهيمَ إسماعيلَ، واصطفَى من ولدِ إسماعيلَ بنى كِنانَة، واصطفَى من كنانةَ قريشًا، واصطفى من قريشٍ بنى هاشمٍ، واصطفانى من بنى هاشم).

---

(١) تعاوروا الشىء واعتوروه: أى تداولوه.

(٢) وذلك حتى نزداد معرفة بهذا النسب الشريف الذى ينبغى علينا أن نعرف أصله وفصله.

نسب قلادته الفخيمة كلها ه حتى الرسول فرائد وعصائم

وقد روى البخارىُّ ـ هذا النسب الشريف ـ فى مبعث النبى صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء عشرون جَدا. . ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكرهم وسكت ثم قال: (كَذَبَ النَّسابون بعد ذلك وإن صدقوا)، ونسبه هذا ينتهى إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

** وأما عن:

ذكر أسمائه صلى الله عليه وسلم

فعن جبير بن مطعم رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لى خمسةُ أسماء: أنا محمدُ، وأنَا أحمدُ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشرُ الذى يُحْشَرُ الناسُ على قدمِى، وأنا العاقبُ)

رواه الشيخان والترمذى.

ومعنى العاقب: أى أنه ليس بعده نبى

* وقال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى لنا نفسه أسماءً فقال:

(أنا محمدٌ، وأحمدُ، والمُقَفِّى،(١) والحاشِرُ، ونبىُّ التوبةِ، ونبىُّ الرحمةِ)

رواه مسلم.

ومعنى المِقفِّى: أنى العاقب للأنبياء قبله؛ لأنه قفاهم وتبعهم فى الزمن. .

وهذه الأسماء المذكورة لا تنفى أن له أسماء أخرى كثيرة. .

---

(١) المقفِّى بكسر الفاء المشددة.

** وقد قرأتُ فى كتاب (عيون التاريخ والسِّيَر) للإمام عبد الرحمن بن الجوزى، النص الآتى:

* ذكر أبو الحسين بن فارس اللغوى أن للنبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين اسمًا: محمدًا، وأحمد، والماحى، والحاشر، العاقب، والمُقَفِّى، ونبى الرحمة، ونبى التوبة، ونبى الملاحم، والشاهد، والمبشر، والنذير، والضَّحوك، والقَتَّال، والمتوكِّل، والفاتح، والأمين، والخاتم، والمصطفى، والرسول، والنبى، والأُمِّىّ، والقُثَم.

ثم يقول: فالماحى: الذى يُمَحى به الكفر، والحاشر: الذى يُحشر الناس على قدميه، أى يقدمهم وهم خَلفه، والعاقب: أى: آخر الأنبياء، والمُقَفِّى: بمعنى العاقب؛ لأنه تبع الأنبياء - وقيل: أى الذى ليس بعده نبى - وكل شىء تبع شيئًا فقد قَفَّاه، والملاحم: الحروب، والضحوك: صفته فى التوارة.

قال ابن فارس: وإنما قيل له الضحوك؛ لأنه كان طيب النفس فكِهًا، وقال: إنى لأمزح[1]،

والقُثَم من معنيين:

أحدهما: من القُثم، وهو الإعطاء، يقال قثم له من العطاء يقثم إذا أعطاه، وكان عليه الصلاة والسلام أجود بالخير من الريح الهابة[2].

والثانى: من القثم وهو الجمع. يقال للرجل الجموع للخير قثوم - وقثم.

(١) الحديث: (إنّى لأَمْزَحُ ولا أقُولُ إلاَّ حَقًّا). أخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر، والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد عن أنس.

(٢) وفى نص حديث شريف (أجود بالخير من الريح المرسلة)

ذكر من أرضعه صلى الله عليه وسلم

فقد أرضعته[1] صلى الله عليه وسلم ثُوَيْبَةُ، مولاة أبى لهب، أيامًا قبل أن تقدم حليمة، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد، ثم أرضعته حليمة بنت عبد الله السعدية، وردته إلى أمه بعد سنتين وشهرين.

ـ والذى أرضعته حليمة بلبانه الحارث بن عبد العُزَّى، وكان إخوته من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وجدامة بنة الحارث، وهى الشيماء، لقب غلب على اسمها، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. (سيرة ابن هشام، معارف بن فتيبة)

* وزاد الشامى فى إخوته، فقال: وحمزة بن عبد المطلب، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، وحفص بن الحارث، وأبو وجزة يزيد بن عبيد.

* وقال ابن قتيبة: لَبِثَ فيهم خمس سنين، فكان عند أمه آمنة إلى أن بلغ ست سنين، ثم خرجت به ـ أمه ـ إلى المدينة، إلى أخواله بنى عدىٍّ بن النجار تزورهم به ومعها أم أيمن تحضنه، فأقامت به عندهم شهرًا، ثم رجعت به إلى مكة، فتُوفِّيت بالأبواء، فقبرها هنالك، وقيل: تُوفيت أمه وهو ابن أربع سنين.

---

(١) كما جاء فى (عيون التاريخ والسير) لابن الجوزى.

فلما تُوفيت قبضه جده عبد المطلب، فلما حضرته الوفاة أوصى به أبا طالب، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثمانى سنين وشهران وعشرة أيام، فلما أتت له اثنتا عشرة سنة وشهران وعشرة أيام ارتحل به أبو طالب تاجرًا قِبل الشام، فنزل (تيماء)(٢) فرآه حَبْرٌ من اليهود، ويقال إنه بحيرا الراهب، فقال: مَنْ هذا الغلام الذى معك؟ قال: هو ابن أخى، فقال: أشَفِيقٌ عليه أنت؟ قال: نعم، قال: فوالله لئن قَدِمتَ به الشام ليقتلنه اليهود، فرجع به إلى مكة.

(٢) تيماء: مدينة لها سور على شاطئ بحر طوله فرسخ، وبها بحيرة يقال لها العقيرة، ونهر يقال له نهر فيحاء، وهى كثيرة النخيل والتين والعنب، وبها ناس كثير من بنى جوين من طيئ، وبنى عمرو وغيرهم، ثم تخرج من تيماء إلى الشام.

فصـــل

فلما أتت له خمس وعشرون سنة خرج فى تجارة لخديجة، ثم تزوجها بعد ذلك بشهرين، فقيل: إن أبا طالب حضر العقد ومعه بنو هاشم ورؤساء مُضَر، فقال أبو طالب:

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرْع إسماعيل، وضِئضِئ[1] معدٍّ، وعنصر مضر، وجعلنا حَضَنَةَ بيته[2] وسُوَّاسَ حرمه، وجعلَ لنا بيتًا محجوجًا، وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكَّام على الناس، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يُوزَن به رجل إلا رجح به، وإن كان فى المال قُلٌّ فإن المال ظِل زائل، وأمر حائل، ومحمد مَن عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالى، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أى الأصل.

(٢) وفى ابن هشام: وشوكة حرمه.

فصـــل

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسًا وثلاثين سنة شهد بنيان الكعبة وتراضت قريش بحكمه فيها، فلما أتت عليه أربعون سنة ويوم، بعثه الله تعالى، وذلك فى يوم الاثنين، ورأت قريش النجوم يرمى بها. بعد عشرين يومًا من مبعثه، وبقى مُستَتِرا بأمره[1] ثلاث سنين من مبعثه، ثُم أُمِر بإظهار أمره، ونزل عليه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾[2] فلما أتت عليه تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا مات عمه أبو طالب، وماتت خديجة بعد أبى طالب بثلاثة أيام، وقبل بخمسة أيام فى رمضان[3]، ثم خرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة بعد ثلاثة أشهر من موت خديجة، فأقام بها شهرًا، ثم رجع إلى مكة فى جوار مطعم بن عدى، فلما أتت خمسون سنة وثلاثة أشهر أُسرِى به، فلما أتت عليه[4] ثلاث وخمسون سنة هاجر إلى المدينة، وكان قد أمر أصحابه بالهجرة، فخرجوا أرسالاً، وخرج هو، وأبو بكر، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أريقط، وخَلَّف علىٌّ بن أبى طالب على ودائع كانت للناس عنده حتى أداها ثم لحق به.

(١) أى أنه صلى الله عليه وسلم ظل يدعو إلى الله سرًا فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ثلاث سنين إلى أن أُذِن له بأن يجهر بالدعوة.

(٢) سورة الحجر ـ من الآية: ٩٤

(٣) وقد سمى النبى صلى الله عليه وسلم العام الذى ماتا فيه عام الحزن.

(٤) فى الأصل: (له).

ذكر عمومته صلى الله عليه وسلم

قال ابن السائب: هم أحد عشر:

الحارث(١)، والزبير، وأبو طالب، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق(٢)، والمقوّم، وصَفّار، والعباس، وقُثَم، وحَجَل، واسم حجل المغيرة ـ

قال غيرهم عشرة ولم يذكر قُثَمًا، وقال اسم الغيداق حُجَل، وللزبير بن عبد المطلب ولد يقال له أيضًا حُجَل واسمعه المغيرة.

ذكر عماته صلى الله عليه وسلم

وهُنَّ ستٌّ: أم حكيم وهى البيضاء(٣)، وبَرَّة(٤)، وعاتكَة(٥)، وصفية(٦)،

---

(١) الحارث بن عبدالمطلب، وكان أكبر ولده، وهو ممن حفر بئر زمزم مع عبد المطلب، وكان من رجالات قريش..

(٢) أى الرجل الكريم.

(٣) وكانت عند كبير بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس.

(٤) وكانت عند عبد الأسد المخزومى.

(٥) وكانت عند أبى أمية بن المغيرة المخزومى.

(٦) وكانت عند الحارث بن حرب بن أمية، ثم خلف عليها العوام بن خويلد، وهى أم الزبير، وقد توفيت فى خلافة عمر بن الخطاب.

وأروى[1]، وأميمة[2].

فأما صفية فأسلمت من غير خلاف، ،أما عاتكة، وأروى فقال محمد ابن سعد:

أسلمتا بمكة، وهاجرتا إلى المدينة، وقال آخر: لم تسلم منهن إلا صفية.

---

(١) وكانت عند عمير بن قصى بن كلاب.

(٢) وكانت عند جحش بن رئاب الأسدى.

ذكر أزواجه صلى الله عليه وسلم

* **خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب**: وكانت قد ذُكرت لورقة بن نوفل قبل أن يتزوجها أحد فلم يُقْضَ بينهما نكاح، فتزوجها أبو هالة، واسمه: هند، ويقال: مالك بن النباش، فولدت له هندًا وهالة، وهما ذكران، ثم خلف عليها بعده عتيق بن عائذ المخزومىّ، فولدت له جارية اسمها هند، وبعضهم قدم عتيقًا على أبى هالة، ثم خلف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يوم تزوجها رسول الله صلى الله وسلم بنت أربعين سنة، وتوفيت بعد أن مضى من النبوة سبع سنين، وقيل عشر، وهو أصح، قبل أن تُفرض الصلاة، فلم ينكح غيرها حتى تُوفيت، وكان لها يومئذ خمس وستون سنة.

وهى أول امرأة آمنت به، وجميع أولاده منها غير إبراهيم[1].

قال حكيم بن حزام: توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلها حتى دفناها بالحجون، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرتها؛ ولم يكن سُنَّة الجنازة الصلاة عليها (رضى الله عنها).

* **سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس**: أسلمت قديمًا وبايعت، وكانت عند ابن عم لها يقال له: السكران بن عمرو، وأسلم أيضًا، وهاجرا جميعًا

(١) فإنه من مارية القبطية.

إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية، فلما قدمَا إلى مكة مات زوجها، وقيل: مات بالحبشة، فلما حلَّت خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتزوجها ودخل بها بمكة، وهاجر بها إلى المدينة، فلما كبرت أراد طلاقها، فسألته ألا يفعل، وأن يدعها فى نسائه،[1] وجعلت ليلتها لعائشة فأمسكها، وتوفيت بالمدينة فى شوال سنة أربع وخمسين. (رضى الله عنها)

* **عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه:** وكانت مُسماة لجُبير بن مطعم، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر:

يا رسول الله دعنى حتى أسُلَّها من جُبير سَلا رفيقًا، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فى شوال قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث سنين وهى بنت ست سنين، وبنى[1] بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين، وبقيت عنده تسع سنين، ومات وهى بنت ثمانى عشرة سنة، ولم يتزوج بكْرًا غيرها، وماتت سنة سبع وخمسين، وقيل: ثمان وخمسين، وقد قاربت السبعين، وأوصت أن تُدفن بالبقيع مع صواحباتها[2]، وصَلَّى عليها أبو هريرة، وكان خليفة مروان بالمدينة.

وقال الواقدى: توفيت ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضت من رمضان سنة ثمان وخمسين، وهى ابنة ست وستين سنة. (رضى الله عنها)

* **حفصة بنت عمر بن الخطاب:** كانت عند خنيس بن حذافة السهمى، وهاجرت معه إلى المدينة، فمات عنها بعد الهجرة مقدم النبى صلى الله عليه وسلم من بدر، فخلف عليها رسول الله عليه وسلم، ثم طلقها تطليقة، فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صَوَّامة قوَّامة، فراجعها، وقيل: إنما هَمَّ بطلاقها ولم يفعل.

---

(١) حتى لا تحرم من هذا الشرف الذى هى فيه.

(٢) أمهات المؤمنين عليهن جميعا رضوان الله.

قال الواقدى: وتوفيت فى شعبان سنة خمس وأربعين فى خلافة معاوية، وهى ابنة ستين سنة، وقيل ماتت فى خلافة عثمان بالمدينة. (رضى الله عنها).

* أم سلمة: واسمها هند بنت أبى أمية، واسم أبى أمية سهيل، ويقال له: زاد الركب بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، كانت عند أبى سلمة ابن عبد الأسد، فهاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعًا، فولدت له هناك زينب، وولدت له بعد ذلك سلمة وعمر ودرة، ومات أبو سلمة فى جمادى الآخرة سنة أربع من الهجرة، فتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة فى ليال بقين من شوال سنة أربع، وتوفيت سنة تسع وخمسين، وقيل: سنة ثنتين وستين، والأول أصح، قال أبو نعيم الأصبهانى: وصلى عليها سعيد بن زيد، وهو غلط، والصحيح أبو هريرة، وقُبِرَت بالبقيع وهى ابنة أربع وثمانين سنة (رضى الله عنها).

* أم حبيبة: واسمها رملة بنت أبى سفيان بن حرب، كانت عند عبيد الله ابن جحش بن رياب، فولدت له حبيبة، فكُنيت بها، وهاجر عبيد الله بأم حبيبة إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية، ثم تَنَصَّر وارتدَّ عن الإسلام، وتُوفى هناك، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أُمية الضمرى إلى النجاشِى ليخطب عليه أم حبيبة، فزوجها إياه، وذلك سنة سبع من الهجرة، وأصدق النجاشى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار، وبعث بها مع شُرحبيل بن حسنة، وقيل: وكَّلت خالد بن سعيد بن العاص فزوَّجَها، ويقال قَدِمَت إلى المدينة فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزوجها إياه عثمانُ بن عفان، والأول أصح، وتوفيت سنة أربع وأربعين. (رضى الله عنها).

* **زينب بنت جحش**: بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم ابن دودان: أمها أميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت قبله عند زيد بن حارثة، وكانت من المهاجرات، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى سنة خمس من الهجرة، وتوفيت سنة عشرين وهى بنت ثلاثٍ وخمسين[1]. (رضى الله عنها)

* **زينب بنت خزيمة**: بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة: كانت تسمى فى الجاهلية أم المساكين لإطعامها إياهم، وكانت عند الطفيل بن الحارث، فطلقها، فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث، فقُتل عنها يوم بدر شهيداً.

وقال الزهرى: كانت عند عبد الله بن جحش فقتل عنها يوم أُحد، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت فى آخر ربيع الآخر على رأس تسعة وثلاثين شهراً ودُفِنت بالبقيع. (رضى الله عنها).

* **جويرية[2] بنت الحارث بن أبى ضرار**: أصابها فى غزوة بنى المصطلق، وكانت قبله عند مسافع[3] بن صفوان، وقيل: صفوان بن مالك، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها وتزوجها، وذلك فى شعبان سنة ست، وكان اسمها برة

---

(١) وهى أول من مات من أزوجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد وفاته فى خلافة عمر، وهى أول من حُمِل فى نعش، وكانت خليقة، فلما رأى عمر النعش قال: نعم خباء الظعينة، وفيها نزلت: ﴿وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه أمسك عليك زوجك﴾. (الأحزاب ـ من الآية: ٣٧)

(٢) جويرة.

(٣) مشافع.

فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم جُويرية، فلما سمع الناس بذلك أرسلوا ما فى أيديهم من سبايا بنى المصطلق، فأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت

وتوفيت فى ربيع الأول سنة ست وخمسين. وقيل: سنة خمسين، وهى ابنة خمس وستين سنة. (رضى الله عنها).

* **صفية بنت حُيَىّ بن أخطب بن سعية بن عامر**: من سبط هارون بن عمران: تزوجها كنانة بن الربيع بن الحقيق، فقُتل عنها يوم خيبر، فسباها النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ، واصطفاها لنفسه، فأسلمت وأعتقها، وجعل عتقها صداقها، وقيل: وقعت فى سهم دِحية الكلبى فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعة أرؤس، وماتت فى سنة خمسين، وقيل اثنتين وخمسين، وقيل ست وثلاثين، ودفنت بالبقيع. (رضى الله عنها).

* **ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خناقة**: من بنى النضير، كذا قال ابن سعد، وقال الكلبى: ريحانة بنت شمعون بن زيد، كانت عند رجل من بنى قريظة يقال له الحكم، فسباها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعتقها وتزوجها فى سنة ست، وماتت مرجعه من حجة الوداع، فدفنها بالبقيع.

قال الواقدى: ماتت سنة ست عشرة، وصلى عليها عُمر، وقد سمعت من يقول: إنه كان يطؤها بملك اليمين ولم يعتقها. (رضى الله عنها).

* **ميمونة بنت الحارث**: بن حَزْن بن بُجير بن الهُزَم الهلالية، تزوجها مسعود بن عمرو الثقفى فى الجاهلية، ثم فارقها، فخلف عليها أبو رُهم بن عبد العزى، وتُوفى عنها، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَرِف[1] على عشرة أميال من مكة، وذلك فى سنة سبع من الهجرة فى

(١) سَرِف على ستة أميال من مكة، وفيها أعرس رسول الله بميمونة مرجعه من مكة حين قضى نسكه، وهناك ماتت ميمونة؛ لأنها اعتلت بمكة..

عمرة القضية، وهى آخر امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدّر الله أنها ماتت فى المكان الذى بنى بها فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودفنت هنالك، وذلك فى سنة إحدى وستين، وقيل: ثلاث وستين، وقيل ثمان وثلاثين (رضى الله عنها).

ذكر من تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء ولم يدخل بهن

* الكلابية: واختلفوا فى اسمها، فقال بعضهم: فاطمة بنت الضحاك الكلابى، وقال آخرون: عُمرة بنت يزيد بن عبيد بن كلاب بن ربيعة بن عامر، وقيل: العالية بنت ظبيان، من بنى بكر بن كلاب، وقيل: سبَا بنت سفيان من بنى أبى بكر بن كلاب.

فعلى هذا هى واحدة، وإنما اختلفوا فى اسمها، وهى العامرية أيضًا، وقيل: بل هذه الأسماء للمسميات كلهن عقد عليهن.

قال الزهرى: تزوج فاطمة بنت الضحاك، فاستعاذت منه، فطلقها وكانت تقول: أنا الشقية، تزوجها فى ذى القعدة سنة ثمان من الهجر وتوفيت سنة ستين، وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كـ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل بها، لكنه لمَّا خَيَّر نساءه اختار قومها ففارقها ـ وقال ابن عمر: كان فى نساء رسول الله صلى الله ع وسلم سبَا بنت سفيان.

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا أُسَيد يخـ عليه امرأة من بنى عامر يقال لها عمرة بنت يزيد، فتزوجها، فبلغه أن بَيَاضًا فطلَّقها، وقال بعضهم مكث عند العالية زمانًا، ثم طلقها.

* **أسماء بنت النعمان بن أبى الجون بن الحارث الكندية:** وهى الجونية، قال قتادة: لما دخل عليها دعاها فقالت: تعال أنت فطلقها، وقال غيره: هى التى استعاذت منه.

وروى البخارى فى صحيحه من حديث أبى أسيد الساعدى قال:

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أميمة بنت شراحبيل، فلما أُدخلت عليه بسط يده إليها، فكانها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين.

وفى لفظ آخر قال أبو أسيد: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجونية، فلما أُدخلت عليه قال: هَبِى لى نفسك، فقالت: كيف تهب الملكَة (نفسها) للسُّوقة؟ فأهوى بيده إليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: عُذْتِ بمعاذ، ثم خرج علينا فقال: يا أبا أَسيد اكْسُها رازقيين وألحقها بأهلها.

* **قُتَيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس:** زوجه إياها الأشعث، ثم انصرف إلى حضرموت فحملها إليه، فبلغه وفاة النبى صلى الله عليه وسلم، فردها إلى بلاده، فارتدَّ وارتَدَّت معه، ثم تزوجها بعدُ عكرمة بن أبى جهل، فوجد(1) من ذلك أبو بكر وجداً شديداً،(2) فقال له عمر: إنها والله ما هى من أزواجه، ما خَيَّرها ولا حجبها، ولقد بَرَّأها الله(3) منه بالارتداد ـ وكان عكرمة ينكر أن يكون تزوجها.

* **مليكة بنت كعب الليثى:** قال بعضهم: هى التى استعاذت منه، وقال بعضهم: دخل بها فماتت عنده. وبعضه ينكر تزويجه بها أصلاً.

(1) أى غضب غضبًا شديدًا.

(2) أى غضب.

(3) وفى أسْدِ الغابة: وقد برأها عز وجل بالردة، فسكت أبو بكر.

* **سَبَا: ويقال: ثناء بنت أسماء،** تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم، فماتت قبل أن يدخل بها ـ وقال غيره: هى الكلابية المتقدم ذكرها.

* **أم شريك الأزدية:** واسمها غزية بنت جابر بن حكيم ـ وكانت قبله عند أبى بكر بن سلمى، فطلقها النبى صلى الله عليه وسلم، ولم يدخل بها، وهى التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم، وقيل: إن التى وهبت له نفسها هى خَوْلة بنت حكيم.

* **خولة بنت الهُذيل بن هُبيرة:** تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهلكت قبل أن تصل إليه.

* **شراف بنت خليفة:** أخت دحية، تزوجها ولم يدخل بها.

* **ليلى بنت الخطيم، أخت قيس:** تزوجها فكانت غيورًا، فاستقالته، فأقالها.

* **عَمْرة بنت معاوية الكندية:** تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم، قال الشعبى: تزوج امرأة من كندة فجىء بها بعدما مات.

* **ابنة جندب بن ضمرة الخندعية:** قال بعضهم: تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنكر بعضهم وجود ذلك.

* **الغفَارية:** قال بعضهم تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من غِفار فأمرها فنزعت ثيابها، فرأى بياضًا[1]، فقال: الحقى بأهلك. ويقال إنما رأى البياض من الكلابية. واختلفوا فى التى استعاذت منه، فقيل هى الكلابية، وقيل الجونية، وقيل مُلَيْكة الليثية.

---

(١) أى بَرَصًا، والعياذ بالله منه.

ذكر من خطب النبى صلى الله عليه وسلم من النساء فلم تر نكاحه ومن وهبت له نفسها

* **أم هانئ بنت أبى طالب بن عبد المطلب**: واسمها فاختة. خطبها النبى صلى الله عليه وسلم فقالت: إنى امرأة مُصْبِيَة، واعتذرت إليه، فعذرها.

* **صُباعة بنت عامر بن قرط بن سلمة**: خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيها سلمة بن هشام، فقال: حتى أستأمِرَها، وقيل للنبى صلى الله عليه وسلم: إنها قد كَبُرَت، فلما جاء أبوها إليها وأخبرها، قال: ارجع فزوِّجه، فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسكت عنها النبى صلى الله عليه وسلم.

* **صفية بنت بشامة بن فضلة**: خطبها النبى صلى الله عليه وسلم، وكان أصابها سَبْيًا، فخيرها النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: إن شئت أنا، وإن شئت زوجك. قالت: زوجى، فأرسلها، فلعنتها بنو تميم. قاله ابن عباس.

* **أم شريك**: قد ذكرناها فيمن تزوجها وطلقها، ويقال: وهبت له نفسها، فلم يقبلها.

* **ليلى بنت الخطيم**: قد ذكرناها فيمن تزوجها ثم أقالها، وقد قيل إنها وهبت له نفسها فلم يقبلها.

* **خولة بنت حكيم بن أمية**: وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم، فأرجأها، فتزوجها عثمان بن مظعون.

* **جمرة بنت الحارث بن عوف المزنى**: خطبها النبى صلى الله عليه وسلم، فقال أبوها: إن بها سوءًا، ولم يكن بها، فرجع إليها أبوها وقد بَرِصَتْ - وهى أم شبيب بن البرصاء الشاعر.

* **سَوَدة القرشية**: خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت مُصبية فقالت: أكره أن تَضْغو(1) صبيتى عند رأسك، فحمدها ودعا لها.

* **لم يُذكَر اسمها** - قال مجاهد: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت: أستأمر أبى، فلقيت أباها فأذن لها، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قد التحفْنَا لحافًا غيرك.

وممن عرض عليه صلى الله عليه وسلم من النساء فأباهُنَّ

* **أُمامةُ بنتُ حمزة بن عبد المطلب**، ويقال: اسمها عمارة، فقال: تلك ابنة أخى من الرضاعة، وعَرَض عليه الضحاك بن سفيان ابنته، ووصف جمالها، ثم قال: وإنها لم تصدع قط، قال: لا حاجة لى بها، وقيل: إن هذه هى الكلابية، قال أبوها هذا، فطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبن بها.

ذكر سرارى رسول الله صلى الله عليه وسلم

* **مارية القبطية**: بعث بها إليه المقوقس صاحب الإسكندرية(2).

* **ريحانة بنت زيد**: قد تقدم ذكرها، فبعضهم يقول: أعتقها وتزوجها،

---

(1) وفى أسد الغابة: والله ما يمنعنى منك وأنت أحب البرية إلىَّ، ولكنى أكرمك أن يضغو هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية (أى يتصايحوا).

(2) وهى التى ولدت له إبراهيم.

وبعضهم يقول: لم يَعْتِقها، وقال الزهرى: استَسَرَّ ريحانة، ثم أعتقها، فلحقت بأهلها.

قال قتادة: كان للنبى صلى الله عليه وسلم وليدتان: مارية، وريحانة، وبعضهم يقول: ربيحة القرظية.

وقال أبو عبيدة: كان له أربع: مارية، وريحانة، وأخرى جميلة، أصابها فى السبى، وجارية، وهبتها له زينب بنت جحش.

ذكر اللواتى تُوفى عنهن صلى الله عليه وسلم

قال قتادة: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسع: خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة.

ثلاث من سائر العرب: ميمونة، وزينب بنت جحش، وجويرية، وواحدة من بنى هارون (صفية).

ذكر أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم

الذكور من أولاده: **القاسم**، أمه خديجة، وبه كان يُكنى صلى الله عليه وسلم، وهو أول من مات من أولاده، وعاش سنتين.

* **وعبد الله**: وهو (الطاهر والطيب) وُلد له فى الإسلام(١).

وقال الهيثم بن عدى: حدثنى هشام بن عروة عن أبيه قال: ولدت له خديجةُ عبدَ العُزَّى، وعبدَ مناف، والقاسم، قلت لهشام: فأين الطيب والطاهر؟ قال: هذا ما وضحتم أنتم يا أهل العراق، فأما أشياخنا فقالوا: عبد العزى، وعبد مناف، والقاسم.

قال المصنف: الهيثم كذاب لا يُلْتَفَتُ إلى قوله.

---

(١) المراد منه أنه ولد بعد الرسالة.

قال لنا شيخنا ابن ناصر: لم يُسَمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد مناف ولا عبد العُزَّى قط.

وقال عروة: ولدت خديجة للنبى صلى الله عليه وسلم: القاسم، والطاهر، وعبد الله، والمطَيَّب..

وعن سعيد بن عبد العزيز، قال: كان للنبى صلى الله عليه أربعة غِلمَة: إبراهيم، والقاسم، والطاهر، والمطهَّر.

قال أبو بكر البرقى: ويقال إن الطاهر هو الطيب، وهو عبد الله: وفَرَّق قوم بينهما، ويقال إن الطيب والمطَيَّب وُلدِا فى بطن، والطاهر والمطهَّر وُلدَا فى بطن.

إبراهيم: أمه مارية القبطية، وُلدِ فيِ ذِى الحجة سنة ثمانٍ من الهجرة، وتُوفِّى ابن ستة عشر شهراً، وقيل ثمانية عشر، وهو أصح، ودفن بالبقيع.

وقال النبى صلى الله عليه وسلم: إن له مرضعاً يُتِم رضاعه فى الجنة.

وجميع أولاد النبى صلى الله عليه وسلم من خديجة سواه [1]، وكل أولاده ماتوا فى حياته، غير فاطمة[2].

ذكر الإناث من أولاده صلى الله عليه وسلم

* **فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم:** أمها خديجة، ولدتها وقريش تبنى البيت[3] قبل النبوة بخمس سنين، وهى أصغر بناته، وذكر الزبير أن أصغر البنات رقية.

---

(١) أى كلهم من السيدة خديجة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

(٢) وقد روى أنها ماتت بعده بشهور.

(٣) أى البيت الحرام: (الكعبة المشرفة).

تزوج فاطمة على بن أبى طالب فى السنة الثانية من الهجرة فى رمضان وبنى بها فى ذى الحجة، وقيل: تزوجها فى رجب، وقيل: فى صفر على بَدَنٍ(١) من حديد، فولدت له الحسن والحسين، وزينبَ، وأم كلثوم.

فتزوج زينب: عبد الله بن جعفر، فولدت له عبد الله، وعوناً، وماتت عنه.

وتزوج أم كلثوم: عمر بن الخطاب، فولدت له زيداً، ثم خلف عليها بعد عمر عون بن جعفر، فلم تلد له، ثم مات، وخلف عليها: محمد بن جعفر، فولدت له جارية، ثم خلف عليها بعده: عبد الله بن جعفر فلم تلد له، وماتت عنده.

وزاد بن إسحاق(٢) على أولاد فاطمة من على محسنًا، قال: ومات صغيراً.

وزاد الليث بن سعد: رقية، قال: وماتت ولم تبلغ.

وماتت فاطمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بستة أشهر، وقيل: ثلاثة أشهر، وهى بنت تسع وعشرين سنة، وغَسَّلَها علىٌّ وصَلَّى عليها، وقيل صلى عليها العباس، وقيل صلَّى عليها أبو بكر.

فالأول قول عروة، والثانى قول عمرة بنت عبد الرحمن، والثالث قول النخعى، وقال شيخنا ابن ناصر الحافظ: وهو أصح، ودُفِنت ليلاً.

* **زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم**: أمها خديجة، تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وكانت أم أبى العاص: هالة بنت خُويلد،

(١) البدن محركة: الدرع القصيرة.

(٢) ولعله فى أولاد فاطمة.

أخت خديجة، وكانت زينب أكبر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم فولدت لأبى العاص عليا، فتُوفى وقد ناهز الحُلم، وكان رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته يوم الفتح، وولدت له أُمامة، وهى التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملها فى صلاته، وأُسِرَ أبو العاص يوم بدر، فبعثت زينب فى فدائه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها فيها عليه حين بنى بها، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رقَّ لها رقة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتَردُّوا عليها قِلادتها، فقالوا: نعم، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى العاص أن يُخَلِّى سبيل زينب إذا رجع إلى مكة، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة، فحملها إلى المدينة.

وقال الشعبى وقتادة: إن زينب هاجرت مع النبى صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدى: والأول أصح.

وتُوفيت زينب سنة ثمان من الهجرة، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبرها.

* **رُقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم:** أمها خديجة، تزوجها عتبة بن أبى لهب قبل النبوة، فلما بُعثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأُنزِل عليه: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾(١) قال أبو لهب لابنه: رأسى من رأسك حرام إن لم تُطلق ابنته، ففارقها، ولم يكن دخل بها، وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم هى وأخواتها حين بايعه النساء، فتزوجها عثمان بن عفان، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعا، وكان قد أسقطت من عثمان سقطًا، ثم

---

(١) سورة المسد ـ الآية الأولى.

ولدت له بعد ذلك عبد الله، وكان عثمان يُكنى به فى الإسلام، وبلغ ست سنين، فنقره ديك فى وجهه، فمات، ولم تلد شيئًا بعد ذلك.

وهاجرت إلى المدينة، ومرضت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز إلى بدر، فخلَّف عثمان عليها، فتوفيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة، وقدم زيد بن حارثة بشيراً من بدر، فدخل المدينة حين سُوِّى التراب على رقية، ولم يشهد دفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* **أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم:** أمها خديجة، تزوجها عُتَيْبَةُ ابن أبى لهب قبل النبوة، وأمره أبوه أن يفارقها للسبب الذى ذكرناه فى أمر رقية، ففارقها، ولم يكن دخل بها، فلم تزل بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسلمت حين أسلمت أمها، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخواتها حين بايعه النساء، هاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما توفيت رقية تزوجها عثمان، وتوفيت فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعبان سنة تسع من الهجرة، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرها، ونزل فى حفرتها علىٌّ والفضل وأسامة.

** قال أبو بكر البرقى: كان جميع ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة، ويقال: ثمانية: القاسم، والطاهر، والطيب، وإبراهيم، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

وذكر الزبير بن بكار أن أكبر ولده: القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، وكان يقال له: الطيب والطاهر، وُلد بعد النبوة ومات صغيراً، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية.

فمات القاسم بمكة، ثم مات عبد الله.

تسميةُ مَن كان يُشَبَّه بالنبى صلى الله عليه وسلم

جعفر بن أبى طالب، والحسن بن على، وقُثَم بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث، والسائب بن عُبيد، ومُسلم بن مُعَتَّب، وكابس بن ربيعة بن مالك السامى، وهو رجل من أهل البصرة من بنى سَامَة بن لؤىٍّ، وجَّه إليه معاوية، وقَبَّل بين عينيه، وأقطعه قطيعة، وكان أنس بن مالك إذا رآه بكى.

ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ابتدأ به صداع فى بيت عائشة، ثم اشتد أمره فى بيت ميمونة، واستأذن نساءه أن يُمرَّضَ فى بيت عائشة، فأذِنَّ له، وكان مدة عِلَّته اثنى عشر يومًا، وقيل أربعة عشر يومًا.

قال ابن حبيب الهاشمى: وصلى أبو بكر بالناس فى مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة صلاة، ويقال: ثلاثة أيام، ولم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خُيِّرَ بين لقاء الله تعالى وبين البقاء فى الدنيا، فاختار لقاء الله تعالى، ومات فى يوم الاثنين، غرة ربيع الأول حين اشتد الضحى، وقيل: لليلتين خلتا منه، وقيل لاثنتى عشرة خلت منه ـ وهو أصح ـ ودفن ليلة الأربعاء وسط الليل ـ وقيل ليلة الثلاثاء ـ وقيل يوم الثلاثاء، والأول أصح ـ وصلى عليه المسلمون أفرادًا لا يؤمهم أحد، ودفن فى موته.

وقيل: إنه وُلد يوم الاثنين، وبُعث يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وقُبض يوم الاثنين.

تسمية من حضر غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم

العباس، وعلى، والفضل بن العباس، وصالح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو شُقْران ـ وفى رواية: أسامة بن زيد، وأوس بن خَوْلى

الأنصارى، وقُثَم بن العباس.

وكان علىٌّ يلى غَسله، والفضل وقُثم يقلبونه مع علىٍّ، وأُمامة وصالح يصبان الماء، وأوس حاضر لا يلى شيئًا ـ وقيل كان العباس بالباب.

تسمية من نزل لحده صلى الله عليه وسلم

العباس، وعلىٌّ، والفضل، وصالح، وفى رواية: أسامة، وعبد الرحمن ابن عوف، وأوس بن خَوْلى ـ وفى رواية: عقيل بن أبى طالب، وقُثَم بن العباس، ونُقل عن المغيرة بن شعبة أنه ألقى خاتمه فى القبر، ثم نزل فكان آخر الناس عهدًا به، وقيل: بل نزل قُثم.

ذكر سِنّة يوم موته صلى الله عليه وسلم

روى البخارى ومسلم فى الصحيحين عن ابن عباس أنه قال:

أُنْزِل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة، وأقام بمكة ثلاث عشرة، وبالمدينة عشرًا، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة، وكذلك روى عن عائشة ومعاوية وابن المسيب والقاسم فى مقدار سنه.

وروى ابن عباس أنه تُوفِّىَ ابن خمسٍ وستين، وعن أنس قال: تُوفى على رأس ستين، ومثله عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأول أصح.

* * *

** والآن ـ أخا الإسلام ـ وبعد أن نقلت إليك أهم الأخبار المتعلقة برسول الله صلى الله عليه وسلم(١)، وآل بيته الكرام، أواصل معك بعد ذلك موضوع الصفاتِ الْخِلقية لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) كما جاء فى كتاب (عيون التاريخ والسير) للإمام عبد الرحمن بن الجوزى

وما هى أوصافه الخلقية فى جسمه الشريف صلى الله عليه وسلم ؟

ولكى نقف على إجابة هذه الاستفسارات حسبنا أن نقرأ الأحاديث الشريفة الآتية:

عن أنس رضىَ اللهُ عنه قال: «كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَبْعةً من القوم، لَيْسَ بالطويل ولا بالقصير، أَزْهَرَ اللونِ، ليسَ بأبيضَ أَمْهَقَ ولا آدَمَ، ليس بِجَعْدٍ قَطَطٍ ولا سَبَطٍ رَجِلٍ، أنْزِلَ عليه وهو ابنُ أربعينَ، فَلَبِثَ بمكةَ عشرَ سنينَ، وقبضَ(١) وليسَ فى رأسهِ ولحيته عشرونَ شعرةً بيضاءَ»

رواه الشيخان والترمذى.

فمعنى: أنه ليس أبيض أمهق، أى: ليس ناصع البياض لا يخالطه شىء.. ولا آدم، أى: من الأدَمَة، وهى السُّمْرَة، وهما بيان الأزهر، فكان بياضه صلى الله عليه وسلم ممزوجًا بحمرة.

ومعنى أنه ليس بجَعْدٍ قطَطٍ ولا سَبَطٍ رَجِلٍ: أى ليس شعره بجعد قطط من الجعودة كشعر الأفارقة، ولا سَبَط رَجِلٍ، أى: ليس بمرسل مستوٍ كموج الماء، وهو أحسن الشعر.

---

(١) قبض: أى مات.

ومعنى أنه أُنزِل عليه وهو ابن أربعين: أى أُوحِيَ إليه.. ولكنه لم يؤمر بتبليغ الرسالة إلا فى ثلاث وأربعين.

* وعن البَرَاء رضى الله عنه قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رَجُلاً مَرْبُوعًا بعيدَ ما بين المَنْكِبَيْن، عظيمَ الجُمَّة إلى شحمة أُذُنَيْه، عليه حُلَّةٌ حمراءُ، مار أيتُ شيئًا قطُّ أحسنَ منه».

رواه الشيخان والترمذي

فمعنى أنه كان بعيد ما بين المنكبين: أى عريض الصدر. والجُمَّة ـ على وزن قُبَّة: أى الشعر النازل من رأسه إلى شحمة أذنيه.

* وعن البراء أيضا قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناسِ وَجْهًا وأحْسَنَهُم خُلُقًا، ليس بالطويل البَائن، ولا بالقصير».

رواه الشيخان

فمعنى أنه ليس بالطويل البائن: أى أنه أطول من الوسط، ولكنه صلى الله عليه سلم كان إذا مشى مع الطويل ساواه.

* وسُئِل البراء رضى الله عنه: «أكانَ وَجْهُ النبىِّ صلى الله عليه وسلم مثلَ السيفِ؟

قال: لا، بل مثل القمرِ».

رواه البخارى والترمذى.

* وعن أبى الطفيل رضى الله عنه قال: «رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وما على وَجْهِ الأرضِ رآهُ غيرى، فقيلَ له: كيفَ رأيتَه؟ قالَ: كان أبيضَ مَليحًا مقصَّدًا».

رواه مسلم.

فمعنى أنه كان أبيض مليحًا مقصدًا: أى أنه كان معتدلاً فى الطول والعرض.

ورواه أبو داود، وفى لفظٍ له:

«رأيتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم أبيضَ مليحًا، إذا مشى كأنَّما يَهْوِى فى صُبوبٍ».

فمعنى، فى صبوب: أى انحدار.

* وقال جابر بن سمرة رضى الله عنه:

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضَلِيعَ الفمِ، أشْكَلَ العينِ، مَنْهوسَ العَقِبَيْن».

رواه مسلم والترمذى.

فمعنى أنه كان ضليع الفم، أى: واسعَهُ، وهذه علامة البلاغة. وأشْكَلَ العين: أى واسعَ العينين حَسَنَهُما. ومنهوسَ العقبيْن، أى لحمهما خفيف.

* وعَن علىٍّ رضى الله عنه قال: «لم يكنْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالطَّويلِ ولا بالقَصيرِ، شَثْنُ الكَفَّيْنِ والقَدَمَيْنِ، ضَخْمُ الرأسِ، ضخمُ الكراديس، طويلُ المسرُبَة، إذا مشى تكَفَّأَ تكَفُّؤا كأنما انحطَّ من صَبَبٍ، لم أَرَ قبلَهُ ولا بَعْدَهُ مِثْلَه».

فمعنى أنه كان شثن الكفين: أى عظيمَهُما. وضخم الكراديس: أى رءوس العظام. وطويل المسربة: أى شعر الصدر إلى العانة. ومن صَبَبٍ: أى من عالٍ.

وكان علىٌّ رضى الله عنه إذا وصف النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لم يكن بالطويل المُمَغَّطِ، ولا بالقصير المتَرَدِّد، وكان رَبْعَةً من القومِ، ولم يكن

بالجَعْد القطَط، ولا بالسَّبط، ولم يكن بالمُطَهَّم، ولا بالمُكَلْثَم، وكان فى الوجه تَدْويرٌ، أبيض مُشْرَبًا، إذا مَشى تَقلَّع كأنما يمشى فى صَبَب. وإذا التَفَتَ التفَتَ مَعًا، بين كَتفيه خاتَمُ النُّبوَّة، وهو خاتَمُ النَّبِيِّينَ، أجودَ الناسِ كَفا، وأشرحَهم صدرًا، وأصدقَ الناس لهجةً، وألْيَنهُم عَرِيكَةً، وأكرمهم عِشْرةً، مَنْ رآه بديهةً هابَهُ، ومن خَالَطَهُ معرفةً أَحَبَّهُ، يقول ناعِته: لم أَرَ قبلَه ولا بعدَه مثله».

فمعنى المُمَغَّط، أى: الطويلَ الرفيع. والقصير المتردِّد: أى المتداخل بعضه فى بعض. ولم يكن الجعد ولا بالسبَط: أى شعره - كما تقدم - ولم يكن بالمطهم: أى كثير اللحم.. ولا بالمكَلْثَم: أى كثير لحم الوجه والخدين. وكان أبيضَ مُشْرَبًا: أى بحمرة. إذا التفتَ التفتَ معًا: أى بجسمه كله. ألينهم عريكة: أى ألينهم جانبًا. وأكرمهم عِشْرَةً: أى: أسهلهم معاشرة.. من رآه بديهة هابه: أى مَنْ نَظَرَهُ فجأةً. يقول ناعته: أى واصفه، لم أر قبله ولا بعده إنسانًا مثله فى حسن الظاهر والباطن، فهو صلى الله عليه وسلم كاملٌ فى أوصافه الجثمانية والروحانية.

* وقال أبو هريرة - رضى الله عنه - : «ما رأيتُ شيئًا أحسنَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مِشْيَتِه، كأنَّما الأرضُ تُطْوَى له، وإنا لنُجْهِدُ أنفسنا، وإنه لَغَيْرُ مُكترِث».

روى هذه الثلاثة الترمذى، والله أعلم.

وصف أم معبد الخزاعية
لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد قرأت فى كتاب (القرآن والنبى) صلى الله عليه وسلم للدكتور الإمام: عبد الحليم محمود ـ رحمه الله تعالى ـ أن الحبيب صلوات الله وسلامه عليه يوم أن هاجر من مكة إلى المدنية، يرافقه أبو بكر رضى الله عنه، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر، ودليلهم: عبد الله بن أريقط، مَرُّوا بخيمة أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة قوية الأخلاق، عفيفة، تقابل الرجال، فتتحدث إليهم وتستضيفهم، وسألها الركْبُ عن تمر أو لحم يشترونه فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك، فقد كانت سنة من السنين العجاف، فقالت لهم: والله لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القِرَى، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة فى ركن الخيمة، فقال: (ما هذه الشاة يا أم معبد؟) قالت: هذه الشاة خَلَّفها التعب عن الغنم. فقال صلوات الله وسلامه عليه: (هل بها من لبن؟) فقالت: هى أجهد من ذلك. قال: (أتأذنين أن أحلبها؟) قالت: نعم، بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلبًا. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالشاة، فمسح ضرعها، وذكر اسم الله وقال: (اللهم بارك لها فى شاتها).

فامتلأ ضرع الشاة، ودر لبنها، فدعا بإناء لها كبير، فحلب فيه حتى امتلأ الإناء، فسقى أم معبد، فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رَوُوا، وشرب صلى الله عليه وسلم، آخرهم، وقال: (ساقى القوم آخرهم).

فشربوا جميعًا مرة بعد مرة. ثم حلب فيه ثانيةً عودًا على بدء، فغادروه عندها، ثم ارتحلوا عنها، فما لبثت أن جاء زوجها يسوق أعنزًا عجافًا هَزلى، فلما رأى اللبن عجب واستغرب، وقال: من أين لكُمْ هذا، ولا حَلُوبَةَ فى البيت؟. قالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك، كان من حديثه، كيت وكيت.

قال: والله، إنى لأراه صاحب قريش الذى يُطْلَبُ، صِفيه لى يا أم معبد. قالت:

«رأيتُ رجلاً ظاهر الوَضاءَة،(١) مبْتَلِج الوجه، حَسَنَ الخُلُقِ، لم تُعبْهُ ثَجْلَةٌ، ولم تُزْرِ به صَعْلَةٌ، وسيمٌ قسيمٌ، فى عينيه دَعَجٌ، وفى أشفاره وَطَفٌ، وفى صوته صَحَلٌ، أحْوَرُ، أكْحَلُ، أزَجُّ، أقْرَنُ، شديدُ سواد الشَّعْرِ، فى عنقه سَطَحٌ، وفى لحيته كثافَةٌ، إذا صمتَ فعليه الوقارُ، وإذا تكلمَ سما وعلاه البهاءُ، وكأن مَنْطقَهُ خرزات نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ، حلو المَنْطقِ، فَصلٌ، لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ، أجهرُ الناس، وأجملُهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب، رَبْعَةٌ، لا تَشْنَؤُه(٢) من طُول، ولا تَقْتَحمُهُ عينٌ من قصَرٍ، غُصنٌ بين غُصنين، فهو أنْضَرُ الثلاثة منظرًا، وأحْسَنُهم قَدْرًا، لَهُ رُفَقاءُ يَحُفُّون به، إذا قال استمعوا لقولِه، وإذا أمَرَ تبادروا إلى أمرِه، محفودٌ، محشودٌ، لا عابثٌ، ولا مُفَنَّد.

قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذى ذُكر لنا من أمره ما ذُكِر، ولو كنتُ وافقتُه يا أمَّ معبد، لتلمستُ أن أصحبَه، ولأفعلنَّ إن وجدت لذلك سبيلاً.

فمعنى: مبتلج: أى مشرق الوجه. ولم تعبه ثجلة: أى ضخامة البطن.

---

(١) أى حسن الوجه.

(٢) أى لا تبغضه.

ولم تزر به صعلة: أى لم يَشِنْهُ صِغَرُ الرأس. وفى أشفارِه وَطَفٌ: أى طويل شعر الأجفان. وفى صوته صَحَل: أى رخيم الصوت. وفى عنقه سطح: أى ارتفاع وطول. لا نزر ولا هذر: أى لا عى فيه ولا ثرثرة فى كلامه. رَبعة: أى وسط ما بين الطول والقصر. لا تشنؤه: أى لا تبغضه. ولا تقتحمه عين: أى لا تحتقره. محفود: أى يسرع أصحابه فى طاعته. محشود: أى: يحتشد الناس حوله. ولا مفند: أى: غير مخرف فى الكلام.

وإتمامًا للفائدة أضيف: (١) أنه أصبح صوت بمكة عاليا بين السماء والأرض يسمعونه ولا يُرى من يقوله وهو يقول:

جزى اللهُ ربُّ الناسِ خيرَ جزائِه ... رفيقَيْن حَلاَّ خيمتىْ أمِّ مَعْبَدِ

هُما نَزَلا بالبرِّ وارتحلا به ... فأفلحَ من أمسى رفيقَ محمدِ

فيا لَقُصَىٍّ، ما زَوى الله عنكمُ ... به من فَعال لا تُجازَى وسؤددِ

سَلُوا أختكم عن شاتِها وإنائها ... فإنكمُ إنْ تسألوا الشاةَ تشهدِ

دعاها بشاةٍ حائلٍ فتحلَّبَتْ ... له بصريح ضرةُ الشاةِ مُزْبِدِ

فغادره رَهْنًا لديها لحالبٍ ... يُدِرٌّ لها من مصدر صم موردِ

فأصبح القوم وقد فقدوا نبيهم، وأخذوا على خيمتى أم معبد حتى لحقوا النبى صلى الله عليه وسلم. قال: فأجابه حسان بن ثابت يقول:

لقد خابَ قومٌ زال عنهم نبيهُّم ... وقدِّس من يسرى إليه ويغتدى

ترحَّل عن قوم فزالت عقولُهم ... وحَلَّ على قومٍ بنورٍ مُجَدَّدِ

فهل يستوى ضُلاَّلُ قومٍ تسكَّعوا ... عَمًى، وهُداةٌ يهتدونَ بمهتدى

(١) كما جاء فى كتاب (السيرة النبوية) للإمام عبد الرحمن بن الجوزى.

نبيٌّ يَرَى ما لا يَرَى الناسُ حولَهُ ... ويتلو كتابَ اللهِ في كلِّ مَشْهدِ
فإنْ قالَ في يومٍ مقالةَ غائبٍ ... فتصديقُها في ضَحْوَةِ اليومِ أوغدِ
لِيَهْنَ أبا بكرٍ سعادةُ جَدِّه ... بصحبته، من يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ
ويهن بني كعب مكانُ فتاتِهم ... ومقعدها للمسلمين بمرصدِ

قال عبد الملك بن مروان: فبلغنا أن أم معبد هاجرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأسلمت[1].

(١) الخبر والأبيات في ديوان (حسان) شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وصف شعر النبى صلى الله عليه وسلم

* عن قتادة رضى الله عنه، قلت لأنس: «كيف كان شعر النبى صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان شعرًا رَجِلاً، ليس بالجَعْدِ ولا بالسَّبَط، بين أذنيه وعاتقه».

رواه الشيخان والترمذى.

* وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله كان يضربُ شعرُه منكبيْه.

وفى رواية: إلى أنصاف أُذنيه.

وفى أخرى: إلى شَحْمَةِ أُذنيه.

* وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: «كان أهل الكتاب يَسْدِلُون أشعارَهم، وكان المشركون يَفْرُقونَ رءوسهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحِبُّ موافقة أهلِ الكتاب فيما لم يُؤْمَر به، فسَدَلَ ناصيتَهُ، ثم فَرَقَ بعد».

رواه الثلاثة[1].

* وعن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شَمِطَ مُقَدَّمُ رأسِه ولحيته، وكان إذا ادَّهَنِ لم يتَبَيَّن، وإذا شَعِثَ

(١) وهم أبو داود، والترمذى، والنسائى.

رأسه تَبيَّن، وكان كثير شعر اللحية، فقال رجل: وجهه مثل السيف؟

قال: لا، بل كان مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً.

رواه مسلم.

فمعنى بين أذنيه وعاتقه: أى بين الأذنين والكتف؛ لأن العاتق هو الكتف. ولا تنافى بين هذه الروايات الواردة فى حديث قتادة وأنس؛ فإنه كان إذا سرح ومد كان إلى منكبيه، وإذا ترك كان تارة إلى شحمة أذنيه، وتارة فوقها، وتارة تحتها. والشمط بالتحريك: أى اختلاط بياض الشعر بسواده. وكان إذا ادَّهَنَ لم يتبين، أى الشيب، فإن الدهان يكسو الشعر كله لونًا واحدًا، وإذا شعث رأسه: أى ذهب الدهان وتفرق الشعر تبين الشيب، ولكنه كان قليلا فى مقدم رأسه وفى صدغيه وفى عنفقته. صلى الله عليه وسلم. ومثل السيف: أى أبيض لامعًا. قال: لا بل مثل الشمس والقمر: أى فى التدوير والبياض، ولكنه كان مُشْرَبًا بحمرة، وهو أفضل الألوان فى الدنيا، بخلاف لون أهل الجنة فإنه أبيض نباتى.

وقد جاء فى (شرح المصابيح): أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحلق رأسه فى سِنى الهجرة إلا فى عام الحديبية، وعمرة القضاء، وحجة الوداع، ولم يُقَصِّر شعره إلا مرة واحدة، كما فى الصحيحين(١).

وسئل الإمام أحمد عن الرجل يتخذ الشعر، فقال سُنة حسنة لو أمكننا اتخذناه. كان للنبى صلى الله عليه وسلم جمة(٢).

وقال البراء بن عازب: «ما رأيتُ من ذى لِمَّة فى حُلَّة حمراءَ أحسنَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، له شَعْرٌ يضربُ منكبيْه».

أخرجه الشيخان والترمذى فى الشمائل

(١) انظر ص ٣٩ المواهب اللدينة على الشمائل المحمدية

(٢) ص ٧٣ ج ١ مغنى ابن قدامة.

وقالت عائشة: «كنتُ أغتسلُ أنا وسول الله صلى الله عليه وسلم من إناءٍ واحدٍ، وكانَ له شَعْرٌ فوقَ الجُمَّةِ ودون الوَفرَةَ».

أخرجه أبو داود والترمذى فى الشمائل.

قال فى (الدين الخالص) ج ١:

(ويُسْتَحَبٌّ) أن يكون شعر الإنسان على صفة شعر النبى صلى الله عليه وسلم: إذا طال فإلى منكبيه، وإن قصر فإلى شحمة أذنه.

(ويستحب) إكرام الشعر بالدهن والتسريح

(قال) عطاء بن يسار: أتى رجلٌ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ثائر الرَّأْسِ واللحية، فأشار إليه رسول الله صلي الله عليه وسلم، كأنه يأمره بإصلاح شعره ولحيته، ففعل، ثم رجع، فقال صلي الله عليه وسلم: أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟)

أخرجه مالك وابن حبان وصححه.

(وقال) أنس بن مالك: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ دَهْنَ رأسِهِ وتسريحَ لحيتهِ ويُكثِرُ القِناعَ(١) حتى كأنَ ثوبَهُ ثوبُ زيَّات».

أخرجه الترمذى فى الشمائل.

وقال فى (الدين الخالص) ج١:

(يباح) للرجل حلق رأسه عند الجمهور؛ لحديث عبد الله بن جعفر أن النبى صلى الله عليه وسلم أمهل أهل جعفرٍ ثلاثًا أن يأتيهَم، ثم أتاهم فقال: (لا تبكوا على أخى بعد اليوم، ثم قال: ادعوا لى بنى أخى، فجيء بنا كأنا أفرخ(٢)، فقال: ادعوا لى بالحلاق، فحلق رءوسنا)

أخرجه أحمد وأبو داود والنسائى بسند حسن، وفى شيخه مقال.

---

(١) القناع بكسر القاف وتخفيف النون: خرقة توضع على الرأس حين استعمال الدهن لتقى العمامة منه...

(٢) شبههم بذلك؛ لأن شعرهم يشبه زغب الطير، وهو أول ما يطلع من ريشه.

(وأما النساء) فيحرم عليهن حلق رءوسهن؛ لقول على رضى الله عنه: (نَهَى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تَحْلِقَ المرأةُ رأسَها)

أخرجه النسائى والترمذى، وقال: فيه اضطراب.

ولأن فى حِلقها رأسَها تشبهًا بالرجال، وهو حرام؛ لقول بن عباس:

«لعن رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم المتشبهين من الرجالِ بالنساءِ، والمتشبهاتِ من النساءِ بالرجال»

أخرجه السبعة(١) إلا مسلما.

وحول (حلق بعض الرأس) قال كذلك فى (الدين الخالص): أجمع العلماء على أنه يكره تنزيها حلق بعض الرأس وترك بعضه (لحديث) نافع عن ابن عمر قال: «نهى النبى صلى اله عليه وسلم عن القَزَع(٢)»، فقيل لنافع: ما القزع؟ قال: أن يُحلق بعض رأس الصبى ويُترك بعض.

أخرجه السبعة إلا الترمذى(٣)

(وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم رأى صبيا قد حُلِقَ بعضُ رأسِه وتُرِكَ بعضُه، فنهاهم عن ذلك وقال: (احلقوه كله أو ذروه كله)

أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى بسند صحيح.

(ففى هذين) الحديثين النهى عن القزع، وأصل النهى للتحريم، لكن قال النووى: أجمع العلماء على كراهة القزع كراهة تنزيه(٤)، وكرهه مالك فى

(١)السبعة هم: البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد.

(٢) القزع بفتح القاف والزاى جمع قزعة، وهى فى الأصل القطعة من السحاب.

(٣) أى: أخرجه، البخارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وأحمد.

(٤) كراهة تحريم، أى: إلى الحرام أقرب، كراهة تنزيه، أى إلى الحلال أقرب.

الجارية والغلام مطلقًا. وقال بعض أصحابه: لا بأس به فى القُصَّة والقفا للغلام. ومذهبنا[1] كراهته مطلقا للرجل والمرأة لعموم الحديث، (والحكمة) فى كراهته أنه يشوه الخلقة. وقيل: لأنه زى أهل الشر. وقيل: لأنه زى اليهود[2] وقد جاء هذا مصرحًا به فى رواية عن الحجاج بن حسان قال: دخلنا على أنس بن مالك (فحدثتنى أختى المغيرة) قالت: وأنت يومئذ غلام ولك قرنان أو قصتان[3]، فمسح رأسك وبرَّك عليك، وقال: احلقوا هذين أو قصوهما، فإن هذا زى اليهود.

أخرجه أبو داود.

وأما عن (حلق جميع الرأس أو تركه) فقد قال كذلك (فى الدين الخالص) ما خلاصته: والراجح ماذهب إليه الجمهور من جواز حلق جميع الرأس أو تركه بلا كراهة

قال الغزالى: لا بأس بحلق جميع الرأس لمن أراد التنظيف، ولا بأس بتركه لمن يَدَّهِن ويترجَّل. ومن عَسُر عليه كضعيف وفقير منقطع يتلبد شعره، ويجمع القمل والوسخ فحلقه أولى.

وهذا كله فى حلق الرجال. أما النساء فقد عرفنا قبل ذلك أنه يحرم عليهن حلق رءوسهن.

وإتمامًا للفائدة، فإننى أرى كذلك أن أُذكِّر هنا ببعض الأحكام المتعلقة بشعر المرأة فقد جاء فى (الدين الخالص) تحت عنوان:

---

(١) يعنى مذهب الشافعية.

(٢) انظر ص ١٠١ ج ١٤ نووى مسلم.

(٣) (القرن) الصغير من شعرة الرأس (والقصة) شعر الناصية.

وصل الشعر

وهو أى يضاف إلى شعر رأس المرأة شعر آخر يكثر به. فقد أفتى بأنه حرام؛ لقول أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما: جاءت امرأةٌ إلى النبىِّ صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّ لى ابنة عُرَيِّسًا[1] أصابتْها حَصْبَةٌ[2] فتَمرَّقَ[3] شعرها أفأَصِلُه؟

فقال: (لعن الله الواصلة والمستوصلة)

أخرجه الشيخان والنسائى

و(الواصلة) هى: من تصل شعر المرأة بشعر آخر (والمستوصلة): من تطلب وصل شعرها. والحديث صريح فى تحريم الوصل، ولعن الواصلة والمتسوصلة مطلقًا على الظاهر المختار.

(وقد) فصل الفقهاء: فقال الحنفيون ومالك وكثيرون: الوصل ممنوع سواء وصلته بشعر أو صوف أو خِرق لقول جابر: زجر النبىُّ صلى الله عليه وسلم أن تصِلَ المرأةُ برأسِها شيئًا.

أخرجه مسلم.

وقالت الشافعية: إنْ وصلت شعرَها بشعر آدمىٍّ فهو حرام اتفاقًا؛ لعموم الأحاديث، ولأنه يحرم الانتفاع بشعر الآدمى احترامًا وإكرامًا. وكذا إن وصلته بشعر نجس من غير آدمى، وهو شعر الميتة، وشعر ما لا يؤكل لحمه،

(١) عُريسا بضم ففتح فشد الياء مكسورة تصغير عروس، ويطلق على الرجل والمرأة عند الدخول بها.

(٢) الحصبة: بفتح فسكون أو بفتح الصاد وكسرها. والإسكان أشهر: وهى بثر تخرج فى الجلد.

(٣) وتمرق بالراء المشددة وروى بالزاى المعجمة بمعنى تساقط.

إذا انفصل فى حياته؛ للحديث، ولأنه حمل نجاسة عمدًا (وإن) وصلته بشعر طاهر من غير الآدمى، ولم يكن لها زوج فهو حرام[1] أيضًا، وإن كانت ذاتَ زوج فثلاثة أوجه: أصحها إن فعلته بإذن الزوج جاز، وإلا فهو حرام؛ لما تقدم، ولحديث حميد بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع معاوية عام حَجٍّ وهو على المنبر وتناول قُصَّة[2] من شعر كانت فى يد حَرَسِىٍّ[3] يقول: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذه، ويقول: إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم.

رواه الجماعة[4].

(وقال) أحمد والليث: والوصل الحرام مختص بوصل الشعر بالشعر؛ لما فيه من التدليس واستعمال المختلف فى نجاسته. وغيره لا يحرم لما فيه من تحسين المرأة لزوجها من غير مضرة ولا مخالفة[5]

(أما ربط) خيوط الحرير الملونة وغيرها مما لا يشبه الشعر فليس بمنهى عنه اتفاقًا؛ لأنه ليس بوصل، وإنما هو للتجمل والتحسين[6].

** وأما عن:

نمص الشعر

وهو إزالة شعر الوجه والحاجبين: فهو حرام كذلك، إلا إذا نبت للمرأة

(1) انظر ص ١٠٣ ج ١٤ نووى مسلم (تحريم فعل الواصلة).

(2) القصة بضم القاف وشد الصاد: الخصلة من الشعر تؤخذ من الناصية حذاء الجبهة.

(3) والحرسى بفتحتين واحد الحرس، وهم خدم السلطان المرتبون لحراسته.

(4) وهم: مالك، وأحمد، والبخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه.

(5) انظر ص ٧٧ ج١ مغنى ابن قدامة.

(6) انظر ص ١٠٤ ج١٤ نووى مسلم.

لحية أو شارب فلا تحرم الإزالة، بل تُستحب أو تجب. وأصله حديث ابن مسعود قال: (لعن الله الواشمات والمستَوْشِمات، والنَّامِصات، والمُتَنَمِّصات، والمُتَفَلِّجَاتِ للحسن المُغَيِّرات خلق الله)

أخرجه السبعة(١).

* أما الواشمة فهى التى تَشِمُ غيرها بأن تغرز إبرة أو نحوها فى ظهر الكف أو غيره من البدن حتى يسيل الدم، ثم تحشو ذلك الموضع بالكحل أو النورة فيخضر، وهو حرام علي الفاعل والمفعول به باختياره والطالب له. وموضع الوشم يصير نجسًا عند الشافعية، فإن أمكن إزالته وجبت، وإن لم يمكن إلا بالجرح بلا مشقة ولا خوف تلف لزم إزالته فورًا، وإن خاف منه تلفًا أو فوات عضو أو شيئًا فاحشًا لم تجب إزالته.

* والمستوشمة: التى تطلب الوشم، وهو حرام أيضا.

* والنامصة، بالصاد المهملة: هى التى تزيل الشعر من الوجه والحاجبين، والمتنمصة: التى تطلب ذلك، وهو حرام.

والمتفلجة بالجيم: التى تفعل الفَلَج (بفتحتين) فى أسنانها بأن ترقق أسنانها بمبرد؛ إظهارًا للصغر وحسن الأسنان، ويقال له الوَشْر (بفتح فسكون) ومنه لعن الله الواشِرة والمُستَوْشِرة.

وهذا الفعل حرام على الفاعل والمفعول به ذلك للحسن، أما إن فُعِل ذلك علاجًا أو لعيب فى السن فلا بأس به(٢).

و (المغيرات خلق الله): صفة لازمة لمن تصنع الوشم وما بعده، فلا يجوز للمرأة تغيير شيء من خلقتها بزيادة ولا نقص؛ التماسًا للحسن لزوجها أو

(١) وهم البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه، وأحمد.
(٢) انظر ص ١٠٦ ج١٤ نووى مسلم (تحريم فعل الواصلة).

غيره كمقرونة الحاجبين تزيل ما بينهما توهم البلَج (بفتحتين) وهو الوضوح والظهور، وهو حرام بالإجماع؛ لأن الله خلق الصور فأحسنها، وفاوت الجمال بينها. فمن أراد أن يغير خلق الله فيها ويبطل حكمته فيها فهو جدير بالإبعاد والطرد؛ لأنه ارتكب أمراً ممنوعًا غير مأذون فيه.

(ومنه) تغيير الوجه والشفتين والحواجب والأظفار بالألوان المختلفة. أما المأذون فيه كالسواك والاكتحال فغير داخل فى المنع(١).

** وأحب أن تعلم الأخت المسلمة ـ عافانا الله تعالى وإياها ـ أنه هذا السائل الأحمر الكثيف الذى يعرف باسم (المونوكير) أو (الأكلادور) والذى يوضع على الأظفار ـ يُعَدُّ حائلاً بين وصول الماء إلى العضو فى الوضوء أو الغُسل، أى أن الوضوء أو الغسل يقع باطلاً مادام هذا السائل موجودًا على الإصبع، والشرط فى صحة الوضوء ألا يكون هناك حائل يمنع وصول الماء إلى العضو، وكذلك الحال فى الغُسل.

بالإضافة إلى أن وضع هذا السائل على الأظفار. أو المساحيق التى توضع كذلك على الوجه بتلك الصورة ـ يُعَدُّ من الأمور المؤسفة التى يندى لها جبين كل مسلم غيور على بنات المسلمين والمسلمات: فإن فعلاً كهذا يعتبر حرامًا. بل وإجرامًا فى حق الفضيلة.

** وقد يسأل الأخ المسلم ـ كذلك ـ عن حكم:

تغيير الشيب

فأجيبه كلك بمضمون ما هو ثابت فى الجزء الأول من (الدين الخالص) فقد قال: يستحب خضاب شعر الرأس واللحية بالصفرة والحمرة عند الأئمة

(١) انظر صل ٢٧٣ ج٥ منادى إلجامع الصغير رقم ٧٢٧٢.

الأربعة، ويحرم بالسواد عند الشافعية، وصوَّبه النووى، قال: يمنع المحتسبُ الناس من خضاب الشيب بالسواد إلا المجاهد، ودليل تحريمه: حديث جابر بن عبد الله، قال: أُتِى بأبى قُحافه يوم الفتح ورأسه ولحيته كالثغامة(١) بياضًا، فقال النبى صلى الله عليه وسلم:

(غيِّرُوا هذا بشىءٍ واجتنبُوا السوادَ).

أخرجه أحمد والأربعة إلا الترمذى.

(وعن أبى الدرداء أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال: (مَن خَضَّبَ بالسَّوادِ، سَوَّدَ اللهُ وجهَهُ يومَ القيامةِ)

أخرجه الطبرانى فى الكبير، وفى سنده الوضين بن عطاء، وثقه أحمد وابن معين وابن حبان، وضعفه من هو دونهم فى المنزلة وبقية رجاله ثقات(٢).

(وعن) ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (يكونُ فى آخرِ الزمانِ قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يَرِيحُون(٣) رائحةَ الجنةِ)

أخرجه أبو داود والنسائى.

(وقالت) المالكية والحنابلة: يُكره الخضاب بالسواد، وهو قول للشافعية ما لم يكن لغرض شرعى كإرهاب العدو، وإلا فلا كراهة، بل يؤجر عليه (لحديث) صهيب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إن أحسنَ ما اختضبتُم به لَهذا السواد، أرغبُ لنسائكم فيكم، وأَهْيَبُ لكم فى صدرور عدوكم)

أخرجه ابن ماجه بسند حسن.

---

(١) أبو قحافة، هو: عثمان والد أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، و(الثغامة) بثاء مفتوحة وعين معجمة مخففة: نبت أبيض الزهر والثمر، يشبه به بياض الشيب.

(٢) انظر ص ١٦٣ مجمع الزوائد: (الشيب و الخضاب).

(٣) لا يَريحون بفتح الياء، أى لا يشمون.

ولإطلاق الحديث قال أبو يوسف: يجوز الخضاب بالسواد مطلقًا، وروى عن عثمان والحسن والحسين وعقبة بن عامر.

واتفق الأئمة على جواز خضاب الشعر بالحناء والصفرة والكَتَم(١). وهل الأفضل الترك أو الفعل؟ روايتان عن مالك، وقال غيره: الفعل أفضل؛ لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ اليهودَ والنصارَى لا يَصْبِغُون(٢) فخالِفُوهم)

أخرجه الشيخان والنسائى وأبو داود وابن ماجه، وكذا الترمذى بلفظ:

(غَيِّرُوا الشَّيبَ ولا تَشَبَّهوا باليهودِ.)

وحديث أبى ذَرٍّ، أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال: (إن أحسن ما غُيِّر به هذا الشَّيْبُ الحِنَّاء والكتَم)

أخرجه أحمد والأربعة(٣)، وحسنه الترمذى

(وعن) ابن عمر أنه كان يصبغ لحيته بالصفرة ويقول: رأيتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم يصبغ بها، ولم يكن أحبٌّ إليه منها، وكان يصبغ بها ثيابه).

أخرجه أبو داود والنسائى.

(قال) القاضى عياض: اختلف السلف من الصحابة والتابعين فى الخضاب وفى جنسه، فقال بعضهم: تَرْكُ الخِضاب أفضل. وروى حديثًا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى النهى عن تغيير الشيب. ولأنه صلى الله عليه وسلم لم يُغيِّر شَيْبَهُ. روى هذا عن عمر وعلى وأبى بكر وآخرين

---

(١) الكتم بفتحتين: نبت يخلط بالوسمة يختضب به.

(٢) يعنى شعورهم.

(٣) والأربعة هم: أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه.

(وقال) آخرون: الخضاب أفضل. وخَضَب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم؛ للأحاديث الواردة فى ذلك (ثم اختلف) هؤلاء فكان أكثرهم يخضب الصفرة. منهم على وابن عمر وأبو هريرة وآخرون. وخضب جماعة منهم بالحناء والكَتَم، وبعضهم بالزعفران، وخضب جماعة بالسواد.

(قال) الطبرى: الصواب أن الأحاديث الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم بتغيير الشيب وبالنهى عنه كلها صحيحة، وليس فيها تناقض، بل الأمر بالتغيير لمن كان شيبه كشيب أبى قحافة. والنهى لمن له شمط فقط. واختلاف السلف فى فعل الأمرين بحسب اختلاف أحوالهم فى ذلك، مع أن الأمر والنهى فى ذلك ليس للوجوب بالإجماع؛ ولهذا لم ينكر بعضهم على بعض خلافه(١).

وما تقدم من النهى عن التخضيب بالسواد عام فى الرجال والنساء.

وحكى عن إسحاق بن راهويه أنه رخص فيه للمرأة لتتزين به لزوجها.

ثم يقول فى ختام هذا (فى الدين الخالص): (هذا) وللخضاب فائدتان:

إحداهما: تنظيف الشعر مما يعلق به.

والثانية: مخالفة أهل الكتاب.

** وأما عن حكم:

خضاب اللحية

فقد قال كذلك(٢): (يكره) فيها ثمانى خصال، بعضها أشد قُبحًا من بعض:

---

(١) انظر ص ٨٠ ج١٤ نووى مسلم (خضاب الشيب).

(٢) أى فى الدين الخالص ج١ ما خلاصته.

١ ـ **خضابها بالسواد:** إلا لغرض الجهاد إرهابًا للعدو بإظهار الشباب والقوة، فلا بأس إذا كان بهذه النية، كما تقدم.

٢ ـ **تبييضها بالكبريت أو غيره؛** استعجالاً للشيخوخة وطلب الرياسة والتعظيم والمهابة والتكريم وإيهام أنه من المشايخ.

٣ ـ **خضابها بصفرة أو حُمرة:** تَشَبُّهًا بالصالحين ومُتَّبعى السُّنَّة لا بنية اتِّباع السنة.

٤ ـ **نتفها فى أول طلوعها وتخفيفها بالموسى:** إيثارًا للمروءة واستصحابًا للصِّبا وحُسن الوجه.

وهذا حرام من أقبح الخصال.

٥ ـ **نتف الشيب:** (وتقدم بسطه).

٦ ـ **الزيادة فيها عن القبضة،** وعدم الأخذ من طولها وعرضها.

٧ ـ النقص منها بالقص ونتف جانبى العنفقة وحلق أعلى العارضين ونتف جانبيهما من جهة الوجه.

٨ ـ **عقدها فى الحرب:** لأنه من زى الأعاجم، ومنه معالجة الشعر حتى يتجعد (الحديث) رُوَيْفِع أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال له: (يا رُوَيْفِع، لعلَّ الحياةَ ستطولُ بك، فأخبرِ الناسَ أنَّ مَنْ عَقَدَ لحيته أو تقلَّدَ وَتَرًا[1] أو استنجى برجيع دِابةٍ أو عَظْمٍ فإن مُحمدًا منه برىء) أخرجه أبو داود بسند جيد[2].

(١) الوتر بفتحتين: ما يشد بين طرفى القوس. كانت العرب تزعم أن التقلد بالوتر يرد العين ويدفع المكاره، فنهوا عن ذلك.

(٢) انظر ص ٢٩١ وما بعدها. ج١ مجموع النووى.

** وأما عن:

خضاب اليدين والرجلين بالحناء

فمستحب للمتزوجة من النساء، وحرام على الرجال إلا لحاجة كالتداوى (الحديث) عائشة: قالت: أومأت امرأةٌ من وراء سِتْرٍ - بيدِها كتابٌ - إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقبض رسول اللهَ صلى الله عليه وسلم يده، فقالَ: ما أدرى أيَدُ رجلٍ أمْ يَدُ امرأةٍ؟ قالت: بل امرأة قال: لو كنتِ امرأة لغيرت أظفارك يعنى بالحناء)

أخرجه النسائى وأبو داود(1).

وعن أبى هريرة قال: أُتِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بِمُخَنَّثٍ قد خَضَّبَ يديه ورجليْه بالحنَّاء فقال: (ما بال هذا؟ فقيل يتشبَّه بالنساء. فأمر به فنُفى إلى النقيع(2). فقيلَ: ألا نقتله يا رسول الله؟ فقال: إنى نُهيتُ عن قتل المُصَلِّين).

أخرجه أبو داود، وفيه يسار القرشى مجهول(3).

** وأما عن:

سلاحه وأثاثه صلى الله عليه وسلم

فقد قرأت كذلك فى (مختصر من زاد المعاد):

أنه صلوات الله وسلامه عليه: كان له تِسْعَةُ أسياف، منها: ذو الفقار، وكان لا يكاد يفارقه، وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكَراتُه ونعله من فضَّة، وسبع أدرع، وست قسى، وترس يقال له: الفتق، وترس يقال له: الَزلوق، وخمسة أرماح، وحربة يقال لها: النبعة، وأخرى كبيرة تُدْعي البيضاء، وأخري صغيرة شبه العكاز يمشى بها بين يديه فى الأعياد تُركَزُ أمامه، فيتخذها سترة يُصلى إليها، وكان يمشى بها أحيانًا.

(1) ص ١٢٦ ج٤ عون المعبود (الخضاب للنساء).

(2) النقيع بالنون موضع على عشرين فرسخا من المدينة بأرض مزينة.

(3) انظر ص ٤٣٨ ج٤ (عون المعبود) حكم المخنثين.

وكان له مِغفر من حديد يقال له: الموشح، ومغفر آخر يقال له: المسبوغ.

وكان له ثلاثُ جُبَّات يلبسها فى الحرب. قيل: فيها جبة سندس أخضر.

وكانت له راية سوداء. وفى سنن أبى داود عن رجل من الصحابة قال: رأيتُ رايةَ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم صفراءَ.

وكان له ألوية بيضاء، وربما جعل فيها الأسود.

وكان له فسطاط يسمى الكنْ، ومحجن يمشى به ويركب به ويعلقه بين يديه على بعيره.

وكان له قدح مضبب بسلسلة فضة، وقدح من قوارير، ومدهن وربعة فيها المرآة والمشط والمقراضان والسواك، وسرير قوائمه من ساج، وفرش من أدم حشوه ليف.

وكانت له قصعة تسمى الغراء، لها أربع حلق يحملها أربعة بينهم، وكان له بساط، وكان له قدح من عيدان يوضع تحت سريره يبول فيه بالليل.

وكان له مائة شاة، وكان لا يريد أن تزيد ـ كلما ولَّد له الراعى بَهمة ذبح مكانها شاة، وغَنِم يوم بدر جَملاً مُهْرِيا لأبى جهل فى أنفه بُرة من فضة فأهداه يوم الحديبية ليغيظ به المشركين.

** وقد قرأت كذلك، عن:

ملابسه صلى الله عليه وسلم

أنه كانت له عمامة يلبس تحتها القلنسوة، وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة، ويلبس العمامة بغير قلنسوة.

وكان إذا اعتم أرخى عمامته بين كتفيه، كما رواه مسلم فى صحيحه

عن عمرو بن حريس قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وعليه عمامةٌ سوداءُ قد أرخى طرفيْها بين كتفيه.

(وفى مسلم) أيضًا: عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة وعليه عمامة سوداء ـ ولم يذكر فى حديث جابر ذؤابة، فدل على أن الذؤابة لم يكن يرخيها دائما بين كتفيه

(وقد يقال) إنه دخل مكة وعليه أُهبة القتال والمغفر على رأسه، فلبس فى كل موطنٍ ما يناسبه.

وكان ابن تيمية، رحمه الله، يذكر فى سبب الذؤابة شيئًا بديعًا، وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما اتخذها صبيحة المنام الذى رآه فى المدينة لما رأى رب العزة تبارك وتعالى، فقال: يا محمد، فِيمَ يختصِمُ الملأُ الأعلى؟ قلت: لا أدرى. فوضع يَدَهُ بين كَتِفَيَّ فعلمتُ ما بين السماءِ والأرضِ.. (الحديث) فى الترمذى، وسئل عنه البخارى فقال: صحيح.

وقد قرأت كذلك فى (الشمائل المحمدية) للترمذى، تحت عنوان:

ما جاء فى عمامة النبى صلى الله عليه وسلم

ما خلاصته: أن ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ قال: لم تكن عمامته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كبيرة يؤذى الرأسَ حملُها، ولا صغيرة تقصر عن وقاية الرأس من نحو حر أو برد، بل كانت وسَطًا بين ذلك، وخير الأمور الوسط.

وقال شهاب الدين بن حجر الهيثمى: واعلم أنه لم يتحرر ـ كما قال بعض الحفاظ ـ فى طول عمامته صلى الله عليه وسلم وعرضها شىء، وما وقع للطبرانى من أن طولها نحو سبعة أذرع، ولغيره أن طولها سبعة أذرع فى عرض ذراع لا أصل له. اهـ.

لكن نقل عن النووى أنه كان له ـ صلى اله عليه وسلم ـ عمامة قصيرة، وكانت ستة أذرع، وعمامة طويلة وكانت اثنتى عشرة ذراعًا. اهـ.

ولا يسن تحنيك العمامة عند الشافعية؛ وهو تحديق الرقبة وما تحت الحنك واللحية ببعض العمامة.. واختار بعض الحفاظ ما عليه كثيرون أنه يُسَنُّ، وأطالوا فى الاستدلال له بما رد عليهم، وفى الباب خمسة أحاديث.

وإذا كان ورد فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه سلم كان يخطب على المنبر وعليه عمامة سوداء فقد قال شارح: لم يكن سوادها أصليًا بل لحكايتها ما تحتها من المغفر وهو أسود أو كانت متسخة متلونة، وأيده بعضهم بما سيجىء من قوله وعليه عمامة دسماء ا.هـ. ـ أى الملطخة بالدسم؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يكثر دهن شعره، فأصابتها الدسومة من الشعر ـ وأنت خبير بأن هذا خلاف الظاهر، مع أنهم بينوا حكمًا فى إيثار الأسود فى ذلك اليوم ـ وهو يوم فتح مكة ـ حيث قالوا: وحكمة إيثاره السواد على البياض الممدوح الإشارة إلى ما منحه الله ذلك اليوم من السؤدد الذى لم يتفق لأحد من الأنبياء قبله، وإلى سؤدد الإسلام وأهله، وإلى أن الدين المحمدى لا يتبدل؛ لأن السواد أبعد تبدلاً من غيره. وهذا متكفل برد ما زعمه هذا الشارح.

وزعم بعض بنى المعتصم أن تلك العمامة التى دخل صلى الله عليه وسلم بها مكة وهبها لعمة العباس، وبقيت بين الخلفاء يتداولونها ويجعلونها على رأس من تقرر للخلافة.

وصحة لبس المصطفى للسواد ونزول الملائكة يوم بدر بعمائم صفر لا يعارض عموم الخبر الصحيح الآمر بالبياض؛ لأنه لمقاصد اقتضاها خصوص المقام كما بينه بعض الأعلام... إلى أن أشار إلى ما ورد فى الحديث أن

النبى صلى الله عليه وسلم كان (إذا اعْتَمَّ سدل عمامته بين كتفيه) فقال: أى إذا لفَّ عمامته على رأسه أرخى طرفها بين كتفيه.

وفى بعض طرق الحديث: أن الذى كان يرسله بين كتفيه هو الطرف الأعلى، وهو يسمى (عذبة) لغة. ويحتمل أنه الطرف الأسفل حتى يكون (عذبة) فى الاصطلاح العرفى الآن. ويحتمل أن المراد الطرفان معًا؛ لأنه ورد أنه قد أرخى طرفيها بين كتفيه بلفظ التثنية. وفى بعض الروايات طرفها بلفظ الإفراد.

ولم يكن صلى الله عليه وسلم يسدل عمامته دائمًا؛ بدليل رواية مسلم أنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة بعمامة سوداء من غير ذكر السدل. وصرح ابن القيم بنفيه، قال: لأنه صلى الله عليه وسلم كان على أُهْبَةٍ من القتال، والمغفر على رأسه، فلبس فى كل موطن ما يناسبه.. كذا فى الهدى النبوى، وبه عرف ما فى قول صاحب القاموس: لم يفارقها قط

(وقد استفيد) من الحديث: أن العذبة سنة، وكأن حكمة سنها ما فيها من تحسين الهيئة، وإرسالها بين الكتفين أفضل.

وإذا وقع إرسالها بين اليدين كما يفعله الصوفية وبعض أهل العلم، فهل الأفضل إرسالها من الجانب الأيمن لشرفه، أو من الجانب الأيسر كما هو المعتاد؟ وفى حديث أمامة عند الطبرانى ما يدل على تعيين الأيمن، لكنه ضعيف، واستحسن الصوفية إرسالها من الجانب الأيسر لكونه جانب القلب، فيتذكر تفريغه مما سوى ربه. قال بعض الشافعية: ولو خاف من إرسالها نحو خيلاء لم يؤمر بتركها، بل يفعلها ويجاهد نفسه.

(وأقل) ما ورد فى طولها أربع أصابع، وأكثر ما ورد فيه ذراع. وبينهما شبر. ويحرم إفحاشها بقصد الخيلاء.

وإذا كان لنا أن نعود بعد هذا إلى إتمام موضوع: (ملابسه صلى الله عليه وسلم):

فقد لبس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ القميص، وكان أحب الثياب إليه، وكان كمه إلى الرسغ، ولبس الجبة والفروج، وهو شبه القباء والفرجية، ولبس القباء أيضا، ولبس فى السفر جبة ضيقة الكمين، ولبس حلة حمراء، والحلة إزار ورداء، ولا تكون الحلة إلا اسمًا للثوبين معًا، وغلط من ظن أنها كانت حمراء بحتًا لا يخالطها غيرها، وإنما الحلة الحمراء بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود كسائر البُرُود اليمنية، وهى معروفة بهذا الاسم، باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر، وإلا فالأحمر البحت منهىٌّ عنه.. ففى صحيح البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن المياثر الحمر(١). وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن عمرو أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى عليه رَيطة(٢) مضرَّجة بالعصفر فقال: ما هذه الريطة التى عليك؟ فعرفت ما كره، فأتيت أهلى وهم يسجرون تنوراً لهم، فقذفتها فيها ثم أتيته من الغد، فقال: يا عبد الله، ما فعلت الريطة؟ فأخبرته، فقال: (هلا كسوتها بعض أهلك فإنه لا بأس بها للنساء).

ولبس ثوبًا أسود، ولبس الفروة المكفوفة بالسندس، كما روى الإمام أحمد وأبو داود، ولبس الخفيْن، ولبس النعل، ولبس الخاتم: أى الذى نقش عليه اسمه، كان يختم به كتبه إلى الملوك، كان يلبسه فى أصبعه، لا الخاتم الذى يلبسه الناس الآن للزينة والأبهة.

---

(١) المياثر: جمع ميثرة، وهى اللبد أو الفراش الذى يجعل تحت الراكب على الفرس أو البعير.

(٢) الريطة: كل ثوب لين رقيق، والمضرجة: المصبوغة صبغًا خفيفا غير مشبع.

وفى صحيح مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت: هذه جبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخرجت جبة طياليسية خسروانية[1] لها لِينة ديباج وفرجاها مكفوفان بالديباج، فقالت: هذه كانت عند عائشة حتى قُبِضَت، فلما قُبِضت قبضتُها، وكان صلى الله عليه وسلم يلبسها.

وكان قميصُه من قطن، وكان قصيرَ الطول، قصيرَ الكُمَّيْن[2]، وأما هٰذه الأكمام الواسعة الطول التى هى كالأخراج فلم يلبسها هو ولا أحد من أصحابه ألبتة، وهى مخالفة لسنته، وفى جوازها نظر؛ فإنها من جنس الخيلاء.

وكان أحب الألوان إليه البياض، وقال: (هى من خير ثيابكم فالبسوها وكفنوا فيها موتاكم).

ورأى أنس جماعة عليهم الطيالسة فقال: ما أشبههم بيهود خيبرا ومن هنا كره لبسها جماعة من السلف والخلف؛ لما روى أبو داود والحاكم فى المستدرك عن ابن عمر عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (من تشبه بقوم فهو منهم) وفى الترمذى: (ليس مِنَّا من تَشَبَّهَ بقومٍ غيرِنا)

وكان هديه - صلى الله عليه وسلم - فى اللباس أن يلبس ما تيسر من الصوف تارة، والقطن تارة، والكتان تارة.

وكان إذا استجدَّ ثوبًا سماه باسمه وقال: (اللهم أنت كسوتنى هذا القميص، أو الرداء أو العمامة، أسألك خَيْرَهُ وخيرَ ما صُنِع له، وأعوذُ بكَ من شَرِّه وشَرِّ ما صُنِع له) وكان إذا لبس قميصه بدأ بميامنه.

(١) نسبة إلى نوعها من الثياب.

(٢) لأن فى قصر الثياب حفظا من القذر واقتصادًا فى الثمن وتنشيطا على العمل.

وفى سنن النَّسائى عن عائشة أنها جعلت للنبى صلى الله عليه وسلم بردة من صوف، فلبسها، فلما عرق فوجد ريح الصوف طرحها، وكان يحب الريح الطيب.

وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن عباس: لقد رأيتُ على رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم أحسنَ ما يكونُ من الحُلَلِ.

فالذين يمنعون ما أباح الله من الملابس والمطاعم والمناكح تزهدًا وتعبدًا بإزائهم طائفة قابلوهم فلا يلبسون إلا أشرف الثياب، ولا يأكلون إلا ألين الطعام، فلا يرون لبس الخشن ولا أكله؛ تكبرًا وتجبرًا. وكلا الطائفتين هديه مخالف لهدى النبى صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا قال بعض السلف: كانوا يكرهون الشهرتين من الثياب العالى والمنخفض

وفى السنن عن ابن عمر يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم: (من لبسَ ثوبَ شُهْرَةٍ ألبسهُ اللهُ يومَ القيامةِ ثوبَ مَذَلَّةٍ، ثم يلتهبُ فيه فى النارِ).

وفى الصحيحين: (مَنْ جَرَّ ثوبه خُيَلاَءَ لم ينظرِ اللهُ إليه يومَ القيامةِ).

وكذلك لبس الدنىِّ من الثياب يُذَمُّ فى موضع، ويحُمَدُ فى موضع: فيُذَمُّ إذا كان شهرة وخيلاء، ويُمْدَح إذا كان تواضعًا واستكانةً.

كما أن لبس الرفيع من الثياب يُذَمُّ إذا كان تكبُّرًا وفخرًا وخيلاء، ويُمْدَحُ إذا كان تجمُّلا وإظهارًا لنعمة الله.

ففى صحيح مسلم: (لا يدخل الجنةَ من كان فى قلبهِ مثقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ من كِبْرٍ، ولا يدخل النارَ من كان فى قلبهِ مثقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ من إيمان) فقال رجلٌ يا رسولَ اللهِ، إنى أُحِبُّ أن يكونَ ثوبى حَسَنًا ونعلى حَسَنَةً، أفمن الكبر

ذاك؟ فقال: (لا، إن الله جميل يُحِبُّ الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ الناسِ). فليس من الكبر - إذًا - أن يتجمل الإنسان منا بالجديد (الحلال) تحدثا بنعمة الله تعالى الذى يقول: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1]، وفى الحديث: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ أن يَرَى أثر نعمتِه على عبدِه)

رواه الترمذى، وقال: حديث حسن.

وقد قال الإمام مالك مشيرًا إلى هذا المعنى الكبير الذى ينبغى علينا أن نفهمه حتى نعرف المرادِ من الكبر:

حَسِّنْ ثيابَك ما استطعتَ فإنها	زَيْنُ الرجالِ بها تُعَزُّ وتُكْرَمُ
ودعِ التخشُّنَ فى الثيابِ تواضُعًا	فاللهُ يعلم ما تُكِنُّ وتكتمُ
فرثيثُ ثوبِك لا يزيدُك رفعة	عند الإلـه وأنت عَبْدٌ مجرمُ
وجديدُ ثوبِك لا يضُرك بعد أن	تخشى الإلـهَ وتتقى ما يحرُمُ

هذا، مع ملاحظة: أنه يُستحب ترك الترافع فى اللباس تواضعًا:

* فعن معاذ بن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من ترك[2] اللباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يُخيِّره من أى حُلَلِ الإيمان شاء يلبسها)

رواه الترمذى، وقال: حديث حسن.

** وإتمامًا للفائدة إليك - أخا الإسلام - كذلك هذه الأحاديث الشريفة التى وقعت عليها (فى رياض الصالحين)، تحت عنوان:

(١) سورة الضحى: ١١.

(٢) أى أعرض عنه تركًا لزهرة الدنيا.

باب: تحريم لباس الحرير على الرجال
وتحريم جلوسهم عليه واستنادهم، وجواز لبسه للنساء

* فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(لا تَلْبَسُوا الحريرَ، فإنَّ مَنْ لَبِسَهُ فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرةِ)

متفق عليه.

* وعنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: (إنَّما يَلْبَسُ الحريرَ مَنْ لا خَلاقَ له) متفق عليه.

وفى رواية للبخارى: (مَنْ لا خَلاقَ له فى الآخرةِ)

قوله: (من لاخلاق له): أى لا نصيب له.

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ لَبِسَ الحريرَ(١) فى الدنيا لم يَلْبَسْهُ فى الآخرةِ)

متفق عليه.

وعن علىٍّ رضى الله عنه قال: رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أخذ حريرًا فجعلَهُ فى يمينِه، وذهبًا فجعله فى شِمالِهِ، ثم قال: (إن هذَيْنِ حرامٌ(٢) على ذكورِ أُمَّتى)

رواه أبو داود بإسناد حسن.

وعنْ أبى مُوسى الأشعرىِّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) أى الخالص، وكذا المركب منه ومن غيره، والحرير الأكثر وجودًا.

(٢) أى استعمالهما.

قال: (حُرِّمَ لباسُ الحريرِ والذهبِ على ذكورِ أمتى، وأُحِلَّ لإناثهم)

رواه الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح.

* وعن حذيفة رضى الله عنه قال: نهانا النبى صلى الله عليه وسلم أن نشرب فى آنية الذهبِ والفضةِ وأن نأكلَ فيها، وعن لبسِ الحريرِ والديباج(١) وأن نجلس عليه.

رواه البخارى

** وقد قرأت كذلك فى (الدين الخالص) تحت عنوان: (الآنية): أنه يباح اتخاذ واستعمال كل إناء طاهر سواء أكان ثمينًا كالبلور، والياقوت، والزمرد، أو ليس ثمينًا كالعقيق والخشب والحجارة والنحاس والحديد والجلد.

وهو قول الجمهور؛ لقول عبد الله بن زيد: أتانا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأخرجنا له ماء فى تَوْرٍ(٢) من صُفْرٍ(٣)، فتوضأ.

أخرجه البخارى.

(وقالت) عائشة: كنت أغتسل أنا ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى تَوْرٍ من شَبَه(٤).

أخرجه أبو داود

ولا يجوز استعمال إناء الذهب أو الفضة فى شىء عند الجمهور؛ لقول

---

(١) الديباج: ثوب سداه ولحمته من حرير.

(٢) (تور) بفتح فسكون، أى إناء.

(٣) (والصفر) كقفل: النحاس.

(٤) (الشبه) بفتحتين: ما يشبه الذهب فى اللون، وهو النحاس الجيد.

حذيفة: سمعت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (لا تَلْبَسُوا الحرير ولا الديباج ولا تشربُوا فى آنيةِ الذهبِ والفضةِ، ولا تأكلوا فى صِحافها(١)، فإنها لهم فى الدنيا، ولكم فى الآخرةِ)

أخرجه السبعة، قال ابن منده: مجمع على صحته.

* وعن أم سلمة رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إنَّ الذى يأكلُ أو يشربُ فى إناء الذهبِ والفضةِ، إنما يُجَرْجِرُ فى بطنِه نارَ جهنم)

أخرجه مسلم.

* وعن عائشة رضى الله عنها أن النبىَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: (مَن شَرِبَ فى إناءِ فضةٍ فكأنَّما يُجَرْجِرُ فى بطنِه نارَ جهنم).

أخرجه أحمد وابن ماجه.

(فهذه) الأحاديث تدل على تحريم الأكل والشرب فى آنية الذهب والفضة، وهو مُجْمَعٌ عليه. وشذَّ داود فى تحريم الشرب فقط، ولعله لم يبلغه حديث تحريم الأكل، ويقاس على تحريم الأكل والشرب فيها سائر الاستعمالات عند الجمهور.

(قال) الشافعى فى الأم: ولا أكره إناء تُوُضِّئَ فيه مَن حجارة ولا حديد ولا نحاس ولا شىء إلا آنية الذهب والفضة، فإنى أكره الوضوء فيهما (وذكر) حديث أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (الذى يشربُ فى إناءِ الفضةِ إنما يُجَرْجِرُ فى بطنِه نارَ جهنم)

أخرجه مالك والشافعى.

---

(١) الصِّحاف، بكسر أوله: جمع صحفة، وهى إناء كالقصعة.

(وقال): فإن توضأ أحد فيها أو شرب كرهتُ ذلك له، ولم آمره أن يعيد الوضوء، ولم أزعم أن الماء الذى شُرِبَ ولا الطعام الذى أُكِل فيها مُحرَّم عليه وكأن الشرب فيها معصية(1).

(وقول) الشوكانى فى نيل الأوطار: والقياس على الأكل والشرب قياس مع الفارق (مردود) بما ذكره النووى من أن العلة السرف والخُيلاء، وهذا موجب للتحريم، ولا مانع من أن يُضَمَّ إلى هذا التشبه بأهل الجنة الذى ذكره هو، فيكون مجموع هذه الأمور قاضيًا بصحة القياس

(وقوله) أما حكاية النووى الإجماع على تحريم الاستعمال، فلا تتم مع مخالفة داود والشافعى وبعض أصحابه (مدفوع) بما ذكره النووى من أن كلام الشافعى وداود معارض بالأحاديث الصحيحة، وقد قال الشافعى وغيره من الأئمة: إذا صح الحديث فهو مذهبى، ففى الحقيقة لا مخالفة، والإجماع قائم.

(أما اتخاذ) أوانى الذهب والفضة بدون استعمال، فالجمهور على منعه.

(قال) ابن قدامة: المذهب تحريم اتخاذ آنية الذهب والفضة، وعن الشافعى إباحته؛ لتخصيص النهى بالاستعمال، ولا يلزم من تحريم الاستعمال تحريم الاتخاذ كما لو اتخذ الرجل ثياب الحرير، وذكره بعض أصحابنا وجهًا من المذهب، ولنا أن ما حرم استعماله مطلقًا حرم اتخاذه على هيئة الاستعمال كالملاهى، وأما ثياب الحرير فإنها تُباح للنساءِ والتجارةِ فَحَصَلَ الفرق(2).

(وعلى الجملة): فيحرم على الرجل وغيره استعمال شىء من الذهب والفضة ولو قليلاً أو صغيرًا كالمِرْوَدِ للمكحلة، والخلال، والإبرة، والملعقة،

---

(1) انظر ص ٨ ج١ من الأم - طبع بولاق.

(2) انظر ص ٥٦ ج١ الشرح الكبير لابن قدامة.

والمشط، والمبخرة، والسكين، والمرآة، وظروف وفناجين القهوة، والساعات، وريش القلم.

(ويحرم) على البالغ إلباس الصغير الحرير، أو الذهب، أو غير خاتم الفضة، أو يطعمه أو يسقيه فى إنائهما، أو يُمكِّنه من استعمالهما؛ لأنه بحرمة اللبس والأكل والشرب يحرم الإلباس والإطعام والسقى، ولقول عبد الله بن يزيد: كنا عند عبد الله بن مسعودٍ فجاء ابنٌ له عليه قميص من حرير، قال: من كساك؟ قال: أُمِّى، فشَقَّه، وقال: قل لأمك تكسوك غير هذا.

أخرجه الطبرانى بسندين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(وقال) بعضهم: إنما دلت الأحاديث على تحريم الأكل والشرب فى آنية الذهب والفضة. وأما سائر الاستعمالات فلا، والأصل الحِلُّ، فلا تثبت الحرمة إلا بدليل (وقد علمت) أن الجمهور قاسُوا سائر الاستعمالات على الأكل والشرب، فالاحتياط الاحتراز عن استعمال آنية الذهب والفضة مطلقًا، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.

وأُحِبُّ كذلك أن نقف على:

هديه وصفته صلى الله عليه وسلم فى الطعام والشراب

فقد كان صلوات الله وسلامه عليه لا يرد موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً، فما قُرِّبَ إليه شىء من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه، فيتركه بدون تحريم، وما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه، كما ترك أكل الضب لما لم يعتده، ولم يحرمه على الأمة، بل أُكِل على مائدته وهو ينظر.

وكان هديه أكل ما تيسر، فإن أعوزه صبر حتى إنه يربط على بطنه الحجر من الجوع، ويرى الهلال والهلال ولا يوقد فى بيته نار، وكان معظم مطعمه

يوضع على الأرض وهى كانت مائدته؛[1] ليكون قدوة لأصحابه فى الصبر، وتحمل ألم الجوع، وفى التواضع كذلك.

وكان من هديه الشراب قاعداً، وصح عنه أنه شرب قائمًا، جاء إلى زمزم وهم يسقون منها، فاستقى فناولوه الدلو، فشرب وهو قائم.

وروى عنه (إذا شَرِبَ أحدُكم فَلْيَمُصَّ الماءَ مصا).

وفى صحيح مسلم: كان يتنفس فى الشراب ثلاثًا، ويقول: (إنه أَرْوَى وأَمْرَأُ وأَبْرَأُ) ومعنى تنفسه فى الشراب إبانة القدح عن فيه وتنفسه خارجه، ثم يعود إلى الشراب، كما جاء مصرحًا به فى الحديث الآخر:

(إذا شَرِبَ أحدُكم فلايتنفسْ فى القَدَحِ، ولكنْ لِيبِن الإناءَ عن فيهِ)

وروى الترمذى:

(لا تَشربوا نَفَسًا واحدًا كَشُرْبِ البعير، لكنِ اشربوا مَثْنَى وثُلاثَ، وسَمُّوا إذا أنتمُ شَرِبْتُم، واحْمَدُوا إذا أنتمُ فَرَغْتُم)

وكان لا يأكل متكئًا، وكان يسمى الله تعالى على أول طعامه ويحمدهُ فى آخره، وكان إذا شرب ناول مَن على يمينه، وإن كان من على يساره أكبر منه.

قد قرأت فى (الشمائل المحمدية)، أنه إذا كان قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قد شرب من ماء زمزم وهو قائم عندما ناولوه الدلو وهو عندها: لبيان الجواز. والاستدلال على عدم الكراهة بفعل الخلفاء الأربعة غير سديد، إذ هو لا يقاوم ما صح فى الخبر من النهى؛ لما فيه من الضرر.

---

(1) وقد ورد تأكيد هذا وتوضيحه فى الجزء الرابع من الترغيب والترهيب) ص ٣٥٩، حيث أورد حديثا رواه البخارى ومسلم، فارجع إليه.

قال ابن القيم: للشرب قائماً آفات، منها: أنه لا يحصل به الرى التام، ولا يستقر فى المعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء ويُلاقى المعدة بسرعة. فربما برد حرارتها، ويسرع النفوذ إلى أسافل البدن، فيضر ضرراً بيِّنًا، ومن ثَمَّ سن أن يتقايأه، ولو فعله سهواً؛ لأنه يحرك أخلاطًا يدفعها القىء.

ويُسَنُّ لمن شرب قائمًا أن يقول: اللهم صلِّ على سيدنا محمد الذى شرب الماء قائمًا وقاعداً؛ فإنه بسبب ذلك يندفع عنه الضرر. وذكر الحكماء أن تحريك الشخص إبهامى رجليه حال الشرب قائمًا يدفع ضرره.

إلى أن يقول فى (الشمائل..): واعلم أن للإنسان ثمانية أحوال: قائم، قاعد، ماش، مستند، راكع، ساجد، متكئ، مضطجع، وكلها وإن أمكن الشرب فيها لكن أهنؤها وأكثرها استعمالاً القعود، ويليه القيام، ففعله صلى الله عليه وسلم قاعداً غالبًا؛ لأنه أسلم، وقائمًا نادراً؛ لبيان الجواز وعدم الحرج.

وقد أُتِى عَلِىٌّ رضى الله عنه على باب الرَّحْبة[1] بماء فَشَرِبَ قائماً، فقال: إنَّ ناسًا يكره أحدهم أن يَشْرَبَ وهو قائمٌ، وإنِّى رأيتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم فعلَ كما رأيتُمونى فعلتُ.

رواه البخارى وأبو داود .

وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضى الله عنه ـ قال: رأيتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم يَشْرَبُ قائمًا وقاعداً.

رواه الترمذى وصححه.

فى هذين النصَّيْن ـ بالإضافة إلى غيرهما ـ الإشارة ـ كما علمنا ـ إلى أنه

(١) أى رحبه الكوفه.. وقد كان حيئذ أميراً للمؤمنين.

صلى الله عليه وسلم فعل الأمرين لبيان الجواز، ولكنه نهى عن الشرب قائماً، فيحمل على الكراهة. وإلى هذا يشير أحدهم فى قوله:

إذا رُمْتَ تشربُ فاقعُد تَفُزْ وتأخذ بسنَّةِ أهل الحجازْ
وقد صَحَّحوا شُرْبَه قائمًا ولكنهُ لبيانِ الجوازْ

وتماماً للفائدة إليك - أخا الإسلام - بعض الأحاديث الشريفة الصحيحة الواردة فى نفس الموضوع:

* فعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لا تَشْرَبُوا واحداً كشُرْب البعيرِ، ولكنِ اشربوا مَثْنَى وثُلاثَ، وسَمُّوا إذا أنتُم شربتُم، واحمدوا إذا أنتمُ رفعتُم)

رواه الترمذى[1].

* وعنه أن النبى صلى الله عليه وسلم شرب لبنًا، فمضمضَ منه، وقال: (إنَّ لَهُ دَسَمًا).

رواه البخارى.

أى أنه يُستحب المضمضة بعد شرب اللبن للنظافةِ من دسمه.

* وعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أُتِى بلبن قد شِيبَ بماء وعن يمينه أعرابىٌّ وعن شِماله أبو بكر، فَشَرِبَ، ثم أعطى الأعرابىَّ وقال: (الأيمنَ الأيمن)

رواه الأربعة[2].

(١) وهو حديث بسند غريب، ولكن قواه غيره من الأحاديث الصحيحة.

(٢) وهم: أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه.

* وعن أبى قتادة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (ساقى القومِ آخرُهم شُرْبًا)

رواه أبو داود والترمذى وصححه.

فمعنى (بلبنٍ قد شِيب بماء) أى خُلط به ليكثر، وكان هذا معروفًا عند العرب، ويسمى مذقًا، وهو جائز إن لم يُعْرَض للبيع، وإلا كان غِشا.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه عند أنس، فمزج لهم اللبن بالماء، فشرب النبىُّ صلى الله عليه وسلم، وأعطى الأعرابىَّ؛ لأنه كان عن يمينه، وقال: الأيمن يُقَدَّمُ على غيره، فإذا كان جماعة وجىء لهم بشىء فينبغى البدء بالأفضل، ثم من عن يمينه، ولو كان غيره أفضل، ثم يدور عليهم.

ومعنى: (ساقى القوم آخرُهم شربا): أن من يسقى القوم فإنه يشرب آخرهم، وكذا من يفرق على جماعة مطعومًا أو غيره، فهو آخرهم لاشتغاله بخدمتهم، كفاه الأجر على ذلك.

* وعن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع مائدته قال: (الحمدُ للهِ كثيرًا طَيِّبًا مُباركًا فيه غير مكفِىٍّ ولا مُوَدَّعٍ ولا مُسْتَغْنًى عنه ربَّنَا)

رواه الخمسة(١) إلا مسلما.

* وللبخارى: (الحمدُ للهِ الذى كَفانا وأَرْوانا غير مكفِىٍّ ولا مكفورٍ).

ولمسلم والترمذى: (إنَّ اللهَ لَيَرْضَى عن العبدِ أن يأكلَ الأكلةَ فيحمدَهُ عليها أو يشربَ الشَّرْبَةَ فيحمدَهُ عليها).

(١) والخمسة هم: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى.

ولأصحاب السنن: كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من طعامه(١) قال: (الحمدُ للهِ الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين).

ولأبى داود والنسائى: كان إذا أكلَ أو شَرِبَ قال: (الحمدُ للهِ الذى أطعم وسَقَى وسَوَّغَه(٢) وجعلَ له مَخْرَجًا)

* وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ أكلَ طعامًا فقال: (الحمدُ لله الذى أطعمنى هذا ورَزَقَنِيه من غير حَوْلَ مِنِّى ولا قُوَّةٍ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبِه)

رواه الترمذى وأبو داود بسند حسن.

* وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: (إذا أكلَ أحدُكم طعامًا فليقلْ: اللهمَّ باركْ لنا فيه، وأَطْعِمْنا خيرًا منه. وإذا سُقِى لبنًا فليقل: اللهمَّ باركْ لنا فيه، وزِدْنا منه، فإنَّه ليسَ شيءٌ يُجْزِئُ من الطعام والشَّراب إلاَّ اللبن(٣))

رواه أبو داود والترمذى.

وذلك لأن الحمدَ بعد الأكل والشرب معناه الاعتراف لله تعالى بانفراده بالعطاء، وتجديد الحمد لله تعالى على نعمه وشكره عليها، وهذا يلزمه المزيد، قال تعالى:

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾(٤).

وفى سنن النسائى وكتاب ابن السنى بإسناد حسن عن عبد الرحمن بن

---

(١) ولفظ الترمذى: كان إذا أكل أو شرب.. إلخ.

(٢) سوغه: أى سهل دخوله وخروجه.

(٣) لأن اللبن فيه كل ما يحتاج إليه الجسم.

(٤) سورة إبراهيم - من الآية: ٧.

جُبَيْرٍ التابع أنه حَدَّثه رجل خدم النبيَّ صلى الله عليه وسلم ثماني سنين أنه كان يسمع النبي صلى الله عليه وسلم إذا قَرَّب إليه طعامًا يقول: (باسم الله) فإذا فرغ من طعامه قال: (اللهم أَطْعَمْتَ وسَقَيْتَ وأَغْنَيْتَ وأَقْنَيْتَ وهَدَيْتَ وأَحْيَيْتَ، فَلَكَ الحمدُ على ما أعطيتَ)

وفي كتاب ابن السني عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في الطعام إذا فرغ: (الحمدُ لله الذي مَنَّ علينا وهدانا، والذي أَشْبَعَنَا وأَرْوانَا، وكُلُّ الإحسانِ أتانا).

وفي سنن أبي داود والترمذي وكتاب ابن النسي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أَكَلَ أحدُكم طعامًا) وفي رواية ابن السني: (مَنْ أَطْعَمَهُ اللهُ طعامًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأَطْعِمْنا خيرًا منه. ومن سقاه اللهُ تعالى لَبَنًا فليقل: اللهمَّ باركْ لنا فيه وزِدْنا منه؛ فإنَّه ليسَ شيءٌ يجزئ من الطعام والشراب غير اللبن).

قال الترمذي: حديث حسن.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن بُسْر[1] الصحابيِّ قال: نزل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على أَبِي، فَقَرَّبْنا إليه طعامًا ووَطْبَةً[2] فأكلَ منها، ثم أُتي بتمر، فكان يأكلُه ويُلقي النَّوَى بين أصبُعَيْه، ويجمعُ السبَّابةَ والوُسْطى. قال شعبة: هي ظنيٌّ، وهو فيه إن شاءَ اللهُ تعالى إلقاءُ النَّوَى بين الإصبعَيْن، ثم أُتِي بشراب فشربه، ثم ناولَهُ الذي عن يمينِه، فقال أبي: ادْعُ اللهَ لنا، فقال: (اللهمَّ باركْ لهم فيما رَزَقْتَهُمْ، واغْفِر لهم وارْحَمْهم)

* وفي سنن أبي داود وغيره بالإسناد الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن

(١) بُسر: بضم الباء وإسكان السين المهملة.

(٢) الوَطْبَة: بفتح الواو وإسكان الطاء: قربة لطيفة يكون فيها اللبن.

النبى صلى الله عليه وسلم جاء إلى سعد بن عُبادة رضى الله عنه، فجاء بخبز وزيت، فأكل قال النبى صلى الله عليه وسلم: (أفطرَ عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرارُ، وصلَّت عليكم الملائكةُ).

* وفى سنن ابن ماجه عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال: أفطر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سعد بن معاذ، فقال: (أفطرَ عندكم الصائمون. .) الحديث

* وفى سنن أبى داود عن رجلٍ عن جابرٍ رضى الله عنه قال: صنَعَ أبو الهيثم بن التَّيهان للنبى صلى الله عليه وسلم طعامًا، فدعا النبيَّ صلي الله عليه وسلم وأصحابَهُ، فلما فرغوا قال: (أثِيبوا أخاكم) قالوا: يا رسول الله، وما إثابته؟ قال: (إنَّ الرجلَ إذا دخلَ بيته فأكل طعامهُ وشرِبَ شرابهُ فَدَعَوْا له، فذلكَ إثابَتُه).

* وفى صحيح مسلم عن المقداد رضى الله عنه فى حديثه الطويل المشهور قال: فرفع النبىُّ صلى الله عليه وسلم رأسَهُ إلى السماء فقال: (اللهمَّ أَطْعِمْ من أطْعَمَنى، واسْقِ من سقانى)

* وفى كتاب ابن السنى عن عمرو بن الحمِق(١) رضى الله عنه أنه سقى رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنًا، فقال: (اللهمَّ أَمْتِعْهُ بشبابِه): فمرت عليه ثمانون سنة لم ير شعرةً بيضاءَ.

وفى كتاب ابن السنى أيضا عن عمرو بن أخطب(٢) رضى الله عنه قال: استسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيتُه بماءٍ فى جمجمة وفيها شعرةٌ، فأخرجتُها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهمَّ جَمِّلْهُ): قال الراوى: فرأيتُه ابن ثلاثٍ وتسعينَ أسودَ الرأسِ واللحيةِ.

(١) الحمِق: بفتح الحاء وكسر الميم.
(٢) أخطَب: بالخاء المعجمة وفتح الطاء.

(والجمجمة) بجيمين مضمومتين بينهما ميم ساكنة، هى قدح من خشب وجمعها جماجم. وبه سمى دير الجماجم، وهو الذى كانت به وقعة ابن الأشعث مع الحَجَّاج بالعراق؛ لأنه كان يُعمل فيه أقداحٌ من خشب، وقيل سُمِّىَ به لأنه بُنِىَ من جماجم القتلى لكثرة من قُتِل.

وقد قرأت كذلك فى كتاب (تيسير الوصول، إلى جمع الأصول) تحت عنوان:

ما أكله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الأطعمة ومدحه

* عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأَدَمَ، فقالوا: ما عندنا إلا الخلُّ، فَدَعَا به، فجعل يأكلُ ويقول: (نِعْمَ الإدامُ الخلُّ، نِعْمَ الإدامُ الخلُّ، نِعْمَ الإدامُ الخلُّ)(١)

أخرجه الخمسة إلا البخارى.

* وعن عمر وأبى أسيد رضى اله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كُلُوا الزَّيتَ، وادَّهِنُوا به؛ فإنه من شجرة مباركة)

أخرجه الترمذى.

* وعن أنس رضى الله عنه أن خياطًا دعا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لطعام صَنَعَهُ له: فذهبتُ معه فَقَرَّبَ خبزًا من شعير ومَرَقًا فيه دُبَّاء وقديد(٢)، فرأيتُه صلى الله عليه وسلم يتبع الدباء من حوالى الصحفة، فلم أزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ من يومئذ.

أخرجه الستة إلا النسائى(٣).

---

(١) فى بعض النسخ تكرير نعم الإدام الخل مرتين فقط.

(٢) القديد: اللحم المطبوخ الميبس. والدباء: أى القرع.

(٣) أى رواه البخارى، ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه.

* وعن ابن عُمَرَ رضى الله عنهما قال: أُتِى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بجبْنَة فى تبوك من عملِ أنصارى فدعا بسكينٍ فسمى وقطعَ وأكلَ)

أخرجه أبو داود.

* وعن يوسف بن عبد الله بن سلام رضى الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلى اله عليه وسلم كِسرَةً من شعيرٍ، فوضع عليها تمرةً، وقال: (هذه إدام هذه).

أخرجه أبو داود.

* وعن عائشة رضى الله عنها، قالت: كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يأكلُ البطيخَ بالرُّطَبِ، ويقول: (يكسر حَرَّ هذا بَرْدُ هذَا)

أخرجه أبو داود، وهذا لفظه، والترمذى.

* وللشيخين وأبى داود عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما، قال: رأيتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يأكلُ القِثَّاء بالرطب.

* ولأبى داود عن عائشة رضى الله عنها، قالت: أرادتْ أمى أن تُسَمِّنَنى لدخولى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أُقْبِلَ عليها بشىء مما تريدُ حتى أطعمتنى القثاءَ بالرطبِ فسمنتُ عليهِ كأحسن السِّمَنِ.

وعن ابنى بِسْر السُّلَمِيَّيْنْ رضى الله عنهما، قالا: دخل علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقدَّمْنا إليه زُبْدًا وتَمْرًا، وكان يُحِبُّ الزبدَ والتمرَ.

أخرجه أبو داود.

وعن عائشة رضى الله عنها، قالت: كان رسولُ اللهَ صلى الله عليه وسلم يحبُّ الحلواءَ والعسلَ.

أخرجه الترمذى.

* وعن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: كان أحبُّ الطعام إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الثَّريدَ منَ الخبزِ، والثريدَ من الحيسِ.

أخرجه أبو داود.

و(الحيس): طعام يُخْلَطُ من سمن وتمر وأقط، وقد يُجْعَلُ عوض الأقط دقيقٌ أو فتيت.

* وعن عبد الله المزنى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا اشترى أحدُكم لحمًا فليُكثر مرقتَه، فإن لم يَجِدْ لحمًا أصابَ مَرَقًا وهو أَحَدُ اللحميْن)

أخرجه الترمذى.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: أُتِىَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بلحمٍ فرُفِعَ إليه الذراعُ، وكانت تعجبه، فنهس منها.

أخرجه الترمذى.

و(النَّهْسُ) بمعجمة ومهملة: الأكل بمقدم الأسنان، وقيل: إنه - بالمعجمتين - الأكل بالأضراس.

* وعن جابر رضى الله عنه، قال: لقد رأيتُنا مع رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِمَرِّ الظَّهْران نجنى الكباث، وهو ثمر الأراك، ويقول: (عليكم بالأسودِ منه فإنَّه أطيبُ، فقلتُ: أكنتَ ترعَى الغنمَ؟ فقال: وهل من نبىٍّ إلا رعاها)

أخرجه الشيخان.

* ومن الآداب الهامة التى ينبغى علينا أن نتعلمها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا ما أردنا أن نأكل أو نشرب، أنه صلوات الله وسلامه عليه:

* كان إذا أكل طعامًا سمى الله تعالى، وكان يأمر بذلك فيقول: (إذا أكل أحدكم طعامًا فليقل: باسم الله، فإن نسى فى الأول فليقل فى الآخر باسم الله فى أوَّلِهِ وآخِرِهِ)

أخرجه أبو داود. والترمذى.

وعن المحققين من أهل الحديث أن التسمية فى أول الطعام واجبة؛ لأن أحاديث الأمر صحيحة سالمة من المعارضة. (أما) إن كان فى جماعة فهل تجزى تسمية أحدهم أو لا؟:

(قال) جماعة من العلماء: (تجزى)، وحديث حذيفة لا يوافق قولهم؛ لأنه قال: (حَضَرْنا مع النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم طعامًا، فجاءتْ جاريةٌ كأنَّها تُدْفَعُ، فذهبتْ لتضعَ يَدَها فى الطعام، فأخذَ بيدِها، ثم جاء أعرابىٌّ فأخذَ بيدِه، وقال صلى اللهُ عليه وسلم: إن الشيطانَ يستحلُّ الطعامَ ألا يُذكَرَ اسمُ اللهِ عليه، جاء بهذه الجارية، فأخذتُ بيدها، فجاء بهذا الأعرابى ليستحلَّ به، فأخذتُ بيده، والذى نفسى بيدِه إن يدَه لفى يدى مع يَدَيْهما، ثم ذكر اسمَ اللهِ وأَكَلَ)

أخرجه مسلم وأبو داود.

و(قوله): (كأنها تُدْفَعُ) أى: كأن وراءهامن يدفعها إلى قدامها.

* وثبت فى سنن الترمذى من حديث عائشة أنها قالت: أكلَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم الطعامَ مع ستة من الصحابةِ، فدخلَ أعرابىٌّ بغتةً وأكلَ الطعامَ فى لقمتَيْنِ، فقال صلى الله عليه وسلم: (لو أنَّ هذا الأعرابى قال: باسم الله لكفاكم هذا الطعامُ)

ومُحَقَّقٌ أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد سمى الله، وكذلك أصحابه، فلو أن تسمية الواحد تكفى عن الباقى لما احتيج إلى تسمية الأعرابى.

* وعن وحشى بن حرب عن أبيه عن جده وحشى بن حرب الحبشى، أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله، إنَّا نأكلُ ولا نَشْبَعُ؟ قال: (لعلكم تَفْتَرِقُونَ؟) قالوا: نعم، قال: (فاجتَمِعُوا على طعامِكم، واذكروا اسمَ الله يُبارك لكم فيه)

أخرجه أبو داود.

* وعن أمية بن مَخْشىٍّ رضى الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا ورجلٌ يأكل فلم يُسَمِّ حتى لم يَبْقَ من طعامِه إلا لقمة، فلما رفعها إلى فيه قال: باسم الله أوله وآخره! فضحك صلى الله عليه وسلم ثم قال: (ما زال الشيطانُ يأكلُ معه، فلما ذَكَرَ اسمَ اللهِ آخرًا استقاء ما فى بطنه)

أخرجه أبو داود.

* وعن جابر رضى الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا دَخَلَ الرجلُ منزلَه فذكرَ اللهَ عند دخولِه وعند طعامِه قال الشيطان(١): لا مبيت لكم ولا عَشاء! وإن ذكر اللهَ عند دخوله ولم يذكر عند عشائه يقول: أدركتُم العشاءَ ولا مبيتَ لكم! وإن لم يَذْكُرِ اللهَ عند دخولِه ولا عندَ عَشائِه قال: أدركتُم المبيتَ والعشاءَ)

أخرجه مسلم وأبو داود.

---

(١) أى للشياطين الأخرى التى معه.

وقد عرفنا قبلُ ماذا كان يقول صلوات الله وسلامه عليه إذا فرغ من الطعام والشراب، من الحمد والشكر لله تعالى. .

* وكان صلوات الله وسلامه عليه فى بعض الأحيان إذا دخل البيتَ يقول: (هل عندكم طعامٌ؟) فإن أحضروا شيئًا وكان موافقا لمزاجه أكل، وإلا ترك، وما عاب طعامًا قط، إن اشتهى أكل، وإلا تركه،

* وكان يمدح الطعام فى بعض الأحيان كقوله: (نِعْمَ الإدامُ الخَلُّ) - كما عرفنا قبل هذا - وإن لم يحضروا شيئًا ينوى الصيام، ويقول: (إنى اليومَ صائمٌ).

* وكان يتكلم على الطعام، ويكرر عرض الطعام على الضيفان، كما هو عادة الكرام، كما ورد فى حديث أبى هريرة وقصة شرب اللبن، وقوله صلى الله عليه وسلم: (اشربْ، فشربَ، فقال: اشربْ، فشرب، فقال: اشرب، فشرب، ولم يزل يكرر حتى قال: لا والذى بعثك بالحق نبيا لا أجدُ له مَسْلكًا).

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعامَ قَوْمٍ دعا لهم - كما عرفنا قبل هذا - . .

* وكان صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا أكلتُم طعامًا فأذيبوه بذكرِ اللهِ عز وجل والصلاةِ، ولا تناموا عليه فتقسو به قلوبكم).

* وكان صلى الله عليه وسلم يأمر بالأكل باليمنى، وينهى عن الأكل بالشمال؛ لأن الشيطان يأكل ويشرب بشماله.

* فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يَأْكُلَنَّ أحدُكم بشمالهِ، ولا يَشْرَبَنَّ بها؛ فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بها)

أخرجه مسلم ومالك وأبو داود والترمذى.

* وكان من كريم عاداته صلى الله عليه وسلم، أنه إذا حضر طعام لا يرده، ولا يتكلف فى طلب مفقود، ومتى حضر طعام صالح من طيبات الأطعمة فلا بد أن يتناول منه، وما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه(١)

* وكان يكثر أكل الحلوى والعسل ويُحبُّ ذلك.

* وكان يشرب فى كل يوم قدحًا من ماء وعسل يتجرعه ويصبر حتى تغلب عليه شهوة الطعام، ثم يأكل من خبز الشعير بالماء أو بإدام، ويكتفى بذلك.

* وثبت فى الصحيح، أنه: أكل لحم الإبل، ولحم الغنم، ولحم الدجاج، ولحم الحبارى، ولحم الأرنب، ولحم السمك، ولحم العنبر البحرى، والرطب، والتمر، وشرب الحليب المحض وممزوجًا، وأكل الخبز بالتمر، والخبز بالخل، والخبز بالشحم المسلى ونقيع التمر، والرطب بالخيار، وكبد الغنم مشويا، واللحم القديد، والدُّبَّاء مطبوخة، والجبن، والثريد، والخبز بالزيت، والتمر بالزبد، والرطب بالبطيخ، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم تناول هذه الأشياء كلها.

وفى الجملة: مهما حضر من الطيبات لم يرده، وإن لم يجد شيئًا صبر حتى إنه شد الحجر على بطنه الشريف من شدة الجوع، وكان يمر عليه الهلالان والثلاثة لا يوقد فى بيته نارًا، وإذا حضر الطعام وضعوه على السفرة(٢) وبسطوها على الأرض، ولم يأكل على خوان مرتفع.

*فعن أنس رضى الله عنه قال: ما علمتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم أكل

---

(١) كما أشرت قبل هذا.

(٢) قال فى مختار الصحاح: السفرة بالضم: طعام يُتخذ للمسافر، ومنه سميت السفرة، والمراد وضع الطعام على شىء غير مرتفع، بدليل باقى الحديث..

على سُكُرُّجَةٍ قط، ولا خُبِزَ له مرققٌ قط! ولا أكل على خِوانٍ قط! قيل لقتادة: فعلامَ كانوا يأكلون؟ قال: على السُّفَر.

أخرجه البخارى والترمذى.

و(السُّكرُّجة) بضم أوله وثانيه وثالثه وتشديده: إناء صغير يجعل فيه القليل من الأدم والكواميخ وهى فارسية.

وعن أبى حازم، قال: سألت سهل بن سعد رضى الله عنه: هل أكلَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم النَّقِىَّ؟ فقال: ما رأى النبى صلى الله عليه وسلم النَّقِىَّ منذ ابتعثَه اللهُ تعالى حتى قبضَه! فقلت: هل كانت لكم مناخلُ؟

فقال: ما رأى النبىُّ صلى الله عليه وسلم مُنْخُلاً من حينِ ابتعثه الله تعالى حتى قبضه! قلت: كيف كنتم تأكلون الشعير غيرَ منخول؟ قال: كنا نطحنُه وننفخُه فيطيرُ منه ما طار وما بيقى ثَرِيْناهُ فأكلناه.

أخرجه البخارى والترمذى.

و(النقى) أى الطعام الأبيض الحُوَّارى.

وكان صلى الله عليه وسلم يأكلُ بثلاثة أصابع، وإذا فرغ لعق أصابعه.

* وقد ورد الترغيب فى هذا، فعن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أكلَ أحدُكم طعامًا فلا يمسحْ يَدَهُ حتى يلعَقَها أو يُلْعِقَها)

أخرجه الشيخان وأبو داود.

و(اللَّعْقُ): اللحس.

* وعن جابر رضى الله عنه، قال: أمر رسول الله صلي الله عليه وسلم بِلَعْقِ الأصابعِ والصَّحْفَة. وقال: (إنكم لا تدرون فى أىٍّ طعامكم البركة! فإذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها، وليُمِطْ ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان، ولا يمسح يده بالمنديل حتي يلعق أصابعه؛ فإنه لا يدرى في أى طعامه البركة)

أخرجه مسلم والترمذى.

وزاد رزين فى رواية عن أنس: (فإنَّ آنيةَ الطعام تستغفرُ للذِى يلعقُها ويغسلُها وتقولُ: أعتقكَ اللهُ من النارِ كما اعتقتنى من الشيطان).

وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل متكئًا:

* فعن أبى جُحَيْفة رضى الله عنه، قال: قال النبى صلى الله عله وسلم:

(لا آكلُ متكئًا) أخرجه أصحاب السنن.

والاتكاء على ثلاثة أنواع:

أحدهما: أن يضع جنبه على الأرض.

الثانى: أن يقعد مربعًا

الثالث: أن يعمتد بإحدى يديْه على الأرض ويأكل بالأخرى. وكلها مذمومة.

أما الجلسة المجمدية، فقد وردت فى نص حديث صحيح، عن أنس رضى الله عنه قال: رأيتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم جالسًا مُقعيًا يأكل تمرًا) أخرجه مسلم وأبو داود.

ولأبى داود فى أخرى:

أُتِى بتمرٍ عتيقٍ فجعلَ يُفتشه يُخرج منه السوس.

و(الإقعاء) فى الأكل أن يجلس الآكل على وركيه مستوفزًا غير متمكن.

* وكان صلى الله عليه وسلم يقول: (لا آكلُ متكئًا، إنما أجلسُ كما يجلس العبد، وآكلُ كما يأكلُ بالعبدُ)

* ونهى أن يأكل الإنسان مستلقيًا على وجهه).

وكان يأكل بثلاثة أصابع، ولم يأكل بواحدة أبدًا.

* ولم يجمع بين سمك ولبن، ولا بين اللبن وشىء من الحوامض، ولا بين غذاءين حارّين، ولا بين دواءين لزجين، ولا بين قابضين، ولا بين مُسْهِلَيْنْ، ولا بين غليظين، ولا بين مُختلفين كقابضٍ ومُسْهِلٍ، أو سريع الهضم وبطيئه، ولا بين اللحم والحليب.

* وكان لا يأكل الطعام فى حال شدة حرارته حتى يبرد، ولا يأكل طعامًا بائتًا ولا ما فيه عفونة من الأطعمة كالكامخ والمخللات والملوحات، ولم يثبت أنه تناول شيئًا منها.

* وكان يدفع ضرر بعض الأغذية بأضدادها كالتمر بالسمن، والرطب بالقِثَّاء.

وكان ينقع التمر وبشرب ماءه لهضم الطعام، وأمر أن يؤكل ما تيسر من الطعام قبل النوم ولو كَفا من تمر. ونهى عن النوم عقيب الأكل. وأما شرب العسل فإنه كان يمزجه بماء بارد فى غاية البرودة. ولما كان العسل أفضل الأشربة بإجماع أهل العلم؛ لأنه نتيجة الوحى الإلـهى كان يحبه أكثر من جميع الحلاوات.

ولما دخل بستان ابن التيهان قال: (هل عندكم ماء بات فى سنة وإلا كرعنا؟)

والمراد بالكرع هنا: الاغتراف باليدين؛ إذْ يكون الشرب باليد متعذرًا فى تلك الحال، فأدت الضرورة إلى الكرع.

* وكان صلى الله عليه وسلم يشرب ـ كما عرفنا قبل ذلك ـ قاعدًا، وينهى أن يشرب أحد قائمًا، وكان يقول: (من نسى فشرب قائماً فليتقيأ) لكن ثبت فى الصحيح أنه شرب قائمًا ـ كما عرفنا فى الحج ـ

قال بعضهم: هو ناسخ للنهى، وقال بعضهم: ليس فيه تعارض؛ لأنه إنما شرب قائماً للضرورة.

وكان صلى الله عليه وسلم يتنفس فى الإناء[1] ثلاثا، ويقول: (إنه أَرْوَى وأَمْرَأُ وأَبْرَأُ) وقال: (غطُّوا الإناءَ، وأوكئوا السقاءَ؛ فإنَّ فى السنة ليلةً ينزلُ فيها وباءٌ لا يمرُّ بإناءٍ ليس عليه غطاءٌ وسقاءٍ ليس عليه وِكاءٌ إلا وقَعَ فيه من ذلك الداء)

* ونهى عن الشرب من ثلمة القدح ـ يعنى من المكان المكسور.

* وكان ينقعُ التمر فى الماء ليلة وليلتين وثلاث ليال، ثم يشربه، وما بقى مما مضى عليه ثلاث ليال يسقيه بعض الغلمان أو يأمر بإراقته.

* وكان يشربُ الحليبُ المحض، وقد يمزجه بالماء ويقول: (ليس شىءٌ يجزِى عن الطعامِ والشرابِ غيرَ اللبنِ).

---

(١) أى خارج الإناء.

صفة نوم النبى صلى الله عليه وسلم وانتباهه

* فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ينام على الفراش تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى السرير تارة، وعلى الأرض تارة، وكان فراشه حشوه ليف.

* وكان إذا آوى إلى فراشه للنوم قال: (باسمك اللهمَّ أحيا وأموتُ)

* وينام على شقه الأيمن، ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن، ثم يقول: (اللهمَّ قِنِى عذابَكَ يومَ تبعثُ عبادَك).

* وإذا انتبه من نومه قال: (الحمدُ لله الذى أحيانا بعد ما أماتَنا وإليه النشورُ) ثم يتسوك ويتوضأ ويتهَجَّدُ على الوَجه الذى ورد فى السنة. بعد أن ينام أول الليل، ثم يقوم بعد ذلك فى أول النصف الثانى.

وكانت تنام عيناه، ولا ينام قلبه، وإذا نام لم يوقظوه حيث يكون هو الذى يستيقظ.

* وكان لا ينام على الفرش المشحوة حشواً عاليا، ولا يبيت على الأرض المجردة، وفى بعض الأحيان كان يضع رأسه على الوسادة، وقد يتوسد ساعده المبارك، صلى الله عليه وسلم.

* هذا، وإذا كنا قد عرفنا أنه صلى الله عليه وسلم كان يستيقظ من النوم بعد مُضِىٍّ نصف الليل، فإنه أحيانًا كان يستيقظ قبل ذلك، وأحيانا عند صياح الديك، وذلك يكون فى الغالب بعد مضى نصف الليل.

وكان إذا استيقظ مسح بيده على عينيه المباركتين، ثم استعمل السواك ثم توضأ، وفى حالة استعمال السواك كان يقرأ آخر آل عمران:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١)

إلى آخر السورة، ثم افتتح الصلاة بركعتين خفيفتين وأمر أمته بذلك فقال: (إذا قامَ أحدُكم من الليل فليفتتحْ صلاتهُ بركعتيْن خفيفتيْن).

** وورد فى كيفية قيام الليل طرقٌ ثمانية كلها صحيحة، والمتعبد مُخَيَّرٌ فى المواظبة على أى هذه الأنواع شاء أو اختيار نوع منها فى وقت دون وقت:

* (النوع الأول): حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استيقظَ، فتسوَّك وتوضَّأ وهو يقول: (إن فى خلق السموات والأرض...) فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة، ثم قام فصلَّى ركعتيْن وأطالَ فيهما القيامَ والركوعَ والسجودَ، ثم انصرفَ فنامَ حتى نفخ، ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات، كل ذلك يَسْتاك ويتوضأ ويقرأ هذه الآيات، ثم أوتر بثلاث، فأذن المؤذن، فخرج إلى الصلاة وهو يقول: (اللهمَّ اجعلْ فى قلبى نوراً، وفى لسانى نوراً، واجعلْ فى سمعى نوراً، واجعل فى بصرى نوراً، واجعل من خلفى نوراً، ومن أمامى نوراً، واجعل من فوقى نوراً، ومن تحتى نوراً، اللهم أَعْطِنى نوراً).

هذه الرواية فى صحيح مسلم.

وليس فيها الافتتاح بركعتين خفيفتين، وأجيب عن هذا بوجهين:

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠.

الأول: أنه كان فى بعض الأوقات يفتتح بركعتين خفيفتين، وفى بعض الأوقات بركعتين طويلتين.

الثانى: أن عائشة أعرف بحال قيام الليل، وقد تكون حفظت ما فات عن ابن عباس.

* **(النوع الثانى)**: ما روت عائشة أنه صلى الله عليه وسلم كان يفتتح الصلاة بركعتين خفيفتين، وبعدهما يطول، يصلى عشر ركعات بخمس تسليمات، ويوتر بركعة، ثم يسلم.

* **(النوع الثالث)**: كان يصلى ثلاث عشرة ركعة خارجًا عن ركعتى الفجر.

* **(النوع الرابع)**: كان يصلى ثمانى ركعات بأربع تسليمات، ثم يصلى بعد ذلك خمس ركعات: يجلس فى أخراهن ويسلم، ولم يكن فى أثنائهن جلوس إلا فى الآخر.

* **(النوع الخامس)**: كان يصلى تسع ركعات، منها ثمان متعاقبات ليس بينهن جلوس إلا بعد الثامنة، فإنه كان يتشهد ويدعو، ثم ينهض إلى التاسعة من غير سلام، ثم يتشهد بعدها ويسلم، ثم يصلى ركعتين عقب الوتر.

* **(النوع السادس)**: كان يصلى ست ركعات متصلات لا يجلس بينهن إلا فى آخرهن، ثم ينهض قبل السلام، فيصلى ركعة ويسلم، ثم يصلى بعد ذلك ركعتين جالسًا عقب الوتر.

* **(النوع السابع)**: كان يسلم فى كل ركعتين ويصلى فى آخرهن ثلاث ركعات بتسليمة واحدة، وطعن الحفاظ فى هذه الرواية لما فى صحيح ابن حِبَّان بإسناد صحيح: (لا تُوتروا بثلاثٍ، أَوْتِروا بخمسٍ أو سبعٍ، ولا تشبهوا بصلاةِ المغربِ)

وفى حديث عائشة بإسناد صحيح أنه كان يسلم فى الركعتين الأخيرتين، ثم بعد ذلك يصلى بركعة.

وسئل الإمام أحمد: ما تقول فى الوتر؟ قال: أكثر الحديث وأقواه ركعة، فأنا أذهب إليها. ثم سئل ثانياً، فقال: يسلم فى الركعتين، وإن لم يسلم رجوت ألا يضره، إلا أن التسليم أثبت.

* (النوع الثامن): روى النسائى بسنده عن حذيفة أنه صَلّى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى صلاة الليل وطَوَّل فى الركوع مثل القيام، وكان يقول: سبحان ربى العظيم، ثم بعد ذلك جلس وقال: ربِّ اغفر لى، وكَرَّرَهَا، ولما صلى أربع ركعات على هذه الوجه أذَّن بلالٌ للصبح، ودعا النبى صلى الله عليه وسلم للصلاة.

هذه الطرق الثمانية ثبتت فى قيام الليل، وكان يصلى الوتر فى أول الليل، وحينًا فى أوسطه، وحينًا فى آخره. وهذا فى الغالب. وفى بعض الليالى كان يكرر آية فى صلاة الليل من أوله إلى آخره، وهى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١)

(وكانت) صلاة النبى صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أنواع:

(الأول): أنه كان يصليها قائمًا، وذلك فى الغالب.

(الثانى): أنه كان يصليها جالسًا، ويركع جالسًا أيضا.

(الثالث): أنه كان يصليها جالسًا، ويقرأ غالب القراءة جالسًا، ثم يقوم فيقرأ ما بيقى قائمًا، ثم يركع..

هذه الأنواع الثلاثة صحيحة. وأما الحديث الذى ورد بأن هيئة جلوسه فى

(١) سورة المائدة: ١١٨.

حالة الصلاة قاعدًا التربع فقد طعن الحفاظ فيه، وحملوه على خطأ بعض الرواة.

** فكن - أخا الإسلام - مقتديًا أو متشبها بهذا الرسول العظيم الذى كان يقوم من الليل حتى تَتَفَطَّر(1) قدماه:

* فعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبىُّ صلى الله عليه وسلم يقومُ من الليلِ حتى تتفطَّر قدماه، فقلت له: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غُفِر لك ما تَقَدَّمَ من ذنبك وما تأخرَ؟ قال: (أفلا أكون عبدًا شكورًا)

متفق عليه. وعن المغيرة نحوه متفق عليه

وذلك حتى تدخل الجنة بسلام:

* فعن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال: (أيها الناسُ أَفْشُوا السلامَ، وأطعموا الطعامَ، وصَلُّوا بالليلِ والناسُ نيامٌ: تدخلوا الجنةَ بسلامٍ)

رواه الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح.

وأيقظ زوجتك حتى تفوز معك كذلك بهذا الخير الذى لا شك أنكما فى أشد الحاجة إليه.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رَحِمَ اللهُ رجلاً قام من الليلِ فصلَّى، وأيقظَ امرأتَهُ، فإنْ أَبَتْ(2) نضحَ(3) فى وجهِها الماءَ، ورحم اللهُ امرأةً قامت مِن الليلِ فصلَّت وأيقظتْ زوجَها، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء)

رواه أبو داود بإسناد صحيح.

---

(1) تتفطر: أى تتشقق.

(2) أى امتنعت من القيام.

(3) النضح هو رش الماء ليذهب النوم.

وحتى تُكتبَا بذلك كذلك فى الذاكرين والذاكرات:

* فعن أبى هريرةَ وأبى سعيد رضى الله عنهما، قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أيقظَ الرجلُ أهلَهُ من الليلِ فصلَّيا ـ أو صلَّى ركعتيْن جميعًا كُتبَ فى الذاكرين والذاكرات)

رواه أبو داود بإسناد صحيح.

واحذر أن يَبُولَ الشيطانُ فى أُذُنَيْكُمَا:

* فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: ذُكِر عند النبىِّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ نامَ ليلةً حتى أصبحَ! قال: (ذاكَ رجلٌ بال الشيطانُ فى أذنيْهِ ـ أو قال ـ أذنِهِ)

متفق عليه.

هذا بالإضافة إلى ما ورد كذلك:

* عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يَعْقدُ الشيطانُ على قافيةِ(١) رأسِ أحدكم إذا هو نامَ ثلاثَ عُقَدٍ، يضربُ على كلِّ عُقْدَة: عليك ليلٌ طويلٌ فارقُدْ، فإن استيقظَ فذكرَ اللهَ تعالى انحلَّت عقدةٌ، فإن توضأ انحلتْ عقدةٌ، فإن صلى انحلت عُقَدُهُ كُلُّها، فأصبح نشيطًا طَيِّبَ النفسِ، وإلا أصبح خَبيثَ النفسِ كَسلان)

متفق عليه.

جعلنى الله تعالى وإياكم من الذين يقومون الليل بطاعة الله،حتى نكون بهذا من أصحاب النفوس الطيبة لا الخبيثة.

(١) بهدف تثقيله بالنوم وتثبيطه، كأنه شد عليه وثاق الكسل. وقافية الرأس: آخره.

صفة مشيه وجلوسه واتكائه وركوبه صلى الله عليه وسلم

* فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا مشى كأنما يَنْحَطُّ من صبب، يخطو تكفؤًا، يعنى كأنما يقلع نفسه من الأرض قلعًا، وهذا مشى الشجعان وأصحاب الهمم العالية ومَن قلبه حى، وأعدل ما يكون من المشى؛ لأن الماشى إما متماوت يابس كالخشبة، أو طائش منزعج قلق مضطرب، وهذان النوعان فى غاية القبح والذم، ودليل على خفة الدماغ وقلة العقل أو على الخمول، وموت القلب.

وإما بأتم حركة وأقل سرعة، وهذا النوع يمشى مَشْىَ الهَوْنِ المشار إليه فى قول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾(١) قال المفسرون: يعنى سكينة ووقار من غير كِبر ولا تماوت، وهذا النوع من المشى كان له صلى الله عليه وسلم، ومع هذا كان يُرى كأنه ينحط من صبَب، وكانت الأرض تُطوى له.

وأنواع المشى عشرة؛ هذه الثلاثة، و(الرابع): السعى و(الخامس): الرمل و(السادس): النسلان، وهو عَدْوٌ خفيف، و(السابع): الخوزلى، وهو مسير

(١) سورة الفرقان ـ من الآية: ٦٣.

فيه تمايل، و(الثامن): القهقرى، و(التاسع): الجمزى، وهو وثوب فى المسير، و(العاشر): التَّبخْتُر، وهو مشى المتكبرين،

وأفضل هذه الجملة وأكملها الهَوْن الذى هو مشيه صلى الله عليه وسلم.

* وكان إذا سار مع أصحابه قدمهم أمامه، ومشى خلفهم، وقال: (دعوا ظَهْرِىَ للملائكة).

* وكان يمشى متنعلا، وفى بعض الأحيان كان يمشى حافياً، وأصاب أصبع رجله المباركة حجر فى بعض غزواته فسال دمها، فقال:

هل أنت إلا أصبع دَمِيتِ، وفى سبيل الله ما لقيت(١)

** وقد قرأت كذلك بالإضافة إلى هذا، فى (مختصر من زاد المعاد) للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

* أنه صلى الله عليه وسلم كان يماشى أصحابه فرادى وجماعات.

* وكان فى السفر ساقة أصحابه، يزجى الضعيف ويردفه، ويدعو لهم.

* وكان يجلس على الأرض، وعلى الحصير، وعلى البساط. ولما قدم عليه عدى بن حاتم دعاه إلى منزله، فألقت إليه الجارية وسادة يجلس عليها، فجعلها بينه وبين عدى، وجلس على الأرض

قال عدى: فعرفت أنه ليس بملك.

* وكان يستلقى أحيانًا، وربما وضع إحدى رجليه على الأخرى.

* وكان يتكئ على الوسادة، وربما اتكأ على يساره، وربما اتكأ على يمينه.

(١) وهذا ليس شعراً؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر. .ولا ينبغى أن يكون شاعراً.

* وكان إذا احتاج فى خروجه توكأ على بعض أصحابه من الضعف.

** كما قرأت كذلك، أنه صلى الله عليه وسلم:

كان فى بعض الأحيان يركب الفرس، وفى بعضها يركب البغل والحمار.

وكان يَرْكَبُ الفرس عرياناً بغير سرج، وقد يسرج، وفى الغالب كان يركب منفردًا، وفى بعض الأحيان كان يُردف على البعير أحدًا، وربما أركب شخصًا آخر بين يديه، فيصيرون ثلاثة على بعير. وربما أردف بعض أمهات المؤمنين.

* وغالب مراكيبه صلى الله عليه وسلم الفرس والبعير، وأما البغل فإنه كان قليلاً فى بر العرب. أُهدِى له صلى الله عليه وسلم بغلة من الإسكندرية، وكان يركبها، فقال بعض الصحابة: نحن أيضا نقفز الحمير على الخيل لتنتج البغال فقال: (إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون)؛ لأن الذين لا يعلمون لا يحافظون على الخيل ونسلها من جنسها، والخيل قوة عظيمة فى الحرب، وقد أقسم الله تعالى بها، بصفاتها الحربية لنعتنى بها فقال سبحانه:

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾(١)

وكل قوة فى الحرب تتغير بتغير الزمان إلا الخيل فلا تزال تؤدى دورها. وانظر بلاغة القرآن حيث يقول الله تعالى:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(٢) نكّر القوة، فلم يبين أنواعها؛ لأنها ستجدد

(١) العاديات ـ الآيتان: ١و٢.

(٢) الأنفال ـ من الآية: ٦٠.

بالاكتشاف، وعرَّف الخيل باسمها؛ لأنها تبقى قوة إلى ما شاء الله، فمن يوم أن تركنا تعاليم الدين تركنا العناية بالخيل، كما تركنا العناية بغيرها من قوات الحرب ومعدات التحصين والدفاع(١).

** وحتى تعرف ـ أخا الإسلام ـ أهمية الخيول وخير أنواعها، وحتى تعرف قبل ذلك كيف كان النبى صلى الله عليه وسلم خبيراً بها ـ إليك كذلك ما قرأته فى السنة: (من صفات الخيل):

فعن أبى وهب الجشمى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم من الخيلِ بكل كميتٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ! أو أشقر أَغَرَّ مُحَجَّلٍ، أو أَدْهَمَ أَغرَّ مُحَجَّلٍ)

قيل لأبى وهب: لِمَ فضَّل الأشقر؟

قال: لأن النبى صلى الله عليه وسلم: بعث سرية فكان أول من جاء بالفتح صاحب أشقر.

أخرجه أبو داود والنسائى.

وعنده: (ارتبطوا الخيلَ وامسحوا بنواصيها وأكفالها وقَلِّدوها ولا تقلِّدوها الأوتار) ومعنى: (لا تقلدوها الأوتار) لأنهم كانوا يقلدونَ خيلهم الأوتارَ من العين، فأعلمهم أن ذلك لا يرد من قدر الله شيئا.

وقيل: معناه لا تطلبوا عليها الدخول التى وترتم بها فى الجاهلية.

وعن أبى قتادة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيرُ الخيلِ الأدهمُ الأقرحُ الأرثم، ثم الأقرحُ المحجلُ، طُلُقُ اليمينِ، فإن لم يكن أدهمُ فكميتٌ على هذه الشية)

أخرجه الترمذى.

---

(١) كما جاء فى هامش (مختصر من زاد المعاد) للأستاذ محمد أبو زيد. أكرمه الله.

(والأقرح): أى الذى فى جبهته قرحة، وهى بياض يسير وسطها.

(والأرثم): أى الذى فى شفته العليا بياض (وطلق اليمين): بضم الطاء واللام: غير محجلها (والشية): كل لون خالف معظم لون الخيل وغيره.

** كما قرأت كذلك، أنه صلى الله عليه وسلم كان متواضعًا ومتعاونًا فى كل أحيانه:

* فقد سابق على قدميه، وصارع، وخصف نعليه بيده الكريمة، ورقع ثوبه ودلو بيته، وحلب الشاة بيده، ونقَّى ثوبه من الهوام، وكان يخدم أهل بيته بنفسه.

* وفى عمارة المسجد كان يعين العمال، ويحمل اللَّبِنَ(١)، وربما جاع حتى شد الحجر على بطنه، وأَضَاف وأُضِيف، واحتجم صلى الله عليه وسلم.

وكان صلى الله عليه وسلم يستشير ويُشير، ويعود المرضى، ويحضر الجنائز، ويجيب الدعوة، ويمضى مع الأرامل والمساكين والضعفاء لقضاء حوائجهم فيقضيها.

وهذا كله: يشير، بل ويؤكد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مَثَلاً أعلى فى كل خير. وأنه صلوات الله وسلامه عليه كان ولا يزال سيد المتواضعين:

* فعن أنس رضى الله عنه أنه مَرَّ على صبيانٍ فسَلَّم عليهم، وقال: كان النبىُّ صلى الله عليه وسلم يفعله.

متفق عليه.

(١) أى طوب البناء اللبن.

وكان صلى الله عليه وسلم يزورُ الأنصارَ فيسلم على صبيانِهم ويمسح رءوسَهم ويدعو لهم.

وعن أنس أيضا، أنه قال: إنْ كانت الأَمَةُ من إماءِ المدنيةِ لَتَأْخُذُ بيدِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فتنطلقُ به حيثُ شاءتْ.

رواه البخارى.

وذلك لمزيد من تواضعه صلى الله عليه وسلم وانقياده.

(والأمَة) أى الجارية من جوارى المدينة.

* وعن الأسود بن يزيد قال: سُئِلَتْ عائشة رضى الله عنها: ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يصنع فى بيته؟ قالت: كان يكونُ فى مِهْنَةِ أهلِه - يعنى خدمة أهله - فإذا حضرتِ الصلاةُ خَرَجَ إلى الصلاة.

رواه البخارى.

فلاحظ كل هذا - أخا الإسلام - حتى تكون من المتواضعين لا من المتكبرين؛ لأنه قد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم مدح التواضع ورغَّب فيه، وذم الكِبْر ورَهَّبَ منه:

* فعن عِياضِ بن حِمارٍ رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله أوحى إلىَّ أن تَواضَعُوا؛ حتى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ، ولا يبغى أَحَدٌ على أَحَدٍ)

رواه مسلم.

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما نقصتْ صدقةٌ من مالٍ، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزا، وما تواضعَ أحدٌ للهِ إلا رفعهُ الله).

رواه مسلم.

قال الحسن: التواضع أن تخرج من بيتك فلا تَلْقَى مسلمًا إلا رأيتَ له عليك فضلاً.

وقد أمر اللهُ سبحانه وتعالى بالتواضع له تذللاً وانكسارًا... وهذا هو التواضع المحمود الذى يرفع الله به صاحبه فى الدارين. وأما التواضع لأهل الدنيا ولأهل الظلم فذاك الذل الذى لا عز معه.

* وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخلُ الجنةَ من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبْرٍ) فقال رجل: إن الرجلَ يُحبُّ أن يكون ثوبُهُ حَسَنًا ونعلُهُ حَسَنَةً؟ قال: (إنَ اللهَ جميلٌ يحبُ الجمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغمطُ الناسِ)

(إن الله جميل)، أى: جليل، ذو النور والبهجة سبحانه، مالكها، جميل الأفعال بكم والنظر إليكم، يثيب الجزيل ويشكر عليه.

و(يحب الجمال) أى جمال الخلق، بل والخلقة؛ لأن هذا ليس من الكبر.

و(بطر الحق) عدم الانقياد إليه.

و(غمط الناس) احتقارهم.

* وعن حارثة بن وهب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ألا أخبركُم بأهلِ النارِ؟ كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مستكبرٍ)

متفق عليه.

(العُتُلُّ) أى الغليظ الجافى

و(الجوَّاظ) بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة: هو الجموع المنوع، وقيل: الضخم المختال فى مِشيته، وقيل: القصير البطين.

فلا تنس كل هذا أخا الإسلام:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ(١) وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا(٢) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(٣).

---

(١) أى لا تعرض وجهك عنهم إذا حدثوك تكبراً.

(٢) أى متبختراً.

(٣) لقمان: ١٨.

هدى النبى صلى الله عليه وسلم فى قراءة القرآن واستماعه وكمال خضوعه وخشوعه وبكائه حال سماعه

فقد ورد حول كل هذا (الهدى): أنه صلوات الله وسلامه عليه:

كان له فى كل يوم حزب من القرآن يقرؤه، ولا يتركه أبدًا إلا لضرورة(١).

وكان يقرأ مُرتلاً مفسِّرًا مبينًا حرفًا حرفًا، ويقف عند آخر كل آية، ويتمم المد فى حروف المد، كالمد فى (الرحمٰن الرحيم) فإنه كان يتمم فى كُلٍّ.

وكان يقول فى أول القراءة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وفى بعض الأوقات يقول: اللهمَّ إنى أعوذُ بك من الشيطانِ الرجيمِ من هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ)

* وكان يحب سماع القرآن من الغير، وأمر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن يقرأ عليه القرآن، فلما أخذ فى القراءة استمع له صلى الله عليه وسلم، وأخذ فى الخشوع والتضرع والبكاء حتى جرى ماء عينيه

واستمع ليلة لأبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه، فلما أخبره بذلك قال: لو كنتُ أعلمُ أنك تسمعهُ لحبَّرتُه لك تحبيرًا.

---

(١) كالجنابة، وأثناء قضائه للحاجة (مثلا).

* وكان يقرأ القرآن على كل حال: قائمًا وقاعدًا ونائماً، متوضئًا وغير متوضئ، ولم يكن يمنعه شيء من قراءة القرآن غير الجنابة.

* وكان يتغنَّى بالقرآن فى بعض الأوقات، ويرجع فى ذلك، كما يفعله من الحفاظ من كان حسن الصوت، وكذا قراءة سورة (الفتح) فى يوم فتح مكة.

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: (زَيِّنوا القرآنَ بالأصواتِ الحسنةِ) وقال: (من لم يَتَغَنَّ بالقرآنِ فليس منَّا) قيل لراوى الحديث: فإن كان شخص لا يحسن ذلك؟ قال: يبذل طاقته فيما استطاع من تحسين القراءة.

وينبغى أن يُعلم أن التطريب والتغنى على نوعين:

نوع تقتضيه الطبيعة وتسمح به من غير تكلف، وهو لا يحتاج إلى تمرين وتعليم، بل لو خُلِّىَ شخص وطبعه لصدر منه ذلك التطريب والتلحين، وهذا النوع جائز بالإجماع ولو أعانته على زيادة تحسين وتزيين كما قال أبو موسى الأشعرى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو علمتُ أنك تسمعُ لحبَّرته لك تحبِيرًا) يعنى لو كنت أعلم أنك تسمع قراءتى لأتممت التزيين والتحسين.

(النوع الثانى) هو ما لا يحصل من سماحة الطبع، بل يحتاج فيه إلى التعلم والتمرين والتكلف كأصوات المطربين إذا عمدوا إلى الإيقاع بأنواع الألحان، وقرءوا بأصوات وإيقاعات مخصوصة، وهذا النوع مكروه عند جماعات السلف، وقد منعوا من القراءة به.

** ولم يكن صلى الله عليه وسلم يترك سجدات القرآن، بل حيثما بلغ آية سجدة كبَّر وسجد وقال فى سجوده: (سجدَ وجهى للذى خلقَهُ وصَوَّرَهُ، وشَقَّ سمعَه وبصره بحوله وقوتِه) وربما قال: (اللهمَّ احطُطْ عنىِّ بها وزرًا، واكتب لى بها أجرًا، واجعلها لى عندك ذُخْرًا، وتقبَّلْها مِنِّى كما تقبلتَها من

عبدك داود)ولم يثبت أنه لما رفع رأسه من هذه كبر أو تشهد أو سلم، وصحّ أنه سجد فى (الٓمٓ تنزيل) السجدة، وفى (ص) وفى (النجم)، وفى (إذا السماء انشقت) وفى (اقرأ باسم ربك).

* وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه:

أَقْرَأَنِى رسولُ الهِ صلى الله عليه وسلم خمسَ عشرةَ سجدةً فى القرآن، منها ثلاث سجدات فى المفصل، وسجدتان فى الحج.

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: سجدت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى أحد عشر موضعًا ليس فيها شىء من المفصل، بل فى الأعراف، والنحل، وبنى إسرائيل، ومريم، والحج، والفرقان، والنمل، والٓمٓ السجدة، وص، وسجدة الحواميم.

* وصحّ عن أبى هريرة رضى الله عنه: أنه سجد مع النبى صلى الله عليه وسلم فى: اقرأ باسم ربك، وفى: إذا السماء انشقت. ولما كان إسلام أبى هريرة متأخراً فى سنة سبع من الهجرة رجحوا حديثه.

وقول ابن عباس: لم يسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المفصل منذ تحول إلى المدينة - أسقطوه لضعف إسناده، وأبو هريرة مُثْبِتٌ وهو نافٍ.

صفة كلام النبى صلى الله عليه وسلم وسكوته وضحكه وبكائه

* فقد كان صلوات الله وسلامه عليه أفصح خلق الله وأعذبهم كلامًا.

قالت عائشة: ما كان يَسْرِدُ سردَكم هذا، ولكن كانَ يتكلَّم بكلام يبينه، فَصْلٌ يحفظه مَنْ جلس إليه، وكان كثيراً ما يعيد الكلام ثلاثًا لِيُعْقَلَ عنه.

* وكان طويل السكوت، لا يتكلم فى غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم. لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، وإذا كره الشىء عُرِف فى وجهه.

* ولم يكن فاحِشًا ولا مُتَفَحِّشًا ولا صَخَّابًا.

* وكان ضحكه التبسم، فنهاية ضحكه أن تبدو نواجذه، وكان يضحك مما يُضحك منه.

* وبكاؤه لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن تدمع عيناه حتى تهملا، ويسمع لصدره أزيز.

* وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفًا على أمته وشفقة، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحبة للخوف والخشية.

* ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه، وبكى رحمة له، وقال: (تَدْمَعُ العينُ، ويحزنُ القلبُ، ولا نقول إلا ما يرضى ربَّنا، وإنَّا بك يا إبراهيم لمحزونون).

* وبكى لَمَّا شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض.

* وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وانتهى إلى قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾(1).

* وبكى لما كَسَفت الشمس، وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكى فى صلاته.

* وكان يبكى أحيانًا فى صلاة الليل.

** والعلماء يقولون: البكاء على عشرة أنواع:

بكاء فرح، وبكاء جزع، وبكاء رحمة ورقة، وبكاء خوف وخشية، وبكاء محبة، وبكاء غم ومصيبة، وبكاء ضعف ووحشة، وبكاء نفاق ومداهنة، وبكاء كذب وعارية، كبكاء النائحة، وبكاء مؤالفة وموافقة، كما إذا رأى جماعة يبكون ولم يعلم سبب بكائهم، فيبكى موافقة لهم.

---

(1) سورة النساء: ٤١.

هديه صلى الله عليه وسلم فى خطبته

فقد ورد فى هذا، أنه صلوات الله وسلامه عليه:

* خطب على الأرض، وعلى المنبر، وعلى البعير، وعلى الناقة.

* وكان إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه منذر جيش.

وكان يقول: (أمَّا بعدُ، فإنَّ خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهَدْيِ هدىُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وشرَّ الأمورِ مُحْدَثاتُها، وكلَّ بِدْعة ضلالةٌ).

* وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله، وأما قول كثير من الفقهاء إنه يفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار، وخطبة العيد بالتكبير فليس معهم فيه سنة عن النبى صلى الله عليه وسلم البتة، وسنته تقتضى خلافه، وهو افتتاح جميع الخطب بالحمد لله.

* وكان يخطب قائماً. وفى مراسيل عطاء وغيره: أنه كان إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس، ثم قال: (السلام عليكم)، قال الشعبى:

* وكان أبو بكر وعمر يفعلان ذلك.

* وكان صلوات الله وسلامه عليه: يختتم خطبته بالاستغفار.

* وكان كثيراً ما يخطب بالقرآن.

* وفى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة قالت: ما أخذت (ق والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقرؤها كل يومْ جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

* وذكر أبو داود أنه كان إذا تشهد قال: (الحمدُ لله نستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسنا. من يَهْدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له. ومن يُضْلِل فلا هادِيَ له، وأشهد أن لا إِلَـهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، أرسلَهُ بالحقِّ بشيراً ونذيراً بين يدى الساعة، من يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقد رَشَدَ، ومن يعصهما[1] فإنه لا يضرُّ إلا نفسَه، ولا يضرُّ اللهَ شيئًا).

* وكان مدار خُطبِه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حمدِ الله والثناء عليه بآلائه، وأوصاف كماله، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجَنة والنار والمعاد والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه.

* وكان يخطب فى كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطَبين ومصلحتهم.

* ولم يكن يخطب خطبة إلا ويتشهد فيها بكلمتى الشهادة ويُذَكِّر نفسه فيها باسمه العَلم.

* وكان يتكئ فى خطبته على عصًا أحيانًا، وعلى قوس أحيانًا، ويقصر الخطبة أحيانًا، ويطيلها أحيانًا بحسب حاجة الناس.

* وكان يخطب للنساء على حدةٍ فى الأعياد، ويحرضهن على الصدقة.

---

(١) (ومن يعصهما): دل هذا على جواز الجمع بين الله ورسوله فى ضمير واحد، ويدل عليه أيضا حديث: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان..) حيث جاء فيه: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم، كما قال: ابن عبد السلام، وقد ذكره السيوطى.

* وكان يقصر الخطبة ويطول الصلاة، وقال: (إن طولَ صلاةِ الرجلِ وقِصَرَ خطبته مئنة من فقهه).

* وكان إذا عرضت له حاجة أو سأله سائل قطع خطبته، وقضى الحاجة أو أجاب السائل، ثم أتمها.

* وكان إذا رأى فى الجماعة فقيراً أو ذا حاجة أمر بالتصدق وحرَّض على ذلك.

* وكان إذا ذكر الله تعالى أشار بالسبابة.

وكان إذا اجتمعت الجماعة خرج للخطبة وحده، ولم يكن بين يديه صاحب ولا خادم، ولم يكن من عادته لبس الطرحة ولا الطيلسان ولا الثوب الأسود المعتاد.

وكان إذا دخل المسجد سلم على الحاضرين لديه، وإذا صعد المنبر أدار وجهه إلى الجماعة وسلم ثانيًا ثم قعد، وإذ ذاك يشرع بلال فى الأذان، وعند فراغه يقوم، فيخطب قائمًا من غير فاصلة بين الأذان والخطبة، ولم يكن يأخذ السيف والحربة بيده، بل كان يعتمد على القوس أو العصا، وذا قبل اتخاذ المنبر، وأما بعد اتخاذ المنبر فلم يحفظ أن اعتمد على العصا ولا على القوس ولا على غير ذلك.

* وكان يجلس بين الخطبتين لحظة، وإذا فرغ من الخطبة أقام بلال الصلاة.

* وكان فى أثناء الخطبة يأمر الناس بالتقرب والإنصات ويقول: (إنَّ الرجلَ إذا قال لصاحبه أَنْصتْ فقد لغا، ومَنْ لغا فلا جمعةَ له) وكان يقول: (مَنْ تكَلَّمَ يومَ الجمعَةِ والإمامُ يخطبُ فهو كَمَثَلِ الحمار يحملُ أسفارًا، والذى

يقول: أنصتْ ليس له جمعةٌ) وقال: (يحضرُ الجمعةَ ثلاثةُ نفر: رجلٌ حضرها بلَغْوٍ فهو حظه منها، ورجلٌ حضرها بدعاء فهو رجلٌ دعا الله، إن شاء أعطاهُ وإن شاءَ منعه، ورجلٌ حضرها بإنصاتٍ وسكون، ولم يتَخَطَّ رقبة مسلم، ولم يُؤْذِ أحدًا فهى له كفارةٌ إلى الجمعةِ التى تليها وزيادةُ ثلاثة أيامٍ، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾(١).

ذكره أبو داود.

وكان إذا فرغ بلال من الأذان شرع صلى الله عليه وسلم فى الخطبة، ولم يقم أحد لصلاة السنة، وبعض العلماء قالوا بسنة الجمعة بالقياس على الظهر، وإثبات السنة بالقياس غير جائز. والعلماء الذين صنفوا فى السنن واعتنوا بضبط سنن الصلاة لم يَرْوُوا فى سنة الجمعة، قبل الصلاة شيئًا، وأما بعد صلاة الجمعة فكان إذا رجع إلى المنزل صلى أربعًا، وإن صلى فى المسجد صلى ركعتين(٢)، وقال: (من كان منكم مُصَلِّيًا بعدَ الجمعةِ فليُصَلِّ بعدها أربعًا)(٣).

رواه مسلم، وأبو داود، والترمذى.

** وإتمامًا للفائدة، إليك ـ أخا الإسلام ـ خطبتين جامعتين من خطب الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة:

* قال ابن هشام فى سيرته: كانت أولُ خطبةٍ خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ـ أنه قام فيهم،

---

(١) سورة الأنعام ـ من الآية: ١٦٠.

(٢) وقال الترمذى فى الجامع: وروى عن ابن مسعود أنه كان يصلى قبل الجمعة أربعا، وبعدها أربعا. اهـ. وإليه ذهب ابن المبارك والثورى.. فالموضوع خلافى فى هذا.. والله أعلم.

(٣) قال ابن القيم: (وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى الجمعة دخل منزله فصلى ركعتين وأمر من صلاها أن يصلى بعدها أربعًا). فقه السنة ج٢ ص ٢٨٢.

فحمدَ اللهَ وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (أما بَعْدُ أيها الناسُ، فقدموا لأنفسكم، تَعلَمُنَّ والله ليُصْعَقَنَّ أحدُكم، ثم لَيَدَعَنَّ غَنَمَهُ ليس لها راعٍ، ثم ليقولَنَّ له ربُّه، وليس له تُرْجُمان(١) ولا حاجب يحجبه دونه: أَلَمْ يأْتكَ رسولى فبلَّغَك، وآتيتُك مالاً وأفضلتُ عليك، فما قدمتَ لنفسك؟ فلينظرنَّ يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا، ثم لينظرنَّ قُدَّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقِىَ وجهَهُ من النارِ ولو بِشِقٍّ من تمرةٍ فليفعلْ، ومن لم يجدْ فبكلمةٍ طيبةٍ، فإنها تجزى الحسنةَ عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته).

وأخرجها أيضا البيقهى.

* وعن على أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم حمد الله وأثنى عليه، وقال:

(أما بعد) أيها الناسُ، كأنَّ الموتَ فيها على غيرنا قد كُتِبَ، وكأن الحقَّ فيها على غيرنا قد وَجَبَ، وكأن الذى نُشَيِّعُ من الأمواتِ سَفْرٌ عمَّا قليل إلينا راجعون، نُبَوِّئُهم أجداثَهم(٢)، ونأكل من تُراثهم كأنَّا مخلدون بعدهم، قد نَسينا كُلَّ واعظةٍ، وأمِنَّا كُلَّ جائحةٍ(٣)، طوبَى لمن شَغَلَه عيبُه عن عيوب الناس، طوبى لمن طاب كَسْبُه، وصَلُحَتْ سريرتُه، وحَسُنَتْ علانيتُه، واستقامت طَوِيَّتُه، طوبى لمن تواضعَ لله فى غير منقصة، وأنفقَ مالاً جمعه فى غير معصيةٍ، وجالَسَ أهلَ الفقه والحكمة، وخالَط أهلَ الذُّل والمسْكَنَة، طوبى لم زَكَتْ نفسُه، وحَسُنَتْ خليقته، وطابتْ سريرتُه، وعَزَلَ عن الناس

(١) الترجمان بضمتين أو فتحتين بينهما سكون، وبفتح فسكون فضم: المفسر.

(٢) جمع جدث، هو القبر، أى تنزلهم مقابرهم.

(٣) الجائحة: أى الآفة المهلكة.

شيء، طوبى لمن أنفقَ الفضلَ من ماله، وأمسك الفضلَ من قولِه ووَسِعَتْه السنة، ولم تستهوِه البدعةُ (وفى رواية)، ولم يَعْدُ عنها إلى البدعةِ)

أخرجه أبو نعيم

وقد ورد بألفاظ متقاربة.

** وأحب بعد ذلك أن أضيف إلى ما وقفنا عليه بعض الملاحظات الهامة التى قرأتها فى الجزء الرابع من (الدين الخالص) والتى ينبغى أن ينتفع بها الأخ (الخطيب) بصفة خاصة، وهى أنه:

* (ينبغى) أن يكون الخطيب مُلما باللغة العربية، خصوصًا علم الإنشاء، ليقتدر على تأليف كلام بليغ ينير به أفئدة السامعين، وأن يكون نبيهًا لا تعزب عنه شاردة ولا واردة، لَسِنًا فَصِيحًا مُعَبِّرًا عما يخطر بباله من المعانى والأسرار.

وأن يكون وجيهًا تهابه القلوب وتعظمه النفوس؛ حتى يكون لكلامه تأثير فيها، ويجد له سميعًا يعى ما يقال ويعمل بما يسمع.

وأن يكون صالحًا ورعًا قنوعًا، غير متجاهر بمعصية ولا مرتكبًا مخالفة، عاملاً بما يقول، فإن ذلك أدعى إلى قبول موعظته والعمل بها.

قال الإمام أبو الأسود الدؤلى رضى الله عنه:

يأيها الرجلُ المُعَلِّمُ غيرَه ... هلاَّ لنفسِك كان ذا التعليمُ
تصفُ الدواءَ لذى السِّقامِ وذى الضنى ... كيما يصحَّ به وأنت سقيمُ
ونراكَ تُصْلِحُ بالرشاد عقولَنا ... أبدًا وأنتَ من الرشاد عديمُ
ابدأ بنفسِك فَانْهَهَا عن غَيِّهَا ... فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ

وهناك يُقْبَلُ ما تقولُ ويُشْتَفَى بالقولِ منكَ ويَنْفَعُ التعليمُ
لاتَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتِيَ مثلَهُ عارٌ عليك - إذا فعلتَ - عظيمُ

(وقد) حذَّر الله تعالى من القول بلا عمل، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ

(وقد) قرأت فى نص حديث قدسى قول الله تبارك وتعالى لسيدنا عيسى عليه السلام:

﴿يا عيسى، عِظ نفسك، فإن اتعظتَ فَعِظِ الناسَ وإلا فاستحى منى﴾.

مكروهات الخطبة

* تغميض الخطيب عينيه، ودقه المنبر بما فى يده من قوس أوعصًا.

قال النووى: هذا باطل لا أصل له، وبدعة قبيحة.

* ويكره رفع يديه حال الدعاء، بل يقتصر على رفع السبابة (لقول) حصين ابن عبد الرحمن السلمى: كنت إلى جنب عُمارة بن رُؤَيبة السلمى وبشر يخطبنا، فلما دعا رفع يديه، فقال عمارة: قَبَّح الله هاتين اليدين أو اليُدَيَّتَين(١)! رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو يخطب إذا دعا يقول هكذا ورفع السبابة وحدها.

أخرجه أحمد، ومسلم، والبيهقى، وأبود داود، والترمذى، والنسائى.

---

(١) سورة الصف - الآيتان: ٢و٣

(٢) بضم ففتح وشد الياء التحتية المفتوحة مُصَغَّرًا.

ويكره دعاء الخطيب إذا صعد بالمنبر قبل جلوسه، وربما توهم بعض جهلة خطباء أنها ساعة إجابة الدعاء...

(قال) النووى فى المجموع:

* (ومنها) أى من مكروهات الخطبة الالتفات فى الخطبة الثانية عند الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم، وهو باطل مكروه.

* (ومنها) المجازفة فى أوصاف السلاطين فى الدعاء لهم وكذبهم فى كثير من ذلك، كقولهم: السلطان العالم العادل ونحوه.

* (ومنها) مبالغتهم فى الإسراع فى الخطبة الثانية وخفض الصوت بها. اهـ.

* (ويكره) للخطيب التكلم حال الخطبة بكلام دنيوى، كما فى الأذان والإقامه بل أولى.

* (ويكره) له الإتيان بالكلمات المشتركة والألفاظ البعيدة عن أفهام السامعين (لقول) علىٍّ رضى الله عنه: حَدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه؟

أخرجه البخارى فى كتاب العلم.

(حَدِّثوا..) إلخ، أى كَلِّموا الناس على قدر عقولهم (ويُكذَّب) بفتح الذال مشددة، أى أن الشخص إذا سمع ما لم يفهمه منسوبًا إلى الله ورسوله فلا يصدقه ويلزمه تكذيبهما.

(وقد قال) بعض الفضلاء: أبلغ الخطب ما وافق الزمان والمكان والحال، ففى زمن رمضان مثلاً يبين الخطيب للناس حكمه وأحكامه والمقصود منه، وينهاهم عن البدع التى تحدث فيه مبينًا ضررها، وفى عيد الفطر يبين أحكام صدقة الفطر ولا يحسن به أن يستبدل بها بيان أحكام الأضحية أو غير ذلك

ويتركها بتاتًا، وفى مكان تفرق أهله يخطب بالاتحاد، وإذا تكاسلوا عن طلب العلم حثهم عليه، وإذا أهملوا تربية أبنائهم حثهم أيضًا عليه، إلى غير ذلك مما يوافق أحوالهم، ويلائم مشاربهم ويناسب طباعهم، يخطب فى كل مكان بحسبه مراعيًا أحوال العالم، بصيرًا بمقترفاتهم الحاصلة فى خلال الأسبوع، فينهاهم عنها، وينبههم عليها متى رقى منبر الخطابة؛ عسى أن يهتدوا طريقًا قويمًا. اهـ.

الخاصيات التي اختص بها الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة

* للعلماء فى يوم الجمعة ويوم عرفة قولان: بعضهم قال: إن يوم الجمعة أفضل، وبعضهم قال: إن يوم عرفة هو الأفضل.

* وقد كان صلى الله عليه وسلم يعظم يوم الجمعة ويخصه بخاصيات عظيمة؛ تشريفا له وتكريما، إليك ـ أخا الإسلام ـ بعضا منها:

* (**الخاصية الأولى**): أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى صلاة الصبح من يوم الجمعة سورة السجدة، و﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾(1)....

والمراد تذكير الأمة بما اشتملتا عليه مما كان وما يكون؛ لما فيهما من خلق آدم عليه الصلاة والسلام، وذكر المعاد، وحشر الخلائق، وأحوالهم فى الجنة والنار، وليس المراد تخصيص هذا اليوم بالسجدة كما ظنوا. وقالوا: إن من لم يتهيأ له قراءتهما فليقرأ بعض سورة تشتمل على سجدة، أو ليقرأ فى الأولى بعض سورة السجدة وفى الأخرى باقيها، وإنما نشأ لهم هذا من عدم اطلاعهم على سر ما قُرِئتا له فى هذا اليوم، وقراءتهما فى صلاة الصبح من خواص الجمعة.

---

(1) المراد أنه كان يقرأ سورة الإنسان بأكملها.

* (الخاصية الثالثة عشرة): أنها عيد الأُمَّة يكرر فى كل أسبوع، وروى ابن ماجه فى مسنده عن أبى لبابة يرفعه أن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها وهو عند الله أعظم من يوم الأضحى ويوم الفطر، فيه خمس خلال: خلق الله عز وجل آدم فيه، وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض، وفيه تُوفى آدم، وفيه ساعة لا يَسأل اللهَ العبدُ فيها شيئًا إلا أعطاه، ما لم يكن حرامًا، وفيه تقوم الساعة، ما من مَلك مُقَرَّبٍ ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا شجر إلا وهُنَّ يشفقن من يوم الجمعة.

* (الخاصة الرابعة عشرة): استحباب لبس أحسن ثوب تصل القدرة إليه وأجوده.

ثبت فى مسند الإمام أحمد: (مَنِ اغتسلَ يومَ الجمعة، ومسَّ من طيبٍ إن كانَ له، ولبس من أحسن ثيابِه، ثم خرجَ وعليه السكينَةُ حتى يأتَى المسجدَ، فيركع إن بدا له ولم يُؤْذِ أحدًا، ثم أنصتَ إذا خرجَ إمامُه حتى يصلى - كانت كفارة لما بينهما).

وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن سلام أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر فى يوم الجمعة: (ما على أحدِكم لو اشترى ثوبين ليومِ الجمعةِ سوى ثوبى مهنته؟).

* (الخاصية الخامسة عشرة): استحباب تجمير المسجد بإحراق العود واستعمال الطيب.

أمر أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه بتجمير المسجد فى كل جمعة.

* (الخاصية السادسة عشرة): تحريم إنشاء السفر فى يوم الجمعة بعد دخول الوقت على مَن لزمته الجمعة، وهذا مذهب جماهير العلماء، وعند أبى حنيفة يجوز، لكن نقل السروجى فى شرح الهداية عن أبى حنيفة كراهة ذلك، وأما مذهب الشافعى فيحرم من قبل الزوال أيضا، لما روى

الدارقطنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ سافرَ مِنْ دارِ إقامته يوم الجمعة دعت عليه الملائكةُ ألا يُصْحَبَ فى سفره) وقال حسان بن عطية: إذا سافر الرجل يوم الجمعة: دعا عليه النهارُ ألا يُعانَ على حاجة، ولا يُصَاحَب فى سفره.

* (الخاصيه السابعة عشرة): هى أن مَن مشى إلى صلاة الجمعة كُتب له بكل خطوة ثواب صيام سنة، وفى مسند الإمام أحمد، ومسند عبد الرزاق (من غسل واغتسل يوم الجمعة: وبكر وابتكر[1] ودنا من الإمام وأنصت كان له بكل خطوة يخطوها صيام سنة وقيامها، وذلكِ على الله يسير).

* (الخاصية الثامنة عشرة): هى أن هذا اليوم مكفر للسيئات، روى سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرى ما يومُ الجمعة؟ قلت: هو اليومُ الذى جمعَ الله فيه أباكم، قال: لكنى أدرى ما يومُ الجمعة، لا يَتَطَهَّرُ الرجل فيحسن طهوره، ثم يأتى الجمعةَ، فينصت حتى يَقْضِىَ الإمامُ الصلاةَ إلا كان كفارةً لما بينه وبين الجمعةِ المقبلة)

ورد فى هذا المعنى أحاديث كثيرة.

* (الخاصية التاسعة عشرة): هى أن جهنم تضرم فى كل يوم عند منتصف النهار إلا فى يوم الجمعة؛ لأنه أفضل الأيام، والعبادات والطاعات فيه أزيد من سائر الأيام. والمعاصى فيه أقل، وكثير من أهل الفجور المتوغلين فى الآثام يجتنبون المعاصى فى يوم الجمعة وليلتها بالكلية، وهذا كأنه معنى الحديث الذى يشير إلى أن جهنم لا تضرم فى هذا اليوم.

* (الخاصية العشرون): هى أن فى هذا اليوم ساعة إجابة لا يوافقها مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله عز وجل شيئًا إلا أعطاه إياه، وقال بيده يقللها).

---

(١) فى الصحاح قالوا: بكر أى أسرع، وابتكر أى أدرك الخطبة من أولها، وهو من الباكورة.

** وللعلماء فى هذه الساعة خلاف على قولين:

(قال) بعضهم: ليست بباقية، بل ارتفعت فى زمان الرسول صلى الله عليه وسلم.

(القول الثانى): هو الصحيح، أنها باقية، وفى تَعَيُّنِ وقتها خلاف: هل هى فى وقت معين من يوم الجمعة أو ليس لها وقت معين من يوم الجمعة؟...

** وأرجح الأقوال قولان:

(القول الأول) من حين يجلس الإمام على المنبر إلى أن تتم الصلاة، ودليل ذا فى الحديث الصحيح هى ما بين أن يجلس الإمام على المنبر إلى أن تقضى الصلاة.

(القول الثانى) أنها بعد العصر، وذا أرجح الأقوال، ودليله الحديث الصحيح إن فى يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، وهى بعد العصر).

وفى سنن أبى داود والنسائى من رواية جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (يومُ الجمعة اثنتا عشرةَ ساعةً، فيها ساعةٌ لا يُوجَدُ مسلمٌ يَسألُ اللهَ فيها شيئًا إلا أعطاه إيَّاه، فالتمسوها فى آخر ساعةٍ بعدَ العصرِ)

وفى سنن سعيد بن منصور (أن جماعة من الصحابة اجتمعوا وبحثوا فى هذه الساعة من يوم الجمعة)

وفى سنن ابن ماجه عن عبد الله بن سلام قال: قلتُ - ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس - إنَّا لَنَجدُ فى كتابِ الله ساعةً فى يومِ الجمعة لا يوافقُها عبدٌ مؤمنٌ يُصلى ويسألُ اللهَ فيها شيئًا إلا قَضَى له حاجتَه، قال عبد

الله: فأشار إلىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بعضَ ساعة، فقلتُ: صدقتَ يا رسولَ الله، أو بعضَ ساعة، فقلت: أيَّةُ ساعةٍ هى؟ قال: «آخرُ ساعة من ساعات النهار»، قلت: إنها ليست ساعةَ صلاة، قال: «بلى، إن العبدَ المؤمن إذا صلى، ثم يجلس لا يُجْلِسُه إلا الصلاةُ فهو فى الصلاة».

وفى مسند الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قيل للنبى صلى الله عليه وسلم: (لأى شىء سُمِّىَ يومُ الجمعة؟ قال: لأن فيها طُبِعت طينةُ أبيك آدم، وفيها الصعقةُ، البعثُ، وفيها البطشةُ، وفى آخر ثلاث ساعاتٍ منها ساعةٌ مَن دعا الله فيها استُجِيب له).

* (الخاصية الحادية والعشرون): هى أن للصدقة فى هذا اليوم مزية على الصدقة فى سائر الأيام.

* (الخاصية الثانية والعشرون): هى أن صلاة الجمعة مقرونة بالخطبة، مشروطة بشرائط ليست لغيرها، مثل اشتراط الإقامة والاستيطان والجهر بالقراءة وغير ذلك.

* (الخاصية الثالثة والعشرون): هى أن يوم الجمعة يوم يُستحب فيه التفرغ للعبادة، ومزيته على سائر الأيام كمزية شهر رمضان على سائر الشهور، وهو مخصوص بعبادات واجبة ومستحبة، وكما أن لأهل كل ملة يومًا متعينًا للتفرغ للعبادات والتخلى عن الأشغال الدنيوية كذلك تعين يوم الجمعة لهذه الأمة المعصومة.

وساعة الإجابة فى هذا اليوم كليلة القدر فى شهر رمضان، ومن هذه الجهة قال العلماء: من حصل له فى يوم الجمعة السلامة من الآثام سلم فى الأسبوع، ومن سلم فى شهر رمضان من الآثام سلم فى بقية العام، ومن حصل له حج بيت الله الحرام وسلم من المخالفات سلم فى جميع العمر.

فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، وشهر رمضان ميزان السنة، وحج بيت الله الحرام ميزان العمر.

* **(الخاصية الرابعة والعشرون)**: لما كان يوم الجمعة فى الأسبوع كيوم العيد فى السنة، والعيد يشتمل على الصلاة والقربان، والجمعة تشتمل على الصلاة - جعل الحق جل شأنه التبكير إلى المسجد بدل القربان وقائمًا مقامه، وفى الحديث الصحيح: (من راحَ فى الساعةِ الأولى فكأنَّما قَرَّب بدنةً، ومن راح فى الساعةِ الثانية فكانما قرَّب بقرةً، ومن راح فى الساعةِ الثالثةِ فكأنما قرَّب كبشًا، ومن راح فى الساعةِ الرابعة فكأنما قرب دجاجة).

وفى هذه الساعات اختلاف حملها بعض العلماء على الساعات الفلكية، وقال باستحباب التبكير بعد طلوع الشمس، وذا مذهب الشافعىٰ وأكثر العلماء، وحملها البعض على الساعات العرفية، وهى أجزاء لطيفة من بعد الزوال، وذا مذهب الإمام مالك، وطائفة من أهل المدينة.

* **(الخاصية الخامسة والعشرون)**: أنه يوم تجلى الحق جل شأنه على عبيده فى الجنة.

* **(الخاصية السادسة والعشرون)**: هى أن الله أقسم بهذا اليوم من بين سائر الأيام، قال الله تعالى: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾(١)، قال صلى الله عليه وسلم: اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود هو يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، ما طلعت الشمس ولا غربت على أفضل من يوم الجمعة، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب له أو يستعيذه من شر إلا أعاذه منه.

---

(١) سورة البروج: ٣.

* (**الخاصية السابعة والعشرون**): هى أن السمٰوات والأرضين والجبال والبحار، والخلائق كلها غير بنى آدم والشياطين - يخافون من يوم الجمعة، قال كعب الأحبار: ألا أُحَدِّثكمْ عن يوم الجمعة، إنه إذا كان يوم الجمعة فزعت له السموات والأرض والجبال والبحور والخلائق كلها إلا ابن آدم والشياطين.

* (**الخاصية الثامنة والعشرون**): أنه يوم ادخره الحق سبحانه لهذه الأمة المرحومة فَضَلَّت عنه جميع الأمم، قال صلى الله عليه وسلم: (يومٌ ادَّخَرَهُ الله لنا)، وقال: (ما طَلُعَت الشمسُ ولا غَرَبَتْ على يومٍ خيرٍ من يومِ الجمعةِ، هدانا الله له وأضلَّ الناسَ عنه، فالناس لنا فيه تبع) الحديث.

* (**الخاصية التاسعة والعشرون**): هى أن هذا اليوم خيره الله من الأيام كما اختار رمضان من الشهور، وليلَة القدر من الليالى، ومكة من القرى.

قال كعب: إن الله عز وجل اختار الشهور، فاختار شهر رمضان، واختار الأيام فاختار يوم الجمعة، واختار الليالى فاختار ليلة القدر.

* (**الخاصية الثلاثون**): هى أن أرواح المؤمنين فى يوم الجمعة تقرب من قبورهم، ويعرفون من يزورهم فيه فضل معرفة على سائر الأيام.

* (**الخاصية الحادية والثلاثون**): كراهة صوم هذا اليوم على انفراده عند أكثر العلماء، قال محمد بن عباد: سألت جابراً: أَنَهَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن صومِ يوم الجمعةِ؟ قال: نعم وربِّ هذه البنية، وفى الصحيحين: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يَصُومَنَّ أحدُكم يومَ الجمعةِ إلا يومًا قبلَه أو يومًا بعدَه) اللفظ للبخارى، ولمسلم: (لا تَخُصُّوا يومَ الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكونَ فى صومٍ يصومُه أحدُكم).

وعن جويرية بنت الحارث أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوم جمعة وهى صائمة، فقال: (أصمتِ أمس؟ قالت: لا، قال: تريدين أن تصومى غدًا؟ قالت: لا، قال: فأفطرى) وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تصوموا يومَ الجمعةِ وحدَهُ، وقال: يومُ الجمعةِ يومُ عيدِكم، يومُ صيامِكم إلا أن تصوموا قبله أو بعده).

* (الخاصية الثانية والثلاثون): اختصاص هذا اليوم باجتماع المؤمنين للموعظة والتذكير.

وإتمامًا للفائدة كذلك - أيها الأخ المسلم - إليك:

أهم عاداته صلى الله عليه وسلم فى صلاة العيد

* فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يصلى العيدين فى المصلى الذى على باب المدينة(١) الشرقى، فيلبس للخروج إليهما أجمل ثيابه، وكان له حلة فاخرة يلبسها فى العيدين والجمعة، وفى بعض الأحيان كان يلبس بردًا مخططًا بخطوط خضر، أو بخطوط حمر.

* وكان يأكل قبل الخروج إلى مصلى عيد الفطر تمرات عددهن وتر، وأما فى عيد الأضحى فكان لا يَطْعَمُ حتى يرجع فيأكل من أضحيته.

* وكان يغتسل للعيد، وقد ورد فى هذا الباب حديثان، وكلاهما ضعيف، لكن صح عن ابن عمر أنه كان يغتسل لكل عيد، وشدة مبالغته فى متابعة السنة تقتضى أن الحديث فى هذا الباب صحيح.

* وكان يسير إلى المصلى ماشيًا وتحمل بين يديه العنزة - وهى عصًا قدر نصف الرمح توضع أمام المصلى - فإذا بلغ المصلى نُصِبَتْ تجاهه؛ لأن المصلى لم يكن إذ ذاك جدار ولا محراب.

---

(١) وصلى العيد مرة فى المسجد لسبب المطر.

* وكان يؤخر صلاة الفطر، ويعجل صلاة الأضحى.

* وكان إذا انتهى إلى المصلى أخذ فى الصلاة من غير أذان ولا إقامة، ولا يقول: الصلاة جامعة ولا غير ذلك. والسنة ألا يكون شيء من هذا. فيصلى ركعتين، يكبر فى الأولى سبع تكبيرات متتابعات(١) يفصل بين كل تكبيرتين بسكتة خفيفة ولا يحفظ عنه ذكر معين بين التكبيرات، ولكن ذكر عن ابن مسعود أنه كان يحمد الله ويثنى عليه، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم.

* وكان إذا أتم التكبير أخذ يقرأ الفاتحة، ثم سورة (ق والقرآن المجيد) وربما قرأ: (سبح اسم ربك الأعلى) ثم يكبر ويركع، فإذا فرغ من السجود قام فكبر خمسًا متوالية(٢)، ثم قرأ الفاتحة، ثم سورة (اقتربت الساعة وانشق القمر) وربما قرأ: (هل أتاك حديث الغاشية) ولم يصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بعد الفاتحة غير هذا، ولم يثبت أنه قرأ قبل التكبير، بل إن التكبير كان أول ما يبدأ به فى الركعتين. وقد روى الترمذى من حديث كثير ابن عبد الله أنه صلى الله عليه وسلم كَبَّر فى العيدين فى الأولى سبعًا قبل القراءة، وفى الثانية خمسًا قبل القراءة، وقال سألت محمدًا - يعنى البخارى - عن هذا الحديث، فقال: ليس فى الباب أصح من هذا، وبه أقول.

* وكان إذا فرغ من الصلاة قام وخطب قائمًا، ولم يك ثَمَّ منبر، لكن ورد فى الحديث الصحيح: (فنزل نبيُّ الله) وهذا يدل على أنه كان يخطب على تل أو صفة أو مكان عال يقوم مقام المنبر، وروى فى بعض الأحاديث على راحلته.

---

(١) سوى تكبيرة الأحرام.

(٢) سوى تكبيرة القيام من الركعة الأولى.

وفى الصحيحين عن جابر قال: شهدتُ مع رسولِ الله صلى الله عليه الصلاةَ يومَ العيدِ، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بلا أذان ولاَ إقامة، ثم قام مُتوكِّئًا على بلال، فأمر بتقوى الله وحث على طاعته ووعظ الناس وذكرهم، ثم مضى حتى أتى النساء، فوعظهن وذكَّرهن، وفى لفظ: تصدقوا، فأكثر من تصدق النساء بالقرط والخاتم والشىء، فإن كان له حاجة أو يريد أن يبعث بعثًا يذكره لهم، وإلا انصرف.

* وكان يفتتح جميع الخطب بحمد الله، ولم يرد فى حديث أنه كان يفتتح خطبة العيد بالتكبير، وفى سنن ابن ماجه مروى عن سعد مؤذن النبى صلى الله عليه وسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يكثر التكبير بين أضعاف الخطبة، وفى لفظ يكثر التكبير فى خطبة العيدين، وهذا لا يدل على أن الافتتاح كان بالتكبير. والله أعلم.

* ورخص لمن شهد العيد أن يجلس للخطبة، وأن يذهب، ورخص لهم إذا وقع العيد يوم الجمعة أن يكتفوا بصلاة العيد عن حضور الجمعة، ولم يكن من هديه صلاة شىء قبل العيد ولا بعده.

* وكان يذهب إلى صلاة العيدين من طريق، ويأتى من طريق أخرى وقالوا: السر فى ذلك أن يسلم على أهل الطريقين، أو لتشمل بركته الطريقين، أو ليظهر شعار الإسلام فى الطريقين، أو ليغتم أهل النفاق بمشاهدة عزة الإسلام ورفعة أعلامه، أو لتشهد بطاعته البقاع المختلفة والمواضع المتفرقة، أو لمجموع ذلك، أو لأسرار أُخر تقصر عنها عقول أكثر الخلق.

* وكان يُكبِّر فى الأضحى من صلاة الفجر يوم عرفة إلى العصر من أيام التشريق)[1]: الله أكبرُ، الله أكبرُ، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

---

(١) وهى الأيام الحادى والثانى والثالث عشر من شهر ذى الحجة.

هديه صلى الله عليه وسلم فى معاشرة أهله

* فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث أنس أنه قال لأصحابه ذات يوم:

(حُبِّبَ إلىَّ من دنياكم: النساءُ، والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عينى فى الصلاةِ)

* وكان يطوف على نسائه فى الليلة الواحدة، وكان يقسم بينهن فى المبيت والإيواء والنفقة،

* وأما المحبة، فكان يقول:

(اللهم هذا قَسَمى فيما أملك، فلا تَلُمْنى فيما لا أَمْلِكُ)

* وطلق وراجع، وآلَى إيلاء مؤقتًا بشهر، ولم يظاهر أبدًا.

* وكان مع أزواجه حسن المعاشرة، وحسن الخلق، كان يسرب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها، وإذا هويت شيئًا لا محذور فيه تابعها عليه، وإذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه فى موضع فمها وشرب، وكان يتكئ فى حجرها، ويقرأ القرآن ورأسه فى حجرها، وربما كانت حائضًا، وكان يأمرها وهى حائض فتتزر[1] ثم يباشرها، وكان يُقَبِّلُها وهو صائم، ويريها الحبشة وهم يلعبون فى مسجده وهى متكئة على منكبيه تنظر، وسابقها فى السفر على الأقدام مرتين، وتدافعا فى خروجهما من المنزل.

---

(١) أى تشد الإزار.

* وكان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

* وكان يقول: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي).

* وكان ربما مد يده إلى بعض نسائه في حضرة باقيهن.

* وكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدنا منهن، واستقرأ أحوالهن، فإذا جاء الليل انقلب إلى بيت صاحبة النوبة، فخصها بالليل.

* قالت عائشة: كان لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندهن في القسم. وكان يقسم لثمانٍ منهن دون التاسعة وهي (سودة) لما كبرت وهبت نوبتها لعائشة، وكان صلى الله عليه وسلم يقسم لعائشة يومها ويوم سودة.

* وكان يأتي أهله آخر الليل وأوله، وإذا جامع أول الليل فربما اغتسل ونام، وربما توضأ ونام، وكان يطوف على نسائه بغسل واحد، وربما اغتسل عند كل واحدة.

وكان إذا سافر وقدم لم يطرق أهله ليلاً، وينهى عن ذلك.

** فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ كل هذا؛ حتى يحسن معاشرة أهله؛ اقتداء بالمثل الأعلى صلوات الله وسلامه عليه؛ وذلك حتى تتحقق المودة والرحمة المشار إليهما في قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً .. ﴾(١).

** وهناك فصل آخر، قرأته كذلك في زاد المعاد، حول:

(١) سورة الروم - من الآية: ٢١.

أرجو أن تستفيد به كذلك؛ حتى تحافظ على (مَنيِّك) كما ينصحك أحدهم فى قوله:

احفظ مَنِيَّكَ ما استطعت فإنه ماءُ الحياةِ يُصَبُّ فى الأرحَام

مع ملاحظة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان الله تعالى قد أكرمه بقوة ثلاثين رجلاً من الأقوياء.

* فكان هديه صلى الله عليه وسلم أكمل هدى يحفظ به الصحة، ويتم به اللذة، وسرور النفس، ويحصل به مقاصده التى وضع لأجلها؛ فإن الجماع وضع فى الأصل لثلاثة أمور هى مقاصده الأصلية:

الأول: حفظ النسل ودوام النوع إلى أن تتكامل العدة التى قدر الله بروزها إلى هذا العالم.

الثانى: إخراج الماء الذى يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن.

الثالث: قضاء الوطر، ونيل اللذة، والتمتع بالنعمة. وهذه وحدها هى الفائدة التى فى الجنة، إذْ لا تناسل هناك ولا احتقان .

وفضلاء الأطباء يرون أن الجماع أحد أسباب حفظ الصحة؛ لأن المنى إن دام احتقانه أحدث أمراضًا رديئة.

وقد حَثَّ النبى صلى الله عليه وسلم على التزويج أمته، فقال: (تَزَوَّجُوا فإنِّى مُكاثِرٌ بكم الأمم) وقال ابن عباس: «خيرُ هذه الأمة أكثرُها نساءً» وقال صلى الله عليه وسلم: (يا معشرَ الشبابِ مَنِ استطاعَ منكمُ الباءةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛

وَمَا رَدَّ طِيِّبًا قط، وقال: (مَنْ عُرِضَ عليه شيءٌ من الرياحين فلا يَرُدَّهُ؛ لأنه طيب ولا مُؤْنَةَ فيه) وهو فى صحيح مسلم.

والرائحة الطيبة هى غذاء للروح، والروح مطية القوى، والقوى تزداد بالطيب، وهو يقوى الدماغ والقلب وسائر الأعضاء الباطنة ويفرح القلب ويسره.

وفى مسند البزار أنه صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ اللهَ طَيِّبٌ يُحبُّ الطيبَ، نظيفٌ يحب النظافةَ، كريمٌ يحب الكَرَمَ،جوادٌ يحب الجُودَ. فَنَظِّفُوا أفناءَكم وساحاتِكم، ولا تَشَبَّهُوا باليهودِ يجمعون أكباءَهم فى دورِهم) الأكباء: الأرواث والزبالة، وثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ لله حقا على كُلِّ مسلمٍ أن يغتسلَ فى كل سبعةِ أيامٍ، وإن كان له طيب أن يَمَسَّ منه).

** وهناك موضوع من أخطر المواضيع التى ينبغى علينا أن نقف عليها وعلى أسرارها. وهو السر فى:

تعدد أزواج النبى صلى الله عليه وسلم

وذلك حتى نكون على الأقل من المدافعين عن هذا الرسول العظيم، إذا ما أراد أحد المجرمين تشويه صورته أو سيرته صلوات الله وسلامه عليه. بإثارته لهذا الموضوع بالذات.

فأقول للأخ المسلم: إليك هذا التلخيص الكافى والشافى الذى قرأته لفضيلة الشيخ محمد الغزالى ـ أكرمه الله تعالى ـ فى كتابه (فقه السيرة) حيث يقول حول هذا الموضوع، ما خلاصته:

فقد بدأ فضيلته ـ حديثه ـ بالإشارة إلى (تعدد الزوجات) بصفة عامة فقال:

وبه غضٌ للبصرِ وأحْصَنُ للفَرْجِ، ومَنْ لم يَسْتَطِعْ فعليه بالصوم فإنه له وجاءٌ)

(أي وقاية وحفظ من الوقوع فى الزنى المهلك)

* وكان صلى الله عليه وسلم يحض أمته على نكاح الأبكار الحسان وذوات الدين. وأنفع الجماع ما حصل بعد هضم وعند اعتدال البدن فى حره وبرده، ولا يكون البدن ممتلئًا ولا خلواً، وضرره عند امتلاء البدن أسهل، ولا يجامع إلا إذا اشتدت الشهوة، وحصل الانتشار التام الذى ليس عن تكلف ولا فكر فى صورة.

وليحذر جماع العجوز، والصغيرة التى لا توطأ مثلها ولا شهوة لها، والمريضة، والقبيحة المنظر والبغيضة؛ فوطء هؤلاء يوهن القوى ويُضعف الجماع.

وجماع البكر أنفع وأحفظ فى الصحة من جماع الثيب.

وجماع الحائض حرام طبعًا وشرعًا؛ فإنه مُضِرٌّ جدا، والأطباء قاطبة تحذر منه.

وأما الوطء فى الدُّبُر(١) فلم يُبَحْ قط على لسان نبى من الأنبياء، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى المرأةَ فى دُبُرِهَا)

رواه أبو داود فى سننه. وفى لفظ للبيهقى: (مَنْ أَتَى شيئًا مِن الرجالِ والنساءِ فى الأدبارِ فقد كَفَرَ) والله أعلم.

وقد أمر صلى الله عليه وسلم فى حفظ الصحة باستعمال الطيب، وكثيراً ما كان يستعمله، وكان له ظرف خاص بالعطر والطيب منه يستعمل الطيب،

---

(١) أى فى دبر المرأة، دون الفرج.

أثار بعض الكاتبين غبارًا حول مبدأ تعدد الزوجات وحاولوا تقييد ما أباحه الإسلام من ذلك أو منعه، محتجين تارة بأن الإسلام لم تثبت فيه هذه الإباحة بصورة حاسمة، وتارة أخرى بأن تطور الحياة وصالح الجماعة يقتضيان أن يكتفى الرجل بامرأة واحدة لا يعدوها، وحسبه أن يوفق فى رعايتها وكفالة أولاده منها. . !

ولا شك أن هذه الأفكار تولدت فى بيئاتنا نتيجة عوامل شَتَّى تحتاج إلى حسن النظر وقوة الرد. ومنذ سنين حاول خصوم التعدد أن يَستَصدروا قانونًا بذلك، ثم توقفت محاولاتهم أمام غضب العلماء وهياج الجماعات المشتغلة بالشئون الإسلامية.

ثم يشير بعد ذلك إلى ما كتبه آنئذ حول هذا الموضوع، وهو أنه قال: (١).

للحياة قوانين عمرانية واقتصادية ثابتة، تفرض نفسها على الناس حتما، سواء عرفوها فاستعدوا لمواجهتها، أم جهلوها فظهرت بينهم آثارها.

وصلة الرجل الفرد بعدد من النساء من الأمور التى تبت فيها الأحوال الاجتماعية ويعتبر تجاهلها مقاومة عابثة للأمر الواقع.

وذلك أن النسبة بين عدد الرجال والنساء إما أن تكون متساوية، وإما راجحة فى إحدى الناحيتين: فإذا كانت متساوية أو كان عدد النساء أقل فإن تعدد الزوجات لابد أن يختفى من تلقاء نفسه، وستفرض الطبيعة توزيعها العادل قسرًا، ويكتفى كل امرئ طوعًا أو كرهًا بما عنده.

أما إذا كان عدد النساء أربى من عدد الرجال، فنحن بين واحد من ثلاثة:

إما أن نقضى على بعضهن بالحرمان حتى الموت.

---

(١) فى مجلة الإخوان المسلمين ٣ من شعبان ١٣٦٤هـ العدد ٦٣.

* وإما أن نبيح اتخاذ الخليلات، ونُقر جريمة الزنى.

* وإما أن نسمح بتعدد الزوجات.

** ونظن أن المرأة - قبل الرجل - تأبى حياة الحرمان، وتأبى فراش الجريمة والعصيان.

فلم يبق أمامها إلا أن تَشركَ غيرها فى رجل يحتصنها وينتسب إليه أولادها، ولا مناص بعدئذ من الاعتراف بمبدأ التعدد الذى صرح به الإسلام..

* ثم إن هناك اختلافًا كبيرًا بين أنصبة الرجال من الحساسية الجنسية، فهناك رجال أُوتُوا حظًا من كمال الصحة ويقظة الغريزة، ونعومة العيش لم يؤته غيرهم، والمساواة بين رجل بارد المشاعر فى نشأته، وآخر قريب الاستثارة واسع الطاقة أمر بعيد عن العدالة! ألسنا نبيح لذوى الشهية المتطلعة مقادير من الطعام لا نبيحها للممعودين والضعفاء؟ فهذه بتلك.

وثَمَّ حكمة أخرى: قد تكون الزوجة على حال من الضعف أو المرض أو العقم أو تأخر السن، فلماذا تترك لهذه الأعذار؟ إن من حق العشرة القديمة أن تبقى فى كنف الرجل، وأن تأتى إلى جانبها امرأة تؤدى وظيفة الزوجة أداء كاملاً... ثم يقول:

* ومع المبررات الكثيرة للتعدد فإن الإسلام الذى أباحه رفض رفضًا باتا أن يجعله امتدادًا لشهوات بعض الرجال وميلهم إلى المزيد من التمتع والتسلط.

* فالغرم على قدر الغُنم، والمتع الميسَّرة تتبعها حقوق ثقيلة؛ من ثَمَّ فلا بد عند التعدد من تيقن العدالة التى تحرسه. أما إذا ظلم الرجل نفسه أو أولاده أو زوجاته فلا تعدد هناك.

الذى يعدد يجب أن يكون قادرًا على النفقة اللازمة. وإذا كان الشارع يعتبر العجز عن النفقة عذرًا عن الاقتران بواحدة ـ فهو من باب أولى مانع من الزواج بما فوقها. إن الشارع يوصى الشاب الأعزب بالصيام ما دام لا يستطيع الزواج، ويأمر العاجز عن الواحدة بالاستعفاف:

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ..﴾(1).

فكيف الحال لَمن عنده واحدة؟ إنه بالصبر أحق، وبالاستعفاف أولى.

وكثرة الأولاد تتبع عادة كثرة الزوجات، والإسلام يوجب رعاية العدل مع الأولاد فى التربية ووسائل المعيشة مهما اختلفت أمهاتهم. وفى الأثر: (لعن اللهُ مَنِ استَعَقَّ أولادَه) أى من كان سببًا فى عقوق ولده ـ فعلى الأب المكثر أن يحذر عقبى الميل مع الهوى.

* وكذلك يوجب الإسلام العدل مع الزوجات. ولئن كان الميل القلبى أعصى من أن يتحكم فيه إنسان فإن هناك من الأعمال والأحوال ما يستطيع كل زوج فيه أن يرعى الحدود المشروعة، وأن يزن تصرفه بالقسط، وأن يخشى الله فيما استرعاه من أهل ومال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن اللهَ سائلٌ كلَّ امرئٍ عما استَرْعاهُ حَفِظَ ذلك أم ضَيَّعَهُ)؟ (بِحَسْبِ امْرِئٍ من الإثم أن يُضيِّعَ مَنْ يَعُول)... ثم يقول:

تلك حدود العدل الذى قرنه الله بالتعدد، فمن استطاع النهوض بأعبائها فليتزوج مثنى وثلاث ورباع. وإلا فليكتف بقرينته الفذة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾(2).

---

(1) سورة النور ـ من الآية: ٣٣.

(2) سورة النساء ـ من الآية: ٣.

إلى أن يقول بعد هذا مشيراً إلى نظرة الكثيرين إلى العدد على أنه منكر:

وفى طبقات كثيرة الآن ينظر إلى التعدد على أنه منكر! وإلى الزنى على أنه مسلاة تافهة! أى أن المشكلة الآن مشكلة الدين كله والأخلاق كلها، وتقييد التعدد ـ والحالة هذه ـ محاولة سمجة لتلويث المجتمع على حساب الإسلام وباسم القانون.

إن جمهوراً كبيراً من النبيين والصالحين تزوج بواحدة، وبأكثر من واحدة، ولم يخدش ذلك تقواه. وفى صحف العهد القديم الموجودة الآن ما يؤيد ذلك.

* والإسلام لا يرى التبتل عن النساء عبادة ـ كما يفعل الرهبان ـ ولا الزواج بأربع معصية ـ كما ينسب إلى النصرانية. إنما المعصية فى ترك الغريز الجنسية تتنزى كيف تشاء، أو فى كبتها لتتسرب وراء وراء كما تتسرب المياه الجوفية تحت أديم الغبراء..!!

ثم ينتقل بعد ذلك إلى موضوعنا الأساسى الذى ندور حوله، وهو السر أو الحكمة فى تعدد أزواج النبى صلى الله عليه وسلم، فيقول:

والمحفوظ من سيرة نبى الإسلام أنه تزوج بالسيدة خديجة وهو فى الخامس والعشرين من عمره، وكانت هى فى سن الإربعين، وظل معها وحدها لا يضم إليها أخرى حتى تجاوزت السيدة الفضلى الخامسة والستين، وماتت وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فوق الخمسين.

ولم يجرؤ أحد من أشد خصومه لدداً أن ينسب إليه دنساً، أو يتهمه بريبة فى هذه الفترة الخصيبة الرحبة من عمر الإنسان، كان رونق العفاف والشرف يتألق فى جبينه حيث سار، ولو أنه أحب التزوج بأخرى ما عاقه مانع من

شرع أو عقل أو عادة، فإن التعدد كان مألوفًا بين العرب، معروفًا فى ديانة نبى الأنبياء إبراهيم. إلا أنه ظل مكتفيًا بمن استراح إليها واطمأن بصحبتها، ولو أنها طعنت فى السن، وبقى هو فى كمال قوته وتمام رجولته، ولهذا المسلك دلالته القاطعة.

فلما انتقلت خديجة، وأحب النبى أن يتزوج لم يكن البحث عن الجمال فى مظانه هو الباعث له على تخيُّر شريكته فى حياته، أو شريكاته ـ ولو قد فعل ذلك ما تعرض للوم ـ بيد أن الباعث الأول كان الارتباط بالرجال الذين آزروه فى دعوته وعاونوه فى رسالته، فاختار **عائشة بنت أبى بكر** على صغر سنها، واختار **حفصة بنت عمر** على قلة وسامتها..

ثم اختار **أم سلمة** أرملة قائده الذى استشهد فى سبيل الله، وعانت امرأته ما عانت فى الهجرة إلى الحبشة وفى الهجرة إلى المدينة.

ومن قبل هؤلاء كانت معه **سَوْدَة**، وهى امرأة نزلت عن حظها من الرجال لِكِبَرِها وعزوفها.

والعيشة مع أولئك الأربع لا تقوم على متاع ملحوظ ودنيا سارة. ولو قد قامت على ذلك ما كان على رسول الله من حرج. فلأى مؤمن أن يستمتع بأربع نسوة، وتحقيق العدل متيقَّن فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قد تقول: لكن هذا الرسول مات عن تسع نسوة، فكيف وقع هذا؟ ولم نال ما لم ينل غيره؟؟

أليس هذا فتحًا لباب التَّشَهِّى وإجابةً لدواعى اللذة؟

ونقول: أين مكان المتعة فى حياة رجل لم يسترح يومًا من عناء الكفاح الموصول والجهاد المضنى؟.

إن حَمَلَةَ الرسالات الإنسانية تعييهم هموم العيش ومتاعب الشعوب، فلا يَحْظَوْنَ بساعة راحة إلا ليستجموا قليلاً ثم... ينهضون لاستئناف اللغوب! فكيف بصاحب الرسالة العظمى، وقد لقى من العرب ما رأى - من إعراض واعتراض وظلم واضطهاد.. الخ.؟

ونسأل أيضًا: ما مكان المتعة فى حياة رجل عزف عنها وهو شاب، فكيف يغرق فيها وهو شيخ؟.

إن الظروف التى أحاطت بالزوجات الخمس الأُخر تجعل البناء بهن بعض ما كُلِّف الرسول تجشمه من سياسة الأفراد والجماعات، وبعض ما كُلِّف تحقيقه من إقامة الخير ومحو الضر.

خذ مثلا زواجه **بزينب بنت جحش**.. كان هذا الزواج امتحانًا قاسيًا لرسول الله، أمره بالله به لإبطال تقليد شائع عند العرب، وأقدم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو شديد التحرج والحياء والأذى.

وزينب هذه من قريبات الرسول، فهو يعرفها حق المعرفة من طفولتها، وقد رغب فى أن يزوجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك، ورفض أخوها، اعتزازًا بما لأسرة زينب من مكانة، فهى من ذؤابة قريش، وما زيد؟ إنه كان عبدًا، ولو أن الرسول أكرمه فيما بعد وألحقه فى نسبه فصار يُدْعَى زيد بن محمد!! إلا أن زينب لم تجد بُدا من الانصياع لأمر النبى. فقد أراد أن يحطم الاعتزاز بالأنساب، وأن يُنكح زيدًا زينب! فرضيت وفى نفسها غضاضة، وقبل أخوها وهو يؤدى حق السمع والطاعة فحسب، بعدما نزل قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾(1).

ودخل زيد بزينب فوجد امرأة مصروفة الفؤاد عنه، تسلمه جسدها وتحرمه العطف والتقدير. فثارت رجولته وقرر ألا يبقى معها. وتدخل النبى بين الحين والحين لإصلاح ذات البين بدون جدوى.

فى هذه الحال أوحى الله لنبيه أن يدع زيداً يطلق زوجته، وأن يتزوجها هو بعد انتهائها منه.

فاعترى الرسول هَمٌّ مقلق لهذه الأمر، وساوره التوجُّس من الإقدام عليه، بل أخفاه فى نفسه؛ خوفًا من مغبته، فسيقول الناس تزوج امرأة ابنه. وهى لا تحل له..!!

ولكن هذا الذى سيقوله الناس هو ما أراد الله هدمه، ويجب على النبى أن ينفذه دون تَهَيُّب.

وقد تريَّثَ النبى فى إنفاذ أمر الله، ولعله ارتقب من الله ـ لفرط تحرجه ـ أن يعفيه منه، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فعندما جاء زيد يشكو امرأته ويعرض نيته فى تطليقها، قال النبى: أمسك عليك زوجك واتق الله..

عند ذلك نزل الوحى يلوم على الرسول توقفه، ويعتب عليه تصرفه، ويحضه على إمضاء رغبة زيد فى فراق امرأته ويكلفه تزوجها، ولو قال الناس: تزوج امرأة ابنه! فإن ادعاء البنوة لون من التزوير تواضع عليه العرب مراغمة للحق، وينبغى أن يقلعوا عنه، وأن يهدروا نتائجه، وليكن عمل الرسول بنفسه وبمن التصق به أول ما يهدم مآثر الجاهلية فى هذا العرف الشائع..

---

(1) سورة الأحزاب: ٣٦.

هذه هى القصة كما بدأ القرآن الكريم يرويها:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ... ﴾(1).

على أن الغريب فى هذه القصة ما أدخله المغفلون عليها من دسائس الشهوة ومظاهر الحب الرخيص، فقد زعموا أن الرسول أحب زينب، ثم كتم هذا الحب ثم ظهر... فتزوجها بعدما طُلِّقَتْ!!!

ثم زعموا أن صدر الآية السابقة جاء عتابًا له على هذه العاطفة المكبوتة، ونحن نتعجب أشد التعجب لهذا الخبط الهائل ومحاولة تلبيس الحق بالباطل.

مَن كان يمنع محمداً من الزواج بزينب وهى من أسرته، وهو الذى ساقها إلى رجل لم تكن فيه راغبة وطَيَّبَ خاطرها لترضى به؟

أفبعد أن يقدمها لغيره يطمع فيها؟

ثم لننظر إلى الآية وما يزعمون أنها تضمنته من عتاب:

إنهم يقولون: الذى كان يخفيه النبى فى نفسه، ويخشى فيه الناس دون الله هو ميله لزينب، أى أن الله ـ بزعمهم ـ يعتب عليه عدم التصريح بهذا الميل!

ونقول: هل الأصل الخلقى أن الرجل إذا أحب امرأة لغط بين الناس مشهراً بنفسه وبمن أحب، وخصوصًا إذا كان ذا عاطفة منحرفة جعلته يحب امرأة رجل آخر؟

---

(1) سورة الأحزاب ـ من الآية: ٣٧.

هل يلوم الله رجلاً لأنه أحب امرأة آخر فكتم هذا الحب فى نفسه؟

أكان يرفع درجته لو أنه صاغ قصائد غزل؟ هذا والله هو السفه! . . .

وهذا السفه هو ما يريد بعض المغفلين أن يفسروا به القرآن!!

إن الله لا يعاقب أحداً على كتمان حب طائش، وإنما سياق الواقعة كما قصصنا عليك. فالذى أخفاه النبى فى نفسه تأذيه من هذا الزواج المفروض وتراخيه فى إنفاذ أمر الله به، وخوفه من لغط الناس عندما يجدون نظام التبنى كما ألفوه قد انهار.

وقد أفهم الله نبيه أن أمره لا يجوز أن يقفه توهم شىء ما، وأنه بإزاء التكليف الأعلى لا مفر له من السمع والطاعة، شأن من سبقه من المرسلين.

وإذا عدت إلى الآية التى تتضمن القصة وجدتها ختمت بقوله تعالى:

﴿ ... وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(١) أى من حقه أن يقع حتمًا، ثم أعقبها ما يؤكد هذا المعنى:

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾(٢).

إنك عندما تُثَبِّتُ قلب رجل فتقول له: لا تخش إلا الله، لا تقول ذلك له وهو بصدد ارتكاب معصية، إنما تقول ذلك له، وهو يبدأ القيام بعمل فاضل كبير يخالف التقاليد المتوارثة.

وظاهر فى هذه الآيات كلها أن الله لا يُجَرِّئُ نبيه على التدله بحب امرأة، إنما يجرئه على إبطال عادة سيئة يتمسك الناس بها، ويراد منه كذلك أن ينزل

---

(١) سورة الأحزاب ـ آخر الآية: ٣٧.
(٢) سورة الأحزاب ـ الآيتان: ٣٨و٣٩.

على حكمها؛ ولذلك يقول الله بعد ذلك مباشرة ـ وهو يهدم نظام التبنى:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾(١).

أما السيدات الأخريات اللاتى بنى بهن الرسول، فهن نساء تنميهن أصول عريقة حتى ليعتبرن بنات ملوك! وقد أحاطت بهن عند دخول الإسلام ملابسات لا يليق أن يجهلها قائد دعوة.

فأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها عشرين سنة فى حرب الإسلام أو يزيد، أئذا أسلمت وراغمت أباها وقومها فى ذات الله، ثم هاجرت إلى الحبشة تاركة مكة حيث يسود أبوها وتعلو كلمته؟

أترى مثل هذه السيدة إذا مات زوجها تُترك لمن يخدش مكانها؟

لقد ضمها النبى صلى الله عليه وسلم إلى زوجاته؛ إعزازاً لشأنها، وتقديراً لصنيعها!

* **وصفية بنت حُيَىّ** كان أبوها ملك اليهود، وفى الصراع بين بنى إسرائيل والإسلام هلك أبوها وأخوها وزوجها، ووقعت فى سهم جندى لا يعرف إلا أنها أسيرة حرب، ومن حقه بملك اليمين أن يسلك معها كيف يشاء، فإذا رَقّ النبى لحالها، ووهبها حريتها، ثم جبر كسرها وقدَّر ماضيها، فتزوجها ليستطيع بإحسانه وإكرامه تطييب خاطرها، فهل ذلك مما يلام عليه؟

* **وجويرية بنت الحارث**: إن أباها زعيم بنى المصطلق، وقد انتهت حربه مع المسلمين بهزيمة نكراء، وكادت قبيلته تهون وتذل عقب هذه الهزيمة، فواسى

(١) سورة الأحزاب : ٤٠.

سى صلى الله عليه وسلم قائدهم المهزوم، ثم أصهر إليه حتى يُشعر مسلمين بما ينبغى لأتباعه من كرامة ومعونة.

وقد وقع ما أحبه النبى صلى الله عليه وسلم، فعادت الحرية إلى القبيلة رجالاً ونساءً، إذ تحرَّج المسلمون أن يسيئوا إلى قوم تزوج النبى ابنتهم.

** وأستكمل بعد ذلك كذلك مع الأخ القارئ أهم الأسرار المتعلقة بزوج النبى صلى الله عليه وسلم بأكثر من واحدة...

من كتاب: (أنت تسأل والإسلام يجيب) لفضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى. حيث يقول ما خلاصته:

* والواقع أن تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم بأمر الله هو السياسة الرشيدة، وتربية الأمة، وضرب المثل الكامل لها فى معاشرة النساء بالمعروف، والعدل بينهن، وتخريج بضع معلمات للنساء، يعلمنهن الأحكام الشرعية الخاصة بهن، مما كان صلى الله عليه وسلم يستحى أن يخاطب به النساء فيما كان يخصهن به أحيانًا من مواعظه، كما كان أكثرهن يستحين أن يسألنه عن الأحكام الزوجية والجنابة والطهارة، وقد كان نساء المهاجرين أشد حياء من نساء الأنصار فى هذا، بل كان من نساء الأنصار من يهبن أن يسألنه عما لا يستحيا منه.

ومن الشواهد عنهن فى ذلك، ما روى فى المسند والصحيحين وعند أصحاب السنن، عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة من الأنصار سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن غسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل، ثم قال:

(خذى فِرْصَةً من مسك فتطهرِى بها - أى: قطعة من القطن أو الصوف مطيبة بالمسك - فقالت المرأة السائلة: كيف أتطهر بها؟

قال: تَطَهَّرى بها، قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: سبحانَ الله! تطهرى،

قالت عائشة: فاجْتذبتها إلىَّ، فقلت: تتبعى بها أثر الدم، واستحيا صلى الله عليه وسلم وأعرض بوجهه حياء من أن يصرح لها بوضع القطنة المُطيَّبة بالمسك فى المكان الذى يخرج منه دم الحيض إتمامًا للطهارة، والذى استطاع إفهامها المراد هو عائشة رضى الله عنها، وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها. كما رواه الشيخان.

* وكانت المؤمنات يسألنه عن كل ما يعرض لهن على اختلاف درجاتهن فى الحياء، حتى كان بعضهن يشكون إليه هجر بعولتهن لهن اشتغالاً بالتعبد أو لغير ذلك، وكان لا بد له من تعليمهن وإنصافهن من بعولتهن، وكان أزواجه خير مبلغ له عنهن ولهن عنه فى حياته، وخير مرجع فى الاستفتاء النسوى بعد وفاته، ومن ذا الذى يقول: إن زوجًا واحدة كانت تقوم بهذا الواجب وحدها؟

* بل كان الرجال يرجعون بعده إلى أمهات المؤمنين فى كثير من أحكام الدين ولا سيما الزوجية، فمن كان له قرابة منهنْ كان يسألها دون غيرها، فكان أَكْثَرَ الرواة عن عائشة أختُها أم كلثوم وأخوها من الرضاعة عوف بن الحارث وابنا أخيها القاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبى بكر، وحفصة وأسماء بنتا أخيها عبد الرحمن، وعبد الله وعروة ابنا عبد الله بن الزبير من أختها أسماء، وروى عنها غيرهم من أقاربها ومن الصحابة والتابعين وهم كثيرون جدا، حتى بلغت رواياتها عن الرسول صلى الله عليه وسلم التى نقلها عنها الصحابة والتابعون أكثر من ألفين من الأحاديث الشريفة.. والله أعلم.

وهكذا كان أكثرَ الرواة عن حفصة رضى الله عنها أخوها عبد الله بن عمر وابنه حمزة وزوجه صفية بنت عبيد وأم بشر الأنصارية.. إلخ. وأكثر

الرواة عن ميمونة بنت الحارث أبناء أخواتها، ولا سيما أعلمهم وأشهرهم عبد الله بن عباس، رضى الله عن الجميع.

* وأشهر الرواة عن رملة أم المؤمنين رضى الله عنها بنت أبى سفيان ابنتها حبيبة وأخواها معاويه وعنيسة، وابنا أخيها وأختها.

* وهكذا نرى كل واحدة من أمهات المؤمنين قد روى عنها عِلْمَ الدين كثير من أقربائها الرجال والنساء، حتى إن صفية اليهودية المسلمة أم المؤمنين كان لها ابن أخ مسلم روى عنها فيمن روى، فهل كان يمكن أنِ ينقل ذلك كله زوج واحدة يروى عنها كل من روى عن أمهات المؤمنين، ولعل أكثر ما سمعه النساء منهن لم يصل إلى الذين دونوا أحاديثهن.

* وجملة القول أن أمهات المؤمنين التسع اللاتى توفى عنهن الرسول كُنَّ كلهن مُعَلِّمات ومفتيات لنساء أمته ولرجالها ما لم يعلمه عنه غيرهن من أحكام شرعية وآداب زوجية وأحكام نبوية، وكن قدوة صالحة فى الخير وعمل البر.

* وقد راعى المصلحة فى اختيار كلّ زوج من أزواجه (عليهن الرضوان) فى التشريع والتأديب والمودة والتأليف، وكفالة الأرامل والأيتام، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم، وعلم أتباعه احترام النساء، وإكرام كرائمهن، والعدل بينهن، وقرر الأحكام بذلك، وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين يعلمن نساءهم من الأحكام ما يليق بهن مما ينبغى أن يتعلمنه من النساء دون الرجال، فَكُنَّ مدرسة كبرى يشع منها ما يتلى فى بيوتها من آيات الله والحكمة ذِكرًا وتَذَكُّرًا، وعملاً وإبلاغا ودعوة، ولو ترك واحدة فقط لما كانت تغنى فى الأمة غناء التسع.

ولو كان صلى الله عليه وسلم أراد بتعدد الزواج ما يريده الملوك والأمراء

من التمتع بالحلال فقط لاختار ـ كما قلنا ـ حسان الأبكار، بدل هؤلاء الثيبات المكتهلات منهن، ولكان الله تعالى حينما هددهن بالطلاق لحدوث التظاهر منهن والتواطؤ وإفشاء السر، أخبر بأنه سيبدله أحسن منهن جمالاً وفتنة وإغراء كما يشتهى رسوله لو كان، ولكن الله قال:

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾(١).

وكلها صفات المعانى والأخلاق والعبادة لله والخضوع لأمره، وليس فيها إشارة لإشباع شهوة.

* وفضلاً عن كل ذلك فإن تعدد الزوجات فى ذلك العصر كان من الضروريات، لكثرة القتلى من الرجال، وحاجة نسائهم إلى من يكفلهن؛ لأن أكثر أهلهن من المشركين، فالمصلحة فيه للنساء لا للرجال، إما بالكفالة والنفقة، وإما بالشرف والتكرمة؛ ولذلك كن يسعين أو يسعى الآباء أو غيرهن من الأقربين لمن يقتل زوجها أو يموت إلى كفء يتزوجها، وإن كان له زوج أو أزواج غيرها، كما فعل عمر بعرض بنته حفصة على الشيخين أبى بكر وعثمان، وكما كان النساء يعرضن أنفسهن عليه فيؤثر بهن غيره. وأما النبى صلى الله عليه وسلم فكان النساء يعرضن أنفسهن عليه، كما يعرضهن بعض أولى القربى منهن.

فهل يتصور أحد بعد هذا البيان أن تعدد الزوجات كان فى ذلك العهد هضمًا لحقوقهن، وقد أعطاهن الإسلام من الحقوق ما أعطاهن، وقد شهدت نساؤه الفاضلات أنه كان يقسم بينهن ويعدل، ويقول: اللهمَّ هذا قَسْمِى فيما أَمْلِكُ، فلا تَلُمْنى فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ.

---

(١) سورة التحريم: ٥.

* وكان يزورهن جميعًا كل صباح للتعليم والإرشاد، ومساءً للمجالسة والمؤانسة، ثم يبيت عند من لديها الدور.

* وكان إذا أراد سفرًا أقرع بينهن، وإذا تعذر عليه التنقل بينهن لمرضه الشديد استأذن منهن فى أن يُمَرَّضَ فى بيت عائشة فيَأْذَنَّ له عن طيب نفس.

* ومن عظم خُلُقِه الكريم ومعاشرته الطيبة لَهُنَّ رضين حين خيرهنَّ الله أن يبقين معه على خشونة العيش وضيق الحال، وآثرن ذلك على طلاقهن منه؛ ليتمتعن عند غيره، كما فصل ذلك كله بتوسع صاحب كتاب (نداء إلى الجنس اللطيف) للسيد رشيد رضا رحمه الله.

إلى أن يقول الإمام المشتهرى أكرمه الله:

على أننا لو نظرنا بعين الواقع لوجدنا أنه لم يخالف فى ذلك شيئًا محظورًا، بل كان هذا أمرًا من الله التزمه ولم يستطع خلافه عندما جاء التحديد للزوجات بأربع.

ذلك أن آية التحديد بأربع نزلت فى السنة الثامنة من الهجرة، على ما قاله المحققون، وكان ذلك بعد بنائه بزوجاته جميعًا. وقد كان الزواج بغير حد من قبل، وآية سورة النساء التى فيها التحديد نزلت بعد سورة الأحزاب التى منع فيها الله رسوله أن يتبدل بأزواجه غيرهن، ومنع أيضًا أن يتزوجن بعده، فلو فارق من زاد على أربع ما وجدن من يتزوجهن؛ لأنهن أمهات المؤمنين محرمات على كل الرجال ما عدا زوجهن صلى الله عليه وسلم، وهنا تضيع حكمة الإسلام من الزواج وعدله فى التشريع، قال تعالى:

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. ﴾(١).

---

(١) سورة الأحزاب : ٥٢.

وقال سبحانه:

﴿ ... وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾(1).

وكان إمساك النبى لزوجاته وعدم الزيادة عليهن مكافأة لهن على موقفهن منه عندما خَيَّرَهُنَّ فاخترنه كما سبق.

على أن الصحابة لم يحتجوا على مخالفته لأمر الله الذى حدد الزوجات بأربع؛ لأنهم لم يروا فيه مخالفة بعد ما عرفوا ما أمره الله به من إمساك زوجاته، وقد كانوا لا يسكتون أبدًا عندما يرون منه شيئًا مخالفًا لما يعرفون من الدين.

فدل ذلك على أن التحديد جاء بعد زواج هؤلاء جميعًا، وأنه أُمِر بإمساكهن جميعًا دون الاقتصار على أربع كغيره لحرمتهن على غيره، فلو فارقهن لتعرضن للتشرد والضياع والقيل والقال، وحاش لله أن يفعل ذلك مع الطيبات المؤمنات أمهات المؤمنين.

إلى أن يقول فى ختام هذا العرض الكافى والشافى:

** فمن ذا الذى يدعى بعد هذا البيان الشافى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شهوانيا، وهو الذى رضى بعيش الفقراء وقد عرضت عليه الجبال ذهبًا فأباها، ورضى نساؤه على العيش معه فى الضيق والشظف، وكان لكل واحدة منهن ظرفها العصيب، وقد حرمن على رجال الأمة، وكن كبيرات ثيبات اخترن الله ورسوله والدار الآخرة قبل التحديد بأربع؟ رضى الله عنهن وعنا معهن. آمين.

(1) سورة الأحزاب: ٥٣.

وصف طهارة النبى صلى الله عليه وسلم
وهديه فى الوضوء

* فقد ثبت أنه صلوات الله وسلامه عليه كان فى غالب الأوقات يتوضأ لكل فريضة من الصلاة، وفى بعض الأوقات يصلى بوضوء واحد عدة من الصلوات، ومقدار الماء الذى كان يصرفه فى الوضوء دون الرطلين، وكان لا يزيد على أربعة أرطال، وربما توضأ بنحو ثلاثة أرطال.

* وكان يبالغ فى الأمر بتقليل الماء ويبالغ فى النهى عن كثرة استعماله، وقال: (إن للوضوء شيطانًا اسمه ولْهان فاحترزوا من وسوسته) ومر بسعد بن أبى وقاص وهو يتوضأ، فقال: (لا تُسْرِف فى الماء) قال سعد: وهل فى الماء إسراف؟ قال: (نعم، وإنْ كنتَ على نهرٍ جارٍ)

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه توضأ وغسل أعضاء الوضوء مرة مرة ولم يَزِدْ، وتوضأ وغسلها مرتين مرتين، وتوضأ وغسلها ثلاثًا ثلاثًا، وتوضأ فغسل بعضها مرتين وبعضها ثلاثًا، وتمضمض واستنشق بغرفة وبغرفتين وبثلاث، استعمل نصف الغرفة فى المضمضة ونصفها فى الاستنشاق، فعل ذلك متصلاً فى الصور الثلاث، ولم يرد فى شىء من الأحاديث الفصل، وحديث طلحة بن مصرف عن أبيه عن جده أنه شاهد الفصل - فى إسناده ضعف.

* وكان يستنشق باليمنى، ويستنثر باليسرى، ويمسح جميع رأسه مرة لا يكرر. وروى التكرار فى حديث، لكنه ضعيف، وحيثما اقتصر على مسح بعض الرأس أتم على العمامة، ولم يترك المضمضة والاستنشاق أبدًا، ولم يَرْوِ أحد عنه ذلك أبدًا.

* وكان يتوضأ مرتبا متواليًا، ولم يخل بالترتيب والتوالى أبدًا.

* وكان يمسح جميع رأسه أحيانًا، وأحيانًا يمسح على العمامة، وأحيانًا يمسح على الناصية والعمامة، ولم يقتصر على مسح بعض الرأس أبدًا.

وكان يمسح الأذن ظاهرًا وباطنًا، ولم يثبت فى مسح الرقبة حديث، وحيث لم يكن فى رجله خف غسل وإلا مسح،

* والأحاديث الواردة فى أذكار الوضوء لم يصح منها شىء، والذى صح أنه كان يقول فى أول الوضوء: (باسم الله) وفى آخره: (أشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهمَّ اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين، سبحانك اللهمَّ وبحمدِك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرُك وأتوبُ إليك):

* قال أبو موسى الأشعرى: جئتُ بماء الوضوء لرسول الله عليه وسلم، فتوضأ، وسمعته يقول:[1] (اللهم اغفرْ لى ذنبى، وَوَسِّعْ لى فى دارِى، وبارِك لى فى رزقى) قال: قلت: يا رسول الله، سمعتك تدعو بكذا وكذا؟ قال: (وهل تركتُ من شىءٍ؟).

ولم يكن ينشف أعضاءه بعد الوضوء بمنديل ولا منشفة، وإن أحضروا له شيئًا من ذلك أبعده، والحديث المروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها كانت له نشافة ينشف بها بعد الوضوء، وحديث معاذ فى معناه. كلاهما ضعيف.

(١) أى أثناء الوضوء، وقيل هو من الأدعية التى تقال بعد الوضوء.

* وفى حالة الوضوء لم يَصُبَّ الماء عليه أحد إلا فى وقت ضرورة.

* والحديث الوارد فى تخليل اللحية قَبِلَهُ بعض أهل الحديث، ورده البعض، وأما تخليل الأصابع فكان يفعله أحيانًا، وورد تحريك الخاتم فى حديث ضعيف.

* وكان يمسح أذنيه مع رأسه ظاهرهما وباطنهما، ولم يثبت عنه أنه أخذ لهما ماء جديدًا، وإنما صح ذلك عن ابن عمر.

* وكان يغسل رجليه إذا لم تكونا فى خفين ولا جوربين، ويمسح عليهما إذا كانت فى الخفين.

* وقد ثبت فى الأخبار الصحيحة أن النبى صلى الله عليه وسلم مسح على الخفين فى السفر والحضر، ولم يُنسخ ذلك حتى توفى، ومدة الحضر يوم وليلة. وثلاثة أيام ولياليها فى السفر - كما ورد فى عدة أحاديث حسان صحاح.

* وكان يمسح على الجورب، وحديث الجرموق رواه الترمذى وصححه وضعفه جماعة من الحفاظ.

* وكان لا يقصد المسح ولا الغسل، لكن إذا كان فى حالة قصد الوضوء لابسًا مسح، وإلا غَسل، ولم يكن يلبس ليمسح ولا ينزع ليغسل،

* وكان يمسح ظاهر الخفين، ومسح على الجوربين والنعلين.

* وكان وضوءه مرتبا متواليًا لم يخل به مرة واحدة، ولم يواظب على تخليل لحيته وأصابعه، ولم يقل على وضوئه شيئًا غير التسمية فى أوله والتشهد فى آخره، ولم يثبت أنه تجاوز المرفقين والكعبين فى غسلهما.

وكان تارة يصب الماء على نفسه، وتارة يعاونه غيره، كما ورد فى حديث

المغيرة بن شعبة أنه صب عليه فى السفر لما توضأ.

أخرجه الصحيحان.

* ولم يكن صلوات الله وسلامه عليه يقول فى أول الوضوء نويت رفع الحدث، ولا استباحة الصلاة، لا هو ولا أحد من أصحابه البتة، ولم يرو عنه فى ذلك حرف واحد، لا بإسناد صحيح ولا ضعيف، ولم يتجاوز الثلاث قط.

** وأما عن:

كيفية الوضوء

فأجمع حديث فى هذا ما روى عن سيدنا عثمان وعلى رضى الله عنهما:

* فعن حُمْرانَ بن أبانَ قال: دعا عثمان رضى الله عنه بماء وهو على المقاعد فسكب على يمينه فغسلها. وفى رواية: (فأفرغ على يديه ثلاثًا فغسلهما) ثم أدخل يمينه فى الإناء فغسل كفيه ثلاثًا، ثم غسل وجهه ثلاث مرار، ومضمض، واستنشق واستنثر، وغسل ذراعيه إلى المرفقين ثلاث مرات، ثم مسح برأسه، وأمرَّ بيديه على ظهر أذنيه، ثم غسل رجليه إلى الكعبين ثلاث مرار، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: (منْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئى هذا، ثم صَلَّى ركعتيْن لا يُحَدِّثُ نفسَه فيهما، غُفِر له ما تَقَدَّمَ من ذنبِه)

وفى روايه: (غُفِر له ما كان بينهما وبين صلاتِه بالأمسِ)

أخرجه أحمد والشيخان.

* وعن عبد خير، قال: جلس على رضى الله عنه بعدما صلى الفجر فى

الرَّحبة[1]، ثم قال لغلامه: ائتني بِطَهُور، فأتاه الغلام بإناء فيه ماء وَطسْت[2] ونحن جلوس ننظر إليه، فأخذ بيمينه الإناء فأكفأه على يده اليسرى، ثم غسل كفيه، فعله ثلاث مرار، كل ذلك لا يُدخل يده فى الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات، ثم أدخل يده اليمنى فى الإناء فمضمض واستنشق ونثر بيده اليسرى، فعل ذلك ثلاث مرات. **وفي رواية:** فتمضمض ثلاثًا واستنشق ثلاثًا من كف واحدة، ثم أخل يده اليمنى فى الإناء، فغسل وجهه ثلاث مرات. ثم غسل يده اليمنى ثلاث مرات إلى المرفق، ثم غسل يده اليسرى ثلاث مرات إلى المرفق، ثم أدخل يده اليمنى فى الإناء حتى غمرها الماء، ثم رفعها بما حملت من الماء، ثم مسحها بيده اليسرى، ثم مسح رأسه بيديه كلتيهما مرة، **وفي رواية:** (فبدأ بمقدم رأسه إلى مؤخره) ثم صب بيده اليمنى ثلاث مرات على قدمه اليمنى، ثم غسلها بيده اليسرى، ثم صبَّ بيده اليمنى على قدمه اليسرى، ثم غسلها بيده اليسرى ثلاث مرات، ثم أدخل يده اليمنى، فغرف بكفه فشرب فضل وَضُوئه، ثم قال: هذا طَهُور نبيٍّ اللهِ صلي الله عليه وآله وسلم)

أخرجه أحمد، وأبو داود، والنسائى، والدارقطنى، والدارمى بسند جيد.

وترغيبًا فى أن تتوضأ إن شاء الله كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحتى تعرف كذلك من خلال هذا:

فضل الوضوء

إليك هذه الأحاديث الشريفة:

* فعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إذا تَوضَّأَ العبدُ

(١) الرحبة: بفتحات، موضع متسع بالكوفة.

(٢) الطست: بفتح الطاء فسكون السين المهملتين: وحكى بالشين المعجمة: إناء من نحاس.

المسلمُ أو المؤمنُ فغسلَ وجهَهُ، خرجتْ من وجههِ كلُّ خطيئةٍ نظرَ إليها بعينه مع الماءِ أو مع آخرِ قَطْرِ الماءِ، فإذا غسلَ يديْه خَرجتْ من يديْه كلُّ خطيئةٍ بطشتْهاَ يداه مع الماءِ أو مع آخرِ قطرِ الماءِ، فإذا غسلَ رجليْه خرجت كلُّ خطيئةٍ مشتْها رجلاه مع الماءِ أو مع آخرِ قطرِ الماءِ حتى يخرجَ نَقِيا من الذنوبِ)

أخرجه مالك وأحمد ومسلم والترمذى، وقال :حسن صحيح.

* وعن عبد الله الصُّنَابحى، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إذا توضأ العبدُ المؤمنُ فتمضمضَ خرجتْ الخطايا من فيه، فإذا استَنْثَر خرجتْ الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيْه[1]، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديْه حتى تخرج من تحت أظفار يديه، فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفارِ رجليه، ثم كان مشيُه إلى المسجدِ وصلاتُه نافلةً له)

أخرجه مالك وأحمد والنسائى والحاكم، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، وليس له علة.

* وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألاَ أَدلُّكُم على ما يُكَفِّرُ اللهُ به الخطايا ويَزِيدُ به الحسنات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إِسْباغُ الوُضوءِ على المكارِهِ، وكَثْرَةُ الخطاَ إلى المساجدِ، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ) .

أخرجه أحمد وابن حبان.

* وعن عثمان بن عفان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (مَن تَوَضَّأَ فأسبغَ الوَضُوءَ، ثم مشى إلى صلاةٍ مكتوبةٍ فصلاَّها، غُفِر لَهُ ذنبهُ) أخرجه أحمد ومسلم وابن خزيمة.

---

(١) الأشفار جمع شفر بضم فسكون، أصل منبت الشعر فى الجفن.

هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الغسل

* فقد كان هدى النبى صلى الله عليه وسلم فى الغسل من الجنابة أن يبدأ فيغسل أعضاء الوضوء، ثم يعمم جسده بالماء باديًا بأعلاه ويمناه، وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت: كنتُ أغتسلُ أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناءٍ واحدٍ ـ وفى رواية النسائى قالت ـ : فنشرعُ فيه جميعًا. فأُفِيضُ على رأسى بيدى ثلاثَ مراتٍ، وما أَنْقُضُ لى شَعرًا).

* وفى حديث آخر أخرجه الشيخان تذكر عائشة رضى الله عنها: أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا اغتسلَ من الجنابة يبدأُ فيغسلُ يديه ثلاثًا، ثم يُفرِغُ بيمينه على شماله، فيغسلُ فَرْجَهُ، ثم يتوضأ وُضُوءَهُ للصلاة، ثم يأخذ الماء، ويُدخل أصابعَهُ فى أصول الشعر حتى إذا رأى أن قد استَبْرأ(١) حفن على رأسه ثلاث حَفَنات، ثم أفاضَ على سائرِ جَسَدِه، ثم غسلَ رجليْه) وفى رواية للشيخين (ثم يُخَلِّلُ بيده شعرَه حتى إذا ظن أنَه قد أروى(٢) بشرته أفاض عليه الماء ثلاث مرات.

وقد أشار فى (الدين الخالص)، إلى:

كيفية الغسل الكامل

وهو المشتمل على الفرائض والسنن والمندوبات، فقال:

أن ينوى المغتسل بقلبه رفع الحدث الأكبر أو استباحة الصلاة ونحوها. ثم يقول: باسم الله والحمد لله، ثم يغسل كفيه ثلاثًا قبل إدخالهما الإناء، ثم يغسل ما على فرجه وسائر بدنه من الأذى، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة. ثم

(١، ٢) استبرأ، أى أوصل الماء إلى البشرة، وكذا (أروى).

يدخل أصابعه كلها فى الماء، فيغرف غرفة يخلل بها أصول شعره من رأسه ولحيته، ثم يحثو على رأسه ثلاث حثيات، ثم يفيض الماء على سائر جسده، يبدأ بالشق الأيمن ثم الأيسر، ويتعاهد معاطف بدنه كالإبطين وداخل الأذنين والسرة وما بين الأليين وأصابع الرجلين وعُكن البطن وغير ذلك، فيوصل الماء إلى جميع ذلك، ويدلك ما تصل إليه يداه من بدنه (وإن) كان يغتسل فى نهر أو نحوه انغمس حتى يصل الماء إلى جميع بشرته وشعره ظاهره وباطنه وأصول منابته (ويستحب) أن ينوى الغسل من أول شروعه فيه، ويستصحب النية إلى الفراغ منه، ويكفى الظن فى تعميم الجسد بالماء، ثم يتحول من مكان غُسله، فيغسل قدميه إن لم يكن غسلهما أولاً.

** وأما عن:

هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى التيمم

وهو لغة: القصد، وشرعًا القصد إلى الصعيد الطاهر لمسح الوجه واليدين بضربة أو ضربتين بنية استباحة ما منعه الحدث لمن لم يجد الماء أو خشى الضرر من استعماله. (وهو) مشروع بالكتاب والسنة والإجماع.

وقد جاء فى (زاد المعاد) أنه صلوات الله وسلامه عليه:

* كان يتيمم بضربة واحدة للوجه والكفين، ولم يصح عنه أنه تيمم بضربتين ولا إلى المرفقين.

قال الإمام أحمد: من قال إن التيمم إلى المرفقين، فإنما هو شىء زاده من عنده.

وكان يتيمم بالأرض التى يصلى عليها ترابًا كانت أوسبخة أو رملاً، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (حَيْثُما أَدْرَكَتْ رجلاً من أمتى الصلاةُ فعنده مسجدُه وطَهُورُه).

ولم يتيمم لكل صلاةٍ، ولم يأمر بذلك بل أطلق وجعله قائمًا مقام

الوضوء: أى يقوم التيمم مقام الوضوء والاغتسال من الجنابة عند فقد الماء وفى حالة المرض أو السفر، قال الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾(١).

وقال فى الآية الأخرى:

﴿ ... فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢).

فإن ظن وجود الماء قبل خروج الوقت، انتظر. وإن خاف خروج الوقت تيمم.

وإن فقد الماء فى بيته فليذهب إلى المسجد، أو إلى بيت أحد قريب منه، لا يجعل مجرد فقد الماء فى بيته مبرراً لتيممه.

كذلك من أسباب التيمم:

إذا كان الماء شديد البرودة، ولم يقدر على تسخينه، بحيث لو توضأ لضره، جاز له أن يتيمم (لحديث) عمرو بن العاص رضى الله عنه، أنه لما

(١) سورة النساء: ٤٣.

(٢) سورة المائدة ـ من الآية: ٦.

بُعِثَ فى غزوة ذات السلاسل، قال: احتلمت فى ليلة شديدة البرودة، فأشفقت إن اغتسلت هلكت، فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذكروا ذلك له، فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جُنب؟! فقلت: ذكرتُ قولِ الله عز وجل: ﴿ ... وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[1]. فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يقل شيئا.

رواه أحمد، وأبو داود.

كذلك من الأسباب، أنه إذا احتاج إلى الماء لشربه، أو شرب حيوان محترم، جاز له أن يتيمم، ويبقى الماء ينتفع به،

فعن على رضى الله عنه قال فى الرجل يكون فى السفر، فتصيبه الجنابة، ومعه قليل من الماء، يخاف أن يعطش، فيتيمم ولا يغتسل.

كذلك من الأسباب: إذا خاف خروج الوقت إذا ما توضأ أو اغتسل فله أن يتيمم، ويصلى ولا يعيد، وقيل: عليه الإعادة.

كذلك لا يعيد الصلاة مَنْ تيمم وصلى ثم وجد الماء. وإن أعاد فله أجران (لحديث) عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى، قال: خرج رجلان فى سفر، فحضرت الصلاة، وليس معهما ماء فتيمما صعيداً طيباً، فصلَّيا، ثم وجدا الماء فى الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يُعِدِ الآخر، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرا ذلك له، فقال للذى لم يُعد: (أصبتَ السنة، وأجزأتك صلاتك، وقال للذى توضأ وأعاد: لك الأجر مرتين)

أخرجه النسائى، وأبو داود، والدارمى، والحاكم، والدارقطنى.

---

(١) سورة النساء من الآية: ٢٩.

وصف صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه فيها

* وذلك لأن الصلاة عماد الدين، وركنه الركين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن ضيعها فقد هدم الدين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(رأسُ الأمر: الإسلامُ، وعمودُه: الصلاةُ، وذِرْوَةُ سَنامه: الجهاد) الحديث أخرجه الترمذى.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بُنِى الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أن لا إلـهَ إلا اللهُ، وأن محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وحَجِّ البيتِ، وصَوْم رِمضان)

رواه البخارى ومسلم.

* ولأن الصلاة: نور يتلألأ فى قلب المؤمن، ويسطع على وجهه، وينعكس على جوارحه. نور يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، نور يمشى به المؤمن فى الناس، فيرى به ما لا يراه الناظرون، نور يسعى بين يديه، وعن يمينه يوم القيامة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(الطُّهُورُ شطْرُ الإيمانِ، والحمدُ لله تملأ الميزانَ، وسبحانَ اللهِ والحمدُ لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السمٰواتِ والأرضِ، والصلاةُ نورٌ، والصَدقةُ برهانٌ،

والصبرُ ضِياء، والقرآن حُجَةٌ لك أو عليكَ، كلُّ الناسِ يغدو، فبائعٌ نفسَهُ فمعتِقُها، أو موبقها)

رواه مسلم.

وروى الطبرانى عن أبى الدرداء - أيضا - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

(مَنْ مشى فى ظلمةِ الليلِ إلى المسجدِ، لقِىَ اللهَ عز وجل بنورٍ يومَ القيامةِ).

* ولأن الصلاة: تدفع العبد دفعًا إلى طاعة الله عز وجل، وتقوده إلى رضوانه، وتنأى به عن المعاصى والمنكرات، وتُبَغِّضُه فى كل عمل يُغضب اللهَ تعالى..

قال تعالى فى سورة العنكوت:

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ... ﴾(١).

وإنما تنهى الصلاة صاحبها عن الفحشاء والمنكر، إذا أداها بخشوع، وخضوع، وإخلاص، وحافظ عليها فى أوقاتها، وأتم ركوعها، وسجودها، ولم ينقرها كنقر الغراب، ووجد فيها رَوْحَه ورَيْحانَهُ، ولم يدخلها وهو كارِهٌ لها، أو متثاقل فى أدائها.

* ولأن الصلاة التى يقبل العبد فيها على ربه، بقلب خالص، ويؤديها كما ينبغى، تكفر الذنوب، وتمحو الخطايا وترفع الدرجات.

(١) سورة العنكبوت - من الآية: ٤٥.

قال تعالى:

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾(١).

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما مِن امرئ تحضرُه صلاةٌ مكتوبةٌ، فيُحسِن وُضوءَها، وخُشوعَها، وركوعَها ـ إلا كانتْ كفارةً لما قبلَها من الذنوبِ، ما لم تُؤْتَ كبيرةٌ، وذلك الدهر كله).

رواه مسلم فى صحيحه.

وفى صحيح مسلم كذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه: (الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ كفارةٌ لما بينهنَّ ما لم تُغْشَ الكبائرُ)

والكبائر: جمع كبيرة، وهى ما ورد فيها تحذير شديد، وغلظت عقوبتها، وأكبر الكبائر: الشرك بالله، ويليه قتل النفس بغير حق، والزنى، والسرقة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وشرب الخمر، وعقوق الوالدين، والفرار من ميدان المعركة، وعمل السحر، والكذب، وقول الزور، وتبذير المال فى غير محله، والقذف، وهو: رمى العفيف أو العفيفة بالزنى.

والكبائر كما جمعها أبو طالب المكى رحمه الله تعالى:

أربعة فى القلب، وهى: **الشرك** بالله تعالى، والإصرار على معصية الله تعالى، والقنوط من رحمة الله تعالى، والأَمْن مِن مكر الله تعالى.

وأربعة فى اللسان، وهى: شهادة الزور، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، واليمين الغموس، والسحر.

(١) سورة هود: ١١٤.

وثلاثة فى البطن، وهى: شرب الخمر، وأكل مال اليتم، وأكل الربا وهو يعلم.

واثنان فى اليدين، وهما: القتل، والسرقة.

واثنان فى الفرج، وهما: الزنى واللواط.

وواحدة فى الرجل، وهى: الفرار من الزحف.

وواحدة فى جميع البدن، وهى: عقوق الوالدين.

ولهذا، كان لا بد أن نحافظ على الصلوات الخمس فى أوقاتها كما أمر الله تعالى فى قرآنه الكريم فقال:

﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾(١).

وذلك حتى نؤكد إيماننا، وحتى نفوز كذلك بالفلاح والنجاح والصلاح الذى لن يتحقق إلا بها وبأدائها على أكمل وجه. وحتى نفوز كذلك بفوائدها التى منها:

أنها تربى الناس على النظام والنشاط، وتعودهم حفظ المواعيد والأوقات، وتريهم كيف أن الاتحاد فى الصف يساعد على الاتحاد فى القلوب، والصف فى الحرب.

زد على ذلك النظافة والطهارة التى تصبح بتعود الصلاة خُلُقًا وطبيعة فى النفس.

ولا تنس وجود المرء فى جماعة المصلين، فإنه بهذا يشعر دائمًا أنه قوى بإخوانه ويألف الجماعة التى هى أساس التعاون على كل خير.

وفوق هذه الفوائد فائدة اتصال العبد بربه بالوقوف بين يديه يتلو آياته ويتدبرها، ويقوم ويجلس ويفعل كل أمور الصلاة وهو يعلم أن الله تعالى

(١) سورة البقرة: ٢٣٨.

مراقبه ومُطَّلِعٌ عليه فيتربى فى نفسه الخوف من الله تعالى وحب إرضائه، وبالمحافظة على الصلاة بهذا الشكل تكون النتيجة منها أنه تبعد صاحبها عن المنكرات، قال تعالى:

﴿ ... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾(١).

فبالصلاة تصلح الأخلاق وتنظف الأجسام والأثواب والأمكنة، ويكون النشاط والنظام والتعاون، وتتأصل كل مبادئ الخير فى النفس، وبها يستعين الناس على كل عمل من أعمال الدنيا، ويستعدون للقيام بكل شأن من شئون الاجتماع، قال تعالى:

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾(٢).

ولهذا لا يستغنى عنها عامل فى هذه الحياة،

وقد تركها بعض الناس لما جهل حكمتها، وفهم أنها عبارة عن حركات لا معنى لها، ورأى كثيراً من المصلين لم تتحسَّن أخلاقهم، ولم تتنظَّف أجسامهم ولم يتعوَّدوا نظامًا ولا محافظة على موعد، وفات هذا الجاهل أن هؤلاء المصلين هم الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾(٣)

فهم يصلون، ولكن لا يعلمون معنى للصلاة؛ لأنهم ورثوها بالتقليد عن

---

(١) سورة العنكبوت ـ من الآية: ٤٥ .

(٢) سورة البقرة: ٤٥و٤٦ .

(٢) سورة الماعون ـ من الآية: ٤ ـ ٧ .

آبائهم أو لُقِّنُوها تلقينًا جافا بعدد الشروط والأركان من غير أن يتدبَّروا ما فيها من القرآن، ويعتبروا بما فيها من التكبير والتسبيح والحركات والقيام والجلوس والركوع والسجود، فجهلهم بكل هذا، وإعراضهم عنه جعلهم ساهين عن الصلاة، لا يخشعون ولا يفلحون.

قال تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾(١)

وحكمة مجيء اللغو هنا الإعلان بأن الصلاة التى لا خشوع فيها تكون لغوًا لا قيمة لها، ولا ينتظر إصلاح منها.

هذا، وإن حكمة التوقيت فى الصلاة، هى أن الناس كلما اشتغلوا فى الدنيا وقتًا رجعوا إلى الصلاة وقتًا ليمسحوا ما علق بنفوسهم من وسخ الجو، ويحصنوها بذكر الله، فيعدوها للإحسان والتقوى فى العمل، وهكذا، فلا تتمكن مشاغل الدينا من نفوسهم، ولا يتغلب عليها ما يحيط بها من رداءة البيئة وسوء المخالطين والمعاشرين.

ولهذا كانت الصلاة بمواقيت، وكانت المحافظة عليها ضرورية لكل إنسان وكل من يُقيمها كما يريد الله تعالى منها، يكون مستعدا بها لإقامة كل ما فيه سعادته الدنيوية والأخروية، فليفهم هذا أهل عصرنا الدين يريدون إصلاح الأمة واتحاد أفرادها، وتعديل أخلاقها، وليعلموا أن حكمة الله فى الصلاة كحكمته فى كل عبادة هى الوصول إلى توحيد الأعمال والحركات التى تتوحد بها الأعمال والمقاصد.

ولكى نفوز بكل هذه المقاصد التى تتوحد بها الأعمال، ولكى نكون فعلاً

---

(١) سورة المؤمنون: ١ ـ ٣.

من المصلين الخاشعين، لا بُدَّ أن نهتدى فى صلاتنا بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاته. . وهو كما جاء فى: (زاد المعاد)[1]، أنه:

كان إذا قام إلى الصلاة قال: (الله أكبر) ولم يقل شيئًا قبلها ولا يلفظ بالنية البتة، ولا قال: أُصلى لله صلاة كذا مستقبل القبلة أربع ركعات إمامًا أو مأمومًا، ولا قال: أداءً ولا قضاءً، ولا فرض الوقت، وهذه عشر بدع لم ينقل عنه أحد قط بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مسند ولا مرسل لفظة واحدة منها البتة، بل ولا عن أحد من أصحابه، ولا استحسنه أحد من التابعين ولا الأئمة الأربعة.

وكان يرفع يديه مع التكبير ممدودة الأصابع إلى المنكبين أو الأذنين، ثم يضع اليمنى على ظهر اليسرى فوق صدره، كذا فى صحيح ابن خزيمة، ثم يشرع فى دعاء الاستفتاح، وذلك مرويٌّ من عدة وجوه صحيحة:

(الأول) رواية أمير المؤمنين على رضى الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة قال: (وَجَّهْتُ وَجْهِىَ للذى فَطَرَ السمٰوات والأرضَ حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أُمِرْتُ وأنا أول المسلمين. اللهم إنك أنت اللهُ الملكُ، لا إلهَ إلا أنتَ ربى وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسى، واعترفتُ بذنبى، فاغفر لى ذنوبى جميعًا، إنه لا يغفرُ الذنوبَ جميعًا إلا أنت، واهْدنى لأحسنِ الأخلاقِ، لا يهدى لأَحْسَنِها إلا أنت، واصرف عنى سَيِّئَها، لا يصرف عنى سَيِّئَها إلا أنتَ، لبيْك وسعديْك، والخير كله بيديْك، والشرُّ ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركتَ وتعاليتَ، أستغفرُك وأتوبُ إليك).

---

(١) بتصرف وإضافات من كتب السنة الصحيحة.

(الثانى) حديث أبى هريرة رضى الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسكتُ بين التكبير والقراءة، فقلت: بأبى وأمى، أسُكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: (أقول: اللهم باعِدْ بينى وبين خطاياى كما باعدتَ بين المشرقِ والمغربِ، اللهم نَقِّنى من خطاياى كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَس، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماءِ والثَّلْجِ والبَرَدِ).

(الثالث) حديث عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استفتح الصلاة قال: (سبحانكَ اللهمَّ وبحمدِك، وتبارك اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلـهَ غيرُك)

رواه أصحاب السنن.

وصح عنه عمر أنه كان يستفتح به فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم، ويجهر به، ويعلمه الناس.

(الرابع) ورد فى حديث آخر أنه كان يقول: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمدُ لله كثيراً، الحمدُ لله كثيراً، الحمدُ لله كثيراً، سبحان الله بُكْرَةً وأصيلاً، سبحانَ اللهِ بُكْرَةً وأصيلاً، سبحان الله بكرة وأصيلاً، اللهمَّ إنى أعوذُ بك من الشيطانِ الرجيم، ومن هَمْزِهِ ونَفْخِه ونَفْثِه).

(الخامس) ورد فى رواية أخرى: (الله أكبر، عشر مرات، ثم يُسبح عشراً، ثم يحمد عشراً، ويهلل عشراً، ويستغفر عشراً، ثم يقول: اللهم إنى أعوذُ بك من ضِيق المقام يومَ القيامةِ عشراً).

(السادس) ورد فى رواية صحيحة أنه كان يقول بعد التكبير (اللهمَّ باعِدْ بينى وبين خطاياىَ كما باعدتَ بين المشرقِ والمغرب، اللهم اغسلنى من خطاياىَ بالماءِ والثَّلْج والبَرَدِ، اللهم نَقِّنى من الذنوبِ والخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضَ من الدنس).

(السابع): (اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السموات والأرضِ عالم الغيبِ والشهادة أنت تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، فإنك تهدى من تشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ).

(الثامن) من الروايات أنه كان يقول بعد التكبير: (اللهمَّ لك الحمدُ، أنتَ نورُ السموات والأرضِ ومَنْ فيهنَّ، ولك الحمدُ، أنت مَلِكُ السموات والأرضِ ومَن فيهن، ولك الحمدُ، أنت الحقُّ ووعدُك الحقُّ وقولُك حَقٌّ، والجنةُ حَقٌّ، والنارُ حَقٌّ، والنبيون حَقٌّ، والساعةُ حَقٌّ).

وبعد هذه الأذكار يقول:

(أعوذُ باللهِ من الشيطان الرجيم) ثم يقرأ الفاتحة، وكان يجهر بالبَسملة فى بعض الأوقات ويخفيها فى بعض الأوقات.

* وكان يقرأ مرتبًا مرتِّلاً، ويقف عند آخر كل آية، ويمد آخر الكلمة ويقول: (آمين) بعد فراغ الفاتحة، يجهر بها فى الصلاة الجهرية، ويخفيها فى السرية، ويوافقه فى التأمين المقتدون بأسرهم.

وكان يراعى سكتتين فى الصلاة: سكتة بين التكبيرة وقراءة الفاتحة، وسكتة ثانية بين فراغه من الفاتحة وقراءة السورة، وجاء فى بعض الروايات أنه كان يسكت بين القراءة والركوع، فتكون هذه سكتة ثالثة، لكنها كانت فى غاية اللطف والقلة.

* وكان يقرأ فى صلاة الصبح بعد الفاتحة سورة مطولة مقدار ستين آية أو مائة آية، وأحيانًا يقرأ سورة (ق) وأحيانا يقرأ سورة (الروم) وأحيانا يخفف إلى حد أنه كان يقتصر على قراءة (إذا زُلْزِلَت) وأحيانًا (بالمُعَوِّذَتَيْنِ).

* وكان فى السفر يقرأ أحيانًا (إذا الشمسُ كُوِّرَتْ).

وكان يقرأ فى صلاة فجر يوم الجمعة سورة (الٓمٓ تنزيل) السجدة، فى الركعة الأولى، و(هل أتى) فى الركعة الثانية. وتخصيص يوم الجمعة بقراءة هاتين السورتين لأنهما اشتملتا على ذكر المبدأ والمعاد، وخلق آدم، ودخول الجنة والنار، وغير ذلك مما كان ويكون يوم الجمعة؛ لأن القيامة تكون فيه، فلا جرم أن يذكر الأمة هذا المعنى بقراءة هاتين السورتين.

* كما أنه كان يقرأ فى المحافل الكبار، والمجامع المعظمة كالأعياد والجمعة بسورة (ق، واقتربت، وسبح، والغاشية)

* وكان لا يعين سورة فى الصلاة بعينها لا يقرأ إلا بها، إلا فى الجمعة والعيدين، وأما سائر الصلوات، فقد ذكر أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال: ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم الناس بها فى الصلاة المكتوبة.

وأما صلاة الظهر، فكان يطولها، بحيث إنه كان فى بعض الأحيان بعد إقامة صلاة الظهر يسير الماشى إلى قُباء، ويرجع إلى الصلاة ولم يكن ركع فى الركعة الأولى،

* وكان يقرأ أحيانًا فى الركعة الأولى مقدار (الٓمٓ تنزيل) السجدة، وحينًا (سبح اسم ربك الأعلى) أو (والسماء ذات البروج) أو (والليل) أو (الانشقاق) أو (والسماء والطارق) وما أشبه ذلك.

* وأما صلاة العصر، فكانت مقدار نصف صلاة الظهر فى الطول، وأحيانًا أخف من ذلك.

* وأما صلاة المغرب، فكان يطولها أحيانًا، بحيث إنه كان يقرأ سورة (الأعراف) فى الركعتين، يقرأ فى كل ركعة نصفًا، وحينًا يقرأ سورة

(الصافات)، وسورة (حٓمٓ) الدخان، وحينا (سبح اسم ربك الأعلى) وحينًا (والتين) وحينًا (المعوذتين) وحينًا (المرسلات) وحينًا قصار المفصل، وقد صحت الروايات بهذا المجموع، والسنة ألا يواظب على نمط واحد من تطويل وتقصير، بل يطول حينًا، ويقصر حينًا بحسب الحال والوقت.

وأما صلاة العشاء فقد عين لمعاذ سورة (الشمس، وسبح اسم ربك الأعلى، أو والليل) ومنعه من قراءة البقرة ونحوها وزجره، وقال له صلى الله عليه وسلم: (أَفَتَّان أنت يا معاذ؟) وفى بعض الأحاديث عين له والسمٰوات، يعنى (إذا السماء انفطرت، والانشقاق، والبروج، والطارق).

* وأما صلاة الجمعة فإنه كان يقرأ فى الأولى سورة (الجمعة) وفى الثانية سورة (المنافقين) وحين التخفيف يقرأ (سبح اسم ربك الأعلى، والغاشية)، أما قراءة آخر سورة الجمعة فى الركعة الأولى، وآخر سورة المنافقين فى الثانية فمخالف للسنة.

* وأما صلاة العيد فكان يقرأ فيها سورة (ق) وسورة (اقتربت) وقد يقرأ (سبح اسم ربك الأعلى، والغاشية) وعلى هذا واظب إلى آخر عمره، لا جرم أن الخلفاء الراشدين ساروا على طريقه، فكان الصِّدِّيق رضى الله عنه يقرأ فى صلاة الصبح (سورة البقرة) وأمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنه كان يصلى الصبح حينًا (بيوسف، والنحل) وحينًا (بهود ،وبنى إسرائيل)

ولو نسخت إطالة الصلاة لما فعلها الخلفاء الراشدون

وفى حديث أنس «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أخفَّ الناسِ صلاةً فى تمام»

والمراد من هذا الحديث أن طول صلاته بالنسبة إلى صلاة غيره كان قليلاً إلى الغاية كمعاذ مثلاً، فإنه كان يقرأ فى صلاة العشاء (سورة البقرة) والتخفيف أمر نسبى

وفى سنن النَّسائى ثبت أن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا (بالصافات) فقراءة (والصافات) فى الصلاة من باب التخفيف الذى أمر به الصحابة، ولم يعين شيئا من السور لشىء من صلوات سوى الجمعة والعيدين

قال عبد الله بن عمر: ما من سورة من طوال المفصل وقصاره إلا وقد سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها فى صلاة الفريضة.

* وكان يقرأ السورة بتمامها غالبًا، وفى النادر كان يقرأ بعض السورة لبيان الجواز، وحيثما اقتصر على بعض السورة كان أولها، فأما قراءة آخر السورة وأوسطها فإنه لم يرد.

وكان يطول الركعة الأولى على الثانية دائمًا،

* وكان يطيل صلاة الصبح على ما سواها من الصلوات؛ لأن النزول الربانى فى ثلث الليل الأخير باقٍ إلى انقضاء صلاة الصبح، وبعضهم يقول: إلى طلوع الفجر، وكلاهما مروى، وبعض المشايخ يقول: لما كان فى عدد ركعات الصبح نقص كمل بالتطويل، أو لأنها وقعت بعد الراحة بنوم الليل، أو لأنها فى وقت ليس فيه اشتغال بأمر المعاش والدنيا، وفيه يتواطأ القلب واللسان والسمع، ويسهل فيه تدبر القرآن، لا جرم تعين صرف تمام العناية إلى التطويل والتكميل.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من القراءة سكت قليلاً، ثم كبر ورفع يديه وركع، وثَبَّتَ كفيْه على ركبتيه، وجافى مرفقيه عن جنبيه، وسَوَّى ظهره ورأسه من غير رفع ولا تنكيس، وقال: (سبحان ربى العظيم) ثلاثًا، وفى بعض الأحيان كان يضم إلى ذلك (سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك، اللهمَّ اغفر لى) وقد يقتصر على هذا، وطول ركوعه فى الغالب كان قدر قول

القائل: (سبحان ربى العظيم) عشر مرات، والسجود قريب من ذلك، وأما حديث البراء فى الصحيحين: رمقت الصلاةَ خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان قيامُه وركوعُه واعتدالُه وسجدتُه وجِلْسَتُه ما بين السجدتين قريبًا من السواء - فإنه محمول على أنه كان يطول الركوع والسجود حيث كان القيام طويلاً، ويخفف الركوع والسجود حيث كان خفيفًا، وهذا التأويل متعين؛ لأنه كان أحيانًا يقرأ سورة (الأعراف) فلو كان الركوع، والسجود والجلسة مقدار ذلك لتمت الصلاة فى نصف الليل، لكن فى الصحيح أنه كان ركوعه وسجوده فى بعض الأحيان قريبًا من القيام كما فى صلاة الخسوف والكسوف، وفى التهجد أحيانًا، إلا أنه كان غالب حالة الاعتدال كما بَيَّنَّاه، وكثيرًا ما كان يقول فى ركوعه وسجوده: (اللهمَّ لك ركعتُ، ولك خشعتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، ولك أسلمتُ، خشع لك سمعنى وبصرى ومُخِّى وعصبى وعظمى) وهذا كان فى صلاة التهجد.

* وكان إذا رفع رأسه من الركوع رفع يديه وقال: (سمع الله لمن حمده)، وقد ثبت رفع اليدين فى هذه المواضع الثلاثة، ولكثرة رواته شابَهَ المتواتر، فقد صح فى هذا الباب أربعمائة خبر وأثر، ورواه العشرة المبشرون بالجنة، ولم يزل على هذه الكيفية حتى رحل عن هذا العالم، ولم يثبت شيء غيرها.

* وكان إذا رفع رأسه من الركوع استوى قائمًا، وكذا بين السجدتين، وقال: لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه فى الركوع والسجود.

وكان فى بعض الأحيان إذا رفع رأسه من الركوع قال: (ربنا ولك الحمد) أو قال: (اللهم ربنا لك الحمد) وكلاهما صحيح، لكن الجمع بين اللهم والواو لم يثبت،

* وكان يطول هذ الركن مقدار الركوع غالبًا، وأحيانًا كان يقول: (سمع الله لمن حمده، اللهم ربَّنا لك الحمدُ ملءَ السمٰوات وملءَ الأرضِ وملءَ ما

شئتَ من شيء بَعْدُ، أهلَ الثناء وأهلَ المجد، أحقُّ ما قال العبدُ، وكلُّنا لك عبدٌ، لا مانع لِمَا أعطيتَ، ولا مُعْطِيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ) وأحيانا يقول: (اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبَرد، ونَقِّنى من الذنوب والخطايا كما نَقَّيْتَ الثوبَ الأبيضَ من الدنسِ، وباعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب) وأحيانا يقول: (لربِّىَ الحمدُ، لربى الحمدُ) يكررها مقدار الركوع، وفى بعض الأحيان كان يطول الاعتدال حتى تظن الجماعة أنه نسى، وكذا فى السجود، فقد كان يطول فى بعض الأحيان حتى يظن المأموم أنه قد نسى هذا الذى من عادته فى الركوع والسجود صلى الله عليه وسلم.

* وحيث البراء بن عازب، قال: كان ركوعه وسجوده بين السجدتين، وإذا رفع رأسه من الركوع ما خلا القيام والقعود قريبًا من السواء صريح فى التسوية بين قيام القراءة وقعود التشهد فى الطول وبين سائر الأركان فى الطول والقصر وليس المراد القيام بعد الركوع، وتخفيف هذين الركنين - أعنى الاعتدال والجلسة بين السجدتين - وتقصيرهما من محدثات بنى أمية، ولم تكن من العادات النبوية بوجه من الوجوه.

* وكان صلى الله عليه وسلم إذا هوى ساجدًا لم يرفع يديه، والذى ورد فى بعض الأحاديث أنه كان يرفع يديه فى كل خفض ورفع سهو، والرواية الصحيحة أنه كان يكبر فى كل خفض ورفع.

* وكان يضع ركبتيه على الأرض قبل يديه، ثم يضع يديه، ثم جبهته وأنفه على ترتيب البدن.

وأما حديث أبى هريرة الذى رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير، وليضع يديه قبل ركبتيه حال البروك) والذى قال: ركبة البعير فى يديه وَهْمٌ وغلط، وخالف قول أئمة

اللغة، والصواب أنه نهى عن التشبه بالحيوانات وقال: (لا تبركوا بروك البعير، ولا تلتفتوا التفات الثعلب، ولا تفترشوا افتراش السبع، ولا تُقْعُوا إقعاء الكلب، ولا تنقروا نقر الغراب، ولا ترفعوا أيديكم فى حال السلام كأذناب الخيل الشمس، واجتنوا جميع ذلك)

وجاء فى رواية أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سجد أحدكم فليبدأ بركبتيه قبل يديه، ولا يبرك بروك الفحل)

وفى صحيح ابن خزيمة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد بدأ بركبتيه، وفى رواية سعد: كنا نضع اليدين قبل الركبتين، فأمرنا بالركبتين قبل اليدين، وأكثر العلماء على ذلك إلا الإمام مالكًا والأوزاعى وطائفة من أهل الحديث، ولم يسجد النبى صلى الله عليه وسلم على كور عمامته أبدًا، بل كان يضع جبهته على التراب، أو على الطين والماء، أو على سجادة من سعف النخل، أو على مدبوغ،

* وكان إذا سجد وضع جبهته وأنفه على الأرض، وجافى يديه عن جنبيه، ووضع كفيه حذو منكبيه، وقال: (إذا سجدتَ فضع كفيْك، وارفع مرفقيْك)،

* وكان يفرج بين أصابعه فى الركوع، ويجمع بينها فى السجود، وكان يقول فى سجوده: (سبحان ربى الأعلى) ويأمر به، وبعد ذلك يقول: (سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك، اللهم اغفر لى، سبوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكةِ والروح، لا إله إلا أنت، اللهم إنى أعوذ برضاك من سَخَطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أُحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك، اللهم لك سجدتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، سجد وجهى للذى خلقه وصَوَّرَهُ وشَقَّ سمعَهُ وبصرَهُ، تبارك اللهُ أحسنُ الخالقين، الله اغفر لى ذنبى كلَّه، دِقَّهُ وجُلَّه، أولَه وآخرَه، علانيتَه وسرَّه، اللهم اغفر لى خطيئتى

وجهلى وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى، اللهم اغفر لى جَدِّى وهزلى، وخطئيتى وعَمْدى، وكل ذلك عندى، اللهم اغفر لى ما قدمتُ وما أخرتُ وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت إلـهى لا إلـه إلا أنت)

وفى بعض الأحيان كان يقول: (اللهم اجعل فى قلبى نوراً، وفى سمعى نوراً، وفى بصرى نوراً، وعن يمينى نوراً، وعن شمالى نوراً، وأمامى نوراً، وخلفى نوراً، وفوقى نوراً، وتحتى نوراً، واجعل لى نوراً).

وكان يؤكد الاجتهاد فى الدعاء حالة السجود، ويقول: (جديرٌ دعاءُ الساجد بالإجابة)

والدعاء على نوعين: دعاء ثناء وتمجيد، ودعاء طلب وسؤال. . والدعاء الذى كان يأتى به يشملهما. .

والاستجابة أيضًا على نوعين:

أحدهما: استجابة دعاء الطالب ببذل مطلوبه ومسئوله وقضاء حاجته

الثانى: أن يقابل على دعائه بثواب

وعلى كلا الوجهين فُسِّرَ قوله سبحانه:

﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(١)

والصحيح أنه شامل للنوعين، والله أعلم.

وكان صلى الله عليه وسلم يطول الركعات من صلاة الليل، بخلاف ركعات النهار، وربما قرأ فى ركعة واحدة سورة (البقرة) و (آل عمران) و(النساء)

(١) سورة البقرة ـ من الآية: ١٨٦.

أما عدد ركعات صلاة الليل فلم يزد على إحدى عشرة ركعة، ومن ثَمَّ اختلف العلماء فى أفضلية القيام والسجود:

قالت طائفة من العلماء: القيام أفضل؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطول صلاة الليل تطويلاً عظيمًا، ولو كان السجود أفضل لطوَّله، وأيضًا الذكر المشروع فى القيام أفضل الأذكار، فيكون ركنه أفضل الأركان، وأيضا ورد فى الحديث الصحيح: (أفضلُ الصلاةِ طولُ القنوتِ) المراد بالقنوت القيام.

وقالت طائفة من العلماء: السجود أفضل؛ لما ورد فى الحديث الصحيح: (أَقْرَبُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ) وقال فى موضوع آخر: (ما مِنْ عَبْدٍ يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه بها خطيئة)

وقال ربيعة الأسلمى: يا رسولَ الله، إنى أتمنى مرافقتك فى الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: (أَعِنِّى على نفسك بكثرة السجود)، وأيضا أول سورة أنزلت من القرآن المجيد (اقرأ) وختمها بالسجود، وأيضًا فى السجود دلالة على زيادة الخضوع والعبودية دون غيره من الأركان، والسجود سر العبودية؛ لأن العبودية هى الخضوع والذلة، وهى فى السجود أزيد وأظهر.

وقالت طائفة من العلماء: طول القيام فى الليل أفضل، وكثرة الركوع والسجود فى النهار أفضل؛ لاختصاص عبادات الليل بالقيام، قال الله تعالى:

﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ ﴾[1] وقال صلى الله عليه وسلم: (من قام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبِه)

---

(١) سورة المزمل - من الآية: ٢.

وبعض العلماء يقول بتساوى هذين الركنين فى الفضل، ففضيلة القيام بقراءة القرآن، وفضيلة السجود بهيئة التذلل والخشوع، فذكر القيام أفضل من ذكر السجود، وهيئة السجود أفضل من هيئة القيام.

* وكان صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من السجدة الأولى رفع رأسه، وجلس بين السجدتين مقدار سجوده، ثم قال: (رَبِّ اغفر لى، رب اغفر لى، اللهم اغفر لى وارحمنى واجْبُرْنى واهْدِنى وارْزُقْنى) وأحيانًا كان يُطَوِّل هذه الجلسة حتى يُظَنَّ أنه نسى، ولم يكن يقوم بعد السجدة الثانية ما لم يجلس على الأرض، والفقهاء يسمون هذه جلسة الاستراحة، وحملها بعضهم على السنة، وبعضهم على الحاجة، فلا تُسن فى حق من لم يَحْتَجْ إليها.

* وكان إذا قام شَرَعَ فى القراءة من غير توقف، والسكتة التى فعلها فى الركعة الأولى لم يفعلها فى سائِر الركعات.

* وكان يصلى الثانية والثالثة والرابعة كالأولى إلا فى: السكتة، ودعاء الاستفتاح، وتكبيرة الإحرام، والتطويل فيها مختص بالركعة الأولى.

* وكان إذا جلس للتشهد افترش رجله اليسرى فجلس عليها، ونصب اليمنى، ووضع يده على فخذه اليمنى، وعقد أصابعه عقد ثلاث وخمسين، ورفع أصبُعه المسبحة وحركها.

وكان يُخَفِّفُ التشهد الأول، وبعد قيامه من التَشَهُّد كان يرفع يديه ويكبر، ثم يشرع فى القراءة، ويقتصر على الفاتحة فى الثالثة والرابعة غالبًا. وقد يقرأ سورة مختصرة على سبيل النُّدْرَة. وإذا جلس للتشهد الأخير جعل رجله اليسرى تحت رجله اليمنى، وقوى المقعدة على الأرض، وهذه الكيفية لم تكن فى الجلسة الأولى أصلاً، وللعلماء فى هذه الكيفية أقوال:

قال بعضهم: يتورك فى التشهدين، وهو مذهب الإمام مالك، وقال بعضهم يفترش فيهما، ينصب اليمنى ويفترش اليسرى ويجلس عليها، وهو مذهب الإمام أبى حنيفة، وبعضهم يقول: يتورك فى كل تشهد يسلم عقبه ويفترش فيما عداه، وهذا مذهب الإمام الشافعى، وبعضهم يقول: كل صلاة فيها تشهدان يتورك فى الآخر ليفرق بين الجلوسين، وهذا مذهب الإمام أحمد.

والأئمة الأربعة رضى الله تعالى عنهم افترقوا فى هذه المسألة على أربعة أقوال، ووافق كل واحد منهم جماعة من الصحابة والتابعين، وأكمل سياق ورد فى بيان صفة صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث أبى حميد الساعدى فى صحيح ابن حبان وصحيح مسلم، قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة كَبَّر، ثم رفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيْه، ويقيم كل عضو فى موضعه، ثم يقرأ، ثم يرفع يديْه حتى يحاذى بهما منكبيْه، ثم يركع، ويضع راحتيه على ركبتيه معتدلاً لا يصوب رأسه ولا يقنعُ به، ثم يقول: (سمع الله لمن حمده) ويرفعُ يديْه حتى يحاذى بهما منكبيْه حتى يقرَّ كلُّ عظمٍ إلى موضعه، ثم يهوى إلى الأرضِ ساجداً، ويجافى يديْه عن جنبيه، ثم يرفعُ رأسَهُ ويثنى رجليْه فيقعد عليهما، ويفتحُ أصابعَ رجليْه إذا سجدَ، ثم يسجدُ، ثم يُكَبِّرُ ويجلسُ على رجله اليسرى حتى يرجعَ كلُّ عظم إلى موضعه، ثم يقومُ فيصنعُ فى الأخرى مثل ذلك، ثم إذا قام من الركعتين كَبَّر ورفع يديْه حتى يحاذىَ بهما منكبيه كما صنع عند افتتاح الصلاة، ثم يصلى بقية صلاته هكذا إذا كانت السجدة التى فيها التسليم أخرج رجليْه وجلسَ على شقِّه الأيسر متوركًا، وفى صلاة الصبح كان يَقْنُتُ حينًا، ويترك حينًا، وبسم الله الرحمن الرحيم كان يجهر بها حينًا، ويخفيها حينًا، وكان يُسِرُّ فى الظهر والعصر، وقد يرفع صوته قليلاً فى بعض الآيات. بحيث يسمعه المؤتمون، ولم يكن يلتفت فى الصلاة،

وقال: (هو اختلاسٌ يختلسُه الشيطان) وقال: (اجتنبوا الالتفاتَ فى الصلاةِ فإنه هلاكٌ، وإذا لم يجد بدا من الالتفات فليكن فى صلاةِ النافلةِ)

وأما قول ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: يَلْحَظُ فى الصلاة يمينًا وشمالاً ولا يلوى عنقه خلف ظهره، وإن كان فى جامع الترمذى - فهو غريب ولم يثبت.

سأل شخص الإمام أحمد، فقال: بعض أهل الحديث يروون بإسناد أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم كان يلحظ فى الصلاة ولا يلتفت. فأنكر عليه الإمام أحمد ذلك إنكارًا عظيمًا، وتغير لونه، وارتعش، وقال هذا حديث ليس له إسناد، لكن قد ثبت أنه كان فى بعض أسفاره وقد أرسل فى جهة العدو شخصًا ليطالعه بأخبارهم، واشتغل بالصلاة، وكان يلتفت إلى جهته فى أثناء الصلاة، وهذا على سبيل الندرة وفى صلاة النافلة ولمهم دينى، ومصلحة أهل الإسلام منوطة به، وهو من باب تداخل العبادات؛ لأنه اشتغل فى أثناء الصلاة بالجهاد، وصلاة الخوف تشبه هذا المعنى، وكان عمر رضى الله عنه يقول: إنى لأجهز جيشى وأنا فى الصلاة.

وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ التحيات بعد كل ركعتين، وكان يدعو فى سبعة مواطن:

الأول : عقيب تكبيرة الإحرام كما ذكرناه.

الثانى: قبل الركوع وبعد الفراغ من القراءة وذا فى الوتر.

الثالث: بعد الاعتدال من الركوع كان يقول: (سمع الله لمن حمده، ربَّنا لك الحمدُ، ملءَ السموات وملءَ الأرضِ وملءَ ما شئتَ من شىءٍ بعد، اللهم طَهِّرنى بالثَّلْجِ والبَرَدِ والماءِ البارد، اللهم طَهِّرنى من الذنوب والخطايا كما يُنَقَّى الثَّوْبُ الأبيضُ من الدَّنَس.

الرابع: فى حال الركوع كان يقول: (سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدِك، اللهم اغفر لى.

الخامس: فى السجود، وفى الغالب كان يدعو فى السجود كما بيَّنا.

السادس: بين السجدتين كما قلنا.

السابع: بعد التشهد قبل السلام.

أما الدعاء الذى يفعله الأئمة بعد السلام فإنه لم يكن من عادة النبى صلى الله عليه وسلم، ولم يثبت فى هذا الباب شىء من الأحاديث...

وجميع أدعية الصلاة كانت فى نفس الصلاة، وبذلك أمر، وبعض أئمة العلم يقول: الذكر والتهليل والتسبيح والتمجيد عند الفراغ من الصلاة مشروع بلا خلاف.

ويستحب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم، فناسب أن نعقب ذلك بالدعاء وطلب الحاجات من حضرة ذى العزة سبحانه وتعالى.

* وقد أشار فى (زاد المعاد) إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه (كما ورد فى الصحيح):

* كان إذا سجد وضع ركبتيه قبل يديه، وإذا نهض رفع يديه قبل ركبتيه، ولم يُرْوَ فى فعله ما يخالف ذلك.

* وكان إذا سجد مكَّن جبهته وأنفه من الأرض، ونَحَّى يديْه عن جنبيه، وجَافَى بهما ووضعهما حَذْوَ منكبيْه وأُذنيْه ـ وفى صحيح مسلم: (إذا سجدتَ فَضَعْ كفيْك، وارفع مرفقيْك) وكان يعتدل فى سجوده ويستقبل بأطراف أصابع رجليْه القبلةَ، وكان يُفرِّجُ بينهما ولا يقبضهما، وفى صحيح ابن حبان: كان إذا ركع فرج أصابعه، فإذا سجد ضم أصابعَهُ.

* وكان يقول: (سبحان ربى الأعلى، سبحانك اللهم ربّنا وبحمدك، اللهمَّ اغفر لى، ويقول: اللهمَّ إنى أعوذُ برضاك من سَخَطِك وبمُعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أُحْصى ثناءً عليك، أنت كما أَثْنَيْتَ على نفسك) ويقول: (اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنتَ أعلَمُ به منِّى، اللهمَّ اغفر لى جِدِّى وهَزْلى وخطئى وعَمْدى، وكل ذلك عندى، اللهمَّ اغفر لى ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت إلـهى، لا إلـه إلا أنت).

* وكان إذا أطال القيامَ أطال الركوعَ والسجود، وإذا خفَّف القيام خفف الركوع والسجود.

* وكان يرفع رأسه مُكَبِّرًا، ثم يجلس مفترشًا رجله اليسرى، ناصبًا اليمنى، واضعًا يديه على فخذيه، جاعلاً مرفقه على فخذه، وطرف يده على ركبتيه، ثم يقبض ثنتين من أصابعه، ويحلق حلقة، ثم يرفع أصبعه يدعو بها ويحركها. هكذا قال وائل بن حجر فى الحديث الصحيح الذى ذكره أبو حاتم.

* وكان إذا نهض أخذ فى القراءة من غير سكتة، ثم يقصر الركعة الثانية عن الأولى، فإذا جلس للتشهد وضع يده اليسرى على فخذه اليسرى، ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، وأشار بأصبعه السبابة، وكان يحنيها ويحركها، وكان يقبض أصبعين ـ وهما الخنصر والبنصر ـ ويحلق بالوسطى مع الإبهام، ويرفع السبابة ويدعو بها، ويرمى ببصره إليها، ويبسط الكف اليسرى على الفخذ اليسرى.

* وكان يفترش، كما تقدم: ففى الصحيح من حديث أبى حميد: فإذا جلس فى الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى، وإذا جلس فى الركعة الأخيرة قَدَّم رجلَه اليسرى ونصب اليمنى، وقعد على مقعدته.

* وكان يقول فى هذه الجلسة ويُعَلِّم أصحابه: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

* وكان يخفف هذا التشهد جدا ثم ينهض مُكَبِّراً رافعًا يديه.

* ولم يثبت أنه زاد فى القراءة عن الفاتحة بعد الركعتين الأوليين، أى فى الركعة الثالثة (فى صلاة المغرب) أو فى الركعة الثالثة والرابعة فى الصلاة الرباعية.

* ثم إذا جلس للتشهد الأخير زاد على التشهد الأول الصلاة عليه وآله، واستعاذ من عذاب القبر والنار، ومن فتنة المحيا والممات والمسيح الدجال.

* ومن جملة الأدعية التى كان يقرؤها فى الصلاة: (اللهمَّ اغفر لى ذنبى، ووسِّعْ لى فى دارى، وبارك لى فيما رزقتنى) ومنها أيضا: (اللهمَّ إنى أسألُك الثباتَ فى الأمرِ، والعزيمةَ على الرُّشْدِ، وأسألُك شُكْرَ نعمتك، وحُسْنَ عبادتك، وأسألُك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسألك من خَيْرِ ما تَعْلَمُ، وأستغفرُك لما تعلم) وكثيراً ما قال فى السجود: (رَبِّ أَعْطِ نفسى تقواها، زكها أنت خير مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها) وكان يقول فى التشهد الأخير، أى بعد الصلاة والسلام على الرسول وآله: (اللهمَّ إنى أعوذُ بك من فتنةِ المسيحِ الدجَّال، وأعوذُ بك من فتنة الـمَحْيا والمماتِ، اللهم إنى أعوذُ بك من الـمَغْرَم والـمَأْثَم)

* وجميع الأدعية التى كان يقولها فى الصلاة رويت بلفظ الإفراد، مثل: ربِّ اغفر لى وارحمنى واهدنى، ومثل: اغسلنى من خَطاياى بالماءِ والثلج والبَرَدِ، اللهم باعد بينى وبين خطاياى... وما أشبه ذلك.

(فإن قيل): ورد في حديث صحيح: (لا يؤم عبدٌ قومًا فيخص نفسه بدعوةٍ، فإن فعل فقد خانهم) (فالجواب) أن نقول: قال إمام أهل الحديث أبو بكر بن خزيمة في صحيحه: هذا الحديث موضوع ومردود، وقال بعض العلماء: إن ثبت هذا الحديث، فيكون المراد به دعاء ورد بلفظ الجمع مثل: اللهم اهدنا. . وغير ذلك.

* وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا انتهى من قراءة التشهد الأخير يسلم عن يمينه، السلام عليكم ورحمة الله، وعن يساره كذلك.

* وقد أشار كذلك فى (زاد المعاد) إلى بعض الملاحظات الهامة المتعلقة بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم فى الصلاة، فقال:

* وكان إذا قام فى الصلاة طأطأ رأسه ـ ذكره الإمام أحمد ـ ولم يغمض عينيه، بل كان ينظر إلى محل سجوده.

* وكان فى التشهد لا يجاوز بصره إشارته، وقد جُعِلَتْ قرة عينه فى الصلاة، فكان يقول: (أَرِحْنا بالصلاة يا بلال) أى: إذا طلب منه أن يقيم الصلاة.

* وكان يدخل فى الصلاة وهو يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبى، فيخففها؛ مخافة أن يشق على أمه.

* وكان يصلى وهو حامل أُمامة بنت أبى العاص بن الربيع ابنة بنته على عاتقه إذا قام حملها، وإذا ركع أو سجد وضعها.

* وكان يجىء الحسن أو الحسين فيركب ظهره المبارك، فيطيل السجود لأجله؛ كراهية أن يلقيه عن ظهره.

* وأحيانًا كانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ تأتى وهو فى الصلاة وقد أغلق الباب، فيخطو ليفتح الباب لها.

* وإرسل مرة فارسًا طليعة له، فقام يصلى، وجعل يلتفت إلى الشِّعْبِ الذى منه الفارس، ولكن لم يشغله كل ذلك عن مراعاة أحوال المأمومين وغيرهم مع إقباله وقربه من الله تعالى وحضور قلبه بين يديه.

* وكان يرد السلام بالإشارة على من يسلم وهو فى الصلاة، قال جابر: بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة، ثم أدركته وهو يصلى، فسلمتُ عليه، فأشار إلىَّ.

ذكره مسلم فى صحيحه.

* وفى السنن والمسند من حديث ابن عمر أنه كان يُشير بيده.

* وقال عبد الله بن مسعود: لما قدمت من الحبشة أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى، فسلمت عليه، فأومأ برأسه.

«ذكره البيهقى»

* وكان يصلى وعائشة معترضة بينه وبين القبلة، فإذا سجد غمزها بيده فقبضت رجلها، وإذا قام بسطتها.

* وكان يصلى إلى جدار فجاءه بهيمة تمر من بين يديه، فما زال يداريها ويدافعها حتى لصق بطنه بالجدار ومرت من ورائه.

* وروى الإمام أحمد وغيره أنه رأى جاريتين[1] تقتتلان، فأخذهما بيده، ونزع إحداهما من الأخرى وهو فى الصلاة، ولم ينصرف، (وقد كانتا من بنى عبد المطلب).

---

(١) أى فتاتين صغيرتين.

* وكان يبكى فى صلاته، ويتنحنح[1]، قال على بن أبى طالب: كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة آتيه فيها، فإذا أتيته استأذنت، فإن وجدته يصلى تنحنح فدخلت، وإن وجدته فارغًا أذن لى.

ذكره أحمد والنسائى.

وكان يصلى حافيًا تارة، ومتنعلاً أخرى، وأمر بالصلاة بالنعل مخالفة لليهود.

ولا يمنع من الصلاة بالنعل تعرضه للنجاسة، فإنه يطهر بالمسح فى الأرض.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا جاءَ أحدُكم إلى المسجد فليقلبْ نعليْه، ولينظرْ فيهما، فإن رأى خَبَثًا فَلْيَمْسَحْهُ بالأرضِ، ثم لْيُصَلِّ فيهما) رواه أحمد وأبو داود،

* وفى رواية: (إذا وطئ أحدُكم بنعلِه الأذَى فإن الترابَ له طَهُورٌ) رواه أبو داود

* وقد صلى النبى صلى الله عليه وسلم تارة بالنعل - كما عرفنا - بل وأمر بالصلاة بالنعل، كما قال البخارى وغيره من كتب السنة حتى قال أهل التفسير المأثور فى قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ... ﴾[2]

إن من الزينة لبس النعل فى الصلاة.

---

(١) لضرورة، بدليل الحديث الذى ذكره أحمد والنسائى، والذى سيأتى بعد. أما إذا كانت النحنحة لغير ضرورة وزادت عن الحد فإنها تبطل الصلاة.. والله أعلم.

(٢) سورة الأعراف - من الآية: ٣١.

* وكان قد يَصِلُ إلى آية السجدة وهو على المنبر، فيهبط إلى الأرض فيسجد، ثم يصعد.

* وكان يصلى فى ثوب واحد حينًا، وحيناً فى ثوبين.

* وكان يَقْنُتُ عند النوازل خاصة للدعاء لقوم، وللدعاء على آخرين، فإذا زال العارض ترك القنوت. ذكره البخارى ومسلم، وفيه أنه كان يقنت فى الفجر والمغرب، وذكر الإمام أحمد عن ابن عباس: قنت رسول الله شهرًا متتابعًا فى الظهرِ والعصرِ والمغربِ والعشاءِ والصبحِ فى دُبُرِ كلِّ صلاةٍ إذا قال: (سمع الله لمن حمده) من الركعة الأخيرة، ويدعو على حَىٍّ من بنى سليم، ويؤمِّنُ مَن خلفه، وقد ذكره أبو داود وغيره أيضًا، هذا الذى صح فى قنوته المقيد بالعوارض والطوارئ

* وأما ما ورد من القنوت الدائم، فإنما المقصود منه الدعاء والثناء الذى يذكر فى الوقوف لتطويله بعد الرفع من الركوع.

* وكان يقنت فى صلاة الصبح أحيانًا، ويترك أحيانًا.

قال أهل الحديث: قراءة القنوت فى صلاة الصبح سُنَّةٌ، وتَرْكُه سُنَّةٌ، ومع هذا لاينكرون على من يواظب على ذلك، ولا يعدونه مبتدعًا ولا مخالفًا للسنة، وكذا من ترك ذلك لا يعدونه مبتدعًا ولا تاركًا للسنة، بل يقولون: من قنت فقد أحسن، ومن ترك فقد أحسن، والدلائل على الطرفين كثيرة، ولما كان القصد بيان الطريقة النبوية اقتصرنا على ذلك..

** فلاحظ كل هذا ـ أخا الإسلام ـ ونفذه تشبهًا برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول فى الحديث الصحيح: (صَلُّوا كما رأيتمونى أصلى).

هديه صلى الله عليه وسلم
في سجود السهو

فمن جملة منن الحق تبارك وتعالى ونعمه على الأمة المحمدية أن النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهو معلمها وقدوتها ـ كان يسهو فى الصلاة أحيانًا؛ لتقتدى الأمة به فى التشريع، وإذ ذاك كان يقول صلوات الله وسلامه عليه كما ثبت عنه: (إنَّما أنا بَشَرٌ مثلُكم[1]، أَنْسَى كما تنْسَوْنَ، فإذا نسيتُ فَذَكِّرُونى) وقال: (إنما أَنْسَى أو أُنَسَّى) يعنى لأسُنَّ ما شُرِع فى حيز ذلك

وقد ثبت فى الصحيحين: أنه صلوات الله وسلامه عليه:

* كان فى صلاة الظهر، ولم يَشرع فى التشهد بل قام إلى الثالثة، فسبحت الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فأشار إليهم بيده أن قوموا، ولما فرغ من التشهد الثانى أتى بسجدتين، ثم سلم بعد ذلك[2]، فَعُلِمَ من هذا أن مَنْ نَسِىَ شيئًا من الصلاة غير رُكنٍ يسجد للسهو سجدتين، وإذا شرع فى ركن لايرجع إلى ما كان نسيه.

* ونوبة أخرى، فى صلاة العصر أو الظهر: سلم فى الركعة الثانية وتكلم، ثم تذكر، فأتم وأتى بسجدتين بعد السلام، وكبَّر بينهما، وسلم بعد ذلك أيضاً.

---

(١) بل نحن جميعاً قد ورثنا النسيان عن أبينا آدم، قال تعالى: (فنسى ولم نجد له عزمًا).

(٢) وفى رواية متفق عليها: يكبر فى كل سجدة وهو جالس قبل أن يسلم.

* وفى مسند الإمام أحمد أنه صلى فى بعض الأيام خرج من الصلاة وبقى منها ركعة، فلما خرج من المسجد خرج طلحة بن عبيد الله فى عقبه، وقال: قد نسيت ركعة، فرجع إلى المسجد، وأمر بلالاً بالإقامة، وصلى ركعة وسلم، ثم رجع.

* ونوبة أخرى صلى الظهر خمسًا، فقالت الصحابة: أَزِيدَ فى الصلاة؟

فقال: وما ذاك؟ فقالوا: صليت خمسًا، فسجد سجدتى السهو وسلم، واقتصر على ذلك.

متفق عليه.

* ونوبة أخرى: صلى صلاة العصر ثلاثًا، ورجع إلى البيت، فتعقبه الصحابة، وأعلموه، فرجع إلى المسجد، وصلى ركعة وسلم، وسجد بعد السلام للسهو سجدتين، ثم سلم واقتصر على ذلك.

** هذه خمسة مواضع رُوِىَ أنه صلى الله عليه وسلم سها فيها فى جميع عمره، ولم يثبت غير هذا. وسجد للسهو قبل السلام فى بعض المواضع، وبعده فى بعضها. فجعلها الإمام الشافعى فى كل حال قبل السلام، والإمام أبو حنيفة جعلها بعد السلام فى كل حال. وقال الإمام مالك: يسجد لسهو النقصان بعد السلام ولسهو الزيادة فى الصلاة قبل السلام.

* وإن اجتمع سهوان: أحدهما زائد، والآخر ناقص يسجد لهما قبل السلام.

* وقال الإمام أحمد: يسجد قبل السلام فى المحل الذى سجد فيه النبى صلى الله عليه وسلم قبل السلام، وما عداه يسجد للسهو بعد السلام،

* وقال داود الظاهرى: لا يسجد للسهو إلا فى هذه المواطن الخمس التى سجد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو سها فى غيرها لا يسجد

للسهو، ولم يعرض له صلى الله عليه وسلم الشك فى الصلاة، ولكن قال: مَنْ شَكَّ فَلْيَبْنِ على اليقينِ، ولا يعتبرِ الشكَّ، ويَسْجُدْ للسهوِ قبل السلام.

* وقال الإمام أبو حنيفة!

إن كان له ظنٌّ بنَىَ على غالب ظنه، وإن لم يكن له ظن بنى على اليقين.

* وقال الإمام مالك، والإمام الشافعى، والإمام أحمد: يبنى على اليقين مطلقاً.

وقد صح الكل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ففى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا شَكَّ أحُدكم فى صلاتِه فَلم يَدْرِ كم صلى ثلاثاً أم أربعاً، فليطرح الشك وَلْيَبْنِ على ما استَيْقَنَ، ثم يسجدُ سجدتيْن قبل أن يُسَلِّمَ) وفى الصحيحين فى قصة ذى اليدين أنه صلى الله عليه وسلم سجد بعدما سلم.

* والأفضل ـ كما عرفنا قبل هذا ـ وكما يقول فى (فقه السنة): متابعة الوارد فى ذلك، فيسجد قبل التسليم فيما جاء فيه السجود قبله، ويسجد بعد التسليم فيما ورد فيه السجود بعده، ويُخَيَّر فيما عدا ذلك.

* قال الشوكانى: وأحسن ما يقال فى هذا المقام أنه يعمل على ما تقتضيه أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم من السجود قبل السلام وبعده، فما كان من أسباب السجود مقيداً بقبل السلام سجد له قبله، وما كان مقيداً ببعد السلام سجد له بعده، وما لم يرد تقييده بأحدهما كان مُخَيَّراً بين السجود قبل السلام وبعده، من غير فرق بين الزيادة والنقص؛ لما أخرجه مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إذا زادَ الرجلُ أو نَقَصَ فَلْيَسْجُدْ سجدتيْن).

وأما عن السجود عند الشك فى الصلاة، فقد ورد: عن عبد الرحمن بن عوف قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا شَكَّ أحدُكم فى صلاته فلم يَدْرِ أواحدة صَلَّى أم ثنتين فَلْيَجْعَلْها واحدة، وإذا لم يدر ثِنْتَيْن صَلَّى أم ثلاثاً فليجعلْها ثنتين، وإذا لم يدر ثلاثاً صلى أم أربعًا فليجعَلْها ثلاثاً، ثم يسجد إذا فرغ من صلاته وهو جالس قبل أن يسلم سجدتين)

رواه أحمد، وابن ماجه، والترمذى وصححه.

وفى رواية: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مَنْ صَلَّى صلاةً يشكُّ فى النقصانِ فَلْيُصَلِّ حتى يَشُكَّ فى الزيادةِ).

وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا شَكَّ أحدُكم فى صلاته فلم يَدْر كم صَلَّى ثلاثاً أم أربعاً، فليطرح الشكَّ، ولْيَبْنِ على ما استيقنَ، ثم يسجدْ سجدتين قبل أن يُسَلِّمَ، فإن كان صلى خمساً شفعن له صلاته، وإن كان صَلَّى إتمامًا لأربع كانتا ترغيمًا للشيطان)

رواه أحمد ومسلم

وفى هذين الحديثين دليل لما ذهب إليه الجمهور من أنه إذا شك المصلى فى عدد الركعات بنى على الأقل المتيقن له، ثم يسجد للسهو.

** وأحب أن أضيف بعد هذا كلامًا ذكره صاحب كتاب: (سفر السعادة) بعد فصل تحدث فيه عن (نسيان الرسول صلى الله عليه وسلم فى الصلاة)، فقال:

* كان صلى الله عليه وسلم يفتح عينه المباركة فى الصلاة، ولم يكن يغمضهما كما يفعله بعض المتعبدين، وفى حديث أنس الذى أتى به البخارى فى صحيحه أن عائشة رضى الله عنها كان لها سِتْرٌ سَتَرَتْ به جانب البيتِ،

فقال: (بَعِّدُوا هذا السِّتْرَ فإنَّ تصاويرَه تُعارضني) وروى في حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم لبس ثوبا مُعَلَّمًا، وكان ينظر إلى أعلامه فى الصلاة، فلما فرغ قال: (اذْهَبُوا بثوبى هذا لأبى جَهْمٍ وَأْتُونى بالكساء الإنبجانى الذى له فإن أعلامَ هذا شغلْت خاطرى فى الصلاة) وحديث مشاهدة الجنة فى الصلاة وأنه صلى الله عليه وسلم مد يده ليتناول قطفًا من فاكهتها، وحديث رد السلام باليد، وحديث تَعَرُّضِ الشيطان، وأنه صلى الله عليه وسلم قبضه وخنقه، هذا المجموع رؤية العين، وهو دليل على عدم تغميض العين فى الصلاة، أما إذا عرض لشخص تفرقة وشتات فلا يكره له تغميض العين، بل هو إلى الاستحباب أقرب، والله أعلم.

هديه صلى الله عليه وسلم بعد تمام الصلاة

* وكان من الطبيعى أن تكون هناك كفارة لكل ما يحدث من الإنسان وهو يصلى من انشغالات قلبية بأمور الدنيا أو بأمر من أمورها التى كانت ولا تزال سببًا فى انصراف الناس عن الصلاة أو عدم الانتفاع بها.

ولهذا، فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثًا، وقال: (اللهمَّ أنت السلامُ ومنك السلامُ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ) ولم يمكث مستقبلَ القبلة إلا بمقدار ما يقول ذلك، بل يسرع الانتقال إلى المأمومين

* قال ابن مسعود: رأيتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كثيرًا ينصرفُ عن يسارِه.

«أخرجه الصحيحان»

وقال أنس: عن يمينه.

«أخرجه مسلم».

* وقال عبد الله بن عمر: رأيته ينفتل عن يمينه ويساره فى الصلاة، ثم كان يُقبل على المامومين بوجهه، ولا يخص ناحية منهم دون ناحية.

* وكان يقول دُبُرَ كلِّ صلاةٍ مكتوبة: (لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحمدُ، وهو على كل شيءٍ قدير)، وذكر ابن حبان فى صحيحه أنه أمر بها عشراً.

* ورى أبو حاتم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول عند انصرافه من صلاته: (اللهمَّ أَصْلِحَ لى دينى الذى جَعَلْتَهُ عصْمَةَ أمرى، وأَصْلِحْ لى دنياى التى جَعَلْتَ فيها معاشى، اللهم إنى أعوذُ برضاك من سخطِك، وأعوذُ بعفوِك من نقمتك، وأعوذ بك منك، لا مانعَ لما أعطيتَ ولا مُعْطِىَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدُّ)

* وفى سنن أبى داود عن أمير المؤمنين على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم من الصلاة قال: (اللهمَّ اغفر لى ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنتَ أعلم به مِنِّى، أنت المُقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، لا إلهَ إلا أنت).

* وفى مسند الإمام أحمد مروى عن زيد بن أرقم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول عقب كل صلاة: (اللهمَّ ربَّنَا وربَّ كل شيءٍ، أنت الربُّ وحدَكَ لا شريكَ لك، اللهم ربَّنا وربَّ كل شيءٍ، أنا شهيدٌ أنَّ العباد كلَّهم إخوةٌ، اللهمَّ ربَّنا وربَّ كل شيءٍ، اجعلنى مُخلصًا لك وأهلى فى كل ساعة من الدنيا والآخرةِ، يا ذا الجلالِ والإكرام، اسْمَعْ وَاسْتَجِبْ، اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، اللهُ نورُ السمٰوات والأرضِ، اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، حَسْبِىَ اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، الله أكبر، اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ.

وقال: (مُعَقِّباتٌ لا يخيبُ قائلُهنَّ دُبُرَ كل صلاةٍ مكتوبة: ثلاثًا وثلاثين تسبيحة، وثلاثًا وثلاثين تحميدة، وثلاثًا وثلاثين تكبيرة، وقال: تمام المائة: لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحَمْدُ وهو على كل شيءٍ قدير)

* وفى رواية أخرى: أربعًا وثلاثين تكبيرة، وذلك تمام المائة.

* وفى رواية: سبحان الله خمسًا وعشرين، والحمد لله خمسًا وعشرين، واللهُ أكبر خمسًا وعشرين، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير خمسًا وعشرين.

* وفى رواية أخرى: يسبحُ اللهَ عشراً، ويحمدُه عشراً، ويكبرُه عشراً.

* وفى رواية أخرى فى صحيح مسلم يقول: سبحان الله إحدى عشرة مرة، والحمد لله إحدى عشرة مرة، والله أكبر إحدى عشرة مرة، وهذا ثلاث وثلاثون، قال بعض العلماء: هذه الرواية إنما هى تفسير من بعض رواة هذا الحديث، عن أبى هريرة، وهم كانوا يسبحون ويحمدون ويكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين.

* وقال: (مَنْ قالَ فى دُبُرِ صلاةِ الصبحِ قبل أن يتكلم: لا إلهَ إلا اللهُ، وحده لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، يُحْيِى ويُميتُ وهو على كل شيءٍ قديرٌ، عشر مرات: كتب اللهُ له عشرَ حسناتٍ، ومحا عنه عشرَ سيئاتٍ، ورفع له عشرَ درجاتٍ، وكان يومَه ذلك فى حِرْزٍ من كلِّ مكروه، وحُرِسَ من الشيطانِ، ولم يَنْبَغِ لذنبٍ أن يُدْرِكَهُ فى ذلكَ اليوم إلا الشرك بالله تعالى - يعنى إن صدر منه ذنب يغفر له - .

* وثبت فى مسند الإمام أحمد من رواية أم سلمة رضى الله عنها، أنه صلى الله عليه وسلم عَلَّم ابنته فاطمة رضى الله عنها لما جات تسأله الخادم: أن تُسَبِّحَ عند النوم ثلاثًا وثلاثين، وتَحْمَدَ ثلاثا وثلاثين، وتُكَبِّرَ ثلاثا وثلاثين، وإذا صلت الصبحَ أن تقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كل شيءٍ قديرٌ، عشر مرات، وبعد صلاة المغرب عشر مرات.

* وكان يقول عقب صلاة الصبح: (اللهمَّ أَصْلِحْ لى دينى الذى هو عِصْمَةُ أمرى، وأَصْلِحْ لى دنياى التى جعلت فيها معاشى، وأصلحْ لى آخرتى التى جعلتَ فيها معادى، واَجْعَلِ الحياةَ زيادةً لى فى كل خير، واجعلِ الموتَ راحةً لى من كل شَرٍّ، اللهم إنى أعوذ برضاكَ من سخطكَ، وأعوذُ بعفوِك من نقمتك، وأعوذ بك منك، لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعْطِى لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ).

* وقال أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه: ما صليتُ خلفَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلا سمعتُه يقول: (اللهمَّ اغفر لى خطاياىَ وذنوبى كلَّها، اللهم أنعشنى وأَحْيِنى وارْزُقْنى واهْدِنى لصلاحِ الأعمال والأخلاقِ إنه لا يهدى لصالحها إلا أنتَ، واصرف عنى سيئَها، لا يصرفُ عنى سيئها إلا أنت)

وقال: (إذا صليتَ الصبح فقل قبل أن تتكلم: اللهمَّ أجرنى من النارِ، سبع مرات؛ فإنك إن متَّ من يومك كتب اللهُ لك جوارًا من النارِ، وإذا صليتَ المغرب فقل قبلَ أن تتكلم: اللهمَّ أجرنى من النار، سبع مرات، فإنك إن مِتَّ من ليلتِك كتب الله لك جوارًا من النار)

هذا الحديث فى صحيح ابن حبان.

* وفى سنن النسائى من رواية أبى أمامة: (من قرأ آية الكرسى) وزاد الطبرانى: (وقل هو الله أحد فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت)

وهذا الحديث رواه جماعة غير النسائى مثل الطبرانى، والدارقطنى، وابن حبان، وبعض الحفاظ يقول: هو صحيح، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات....

* وفى معجم الطبرانى: (من قرأ آيةَ الكُرْسِيِّ فى دُبُرِ الصلاةِ المكتوبةِ كان فى ذمةِ اللهِ إلى الصلاةِ الأخرى) وهذا الحديث رواه جماعة من الصحابة من جملتهم أمير المؤمنين عليٌّ، وجابرُ بن عبد الله، وعبد الله بن عمر، وأنس ابن مالك، والمغيرة بن شعبة، وأبو أُمامة.

واختلاف طريق الحديث ومخارجه دليل على أن له أصلاً صحيحًا غير موضوع.

* وروى عقبة بن عامر، قال: أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ بالمُعَوِّذَتَيْنِ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ) وهذا الحديث فى غاية الصحة،

* وقال لمعاذ بن جبل: (يا معاذُ، والله إنى لأُحِبُّكَ، ثم أوصيك: لا تدعنَّ فى دبر كل صلاةٍ تقول: اللهمَّ أَعِنِّى على ذكرِك، وشكرِك، وحُسْنِ عبادتِك).

* وفى معجم الطبرانى من حديث جابر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثٌ مَن جاء بهنَّ مع الإيمانِ دخلَ من أىِّ أبواب الجنةِ شاءَ، وزُوِّجَ من الحور العِين حيث شاء: من عفا عن قاتله، وأدى دينًا خفيا، وقرأ فى دُبُرِ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ عشرَ مراتٍ: قل هو الله أحد. فقال أبو بكر: أو إحداهن يا رسول الله؟

فقال: أو إحداهن.

وكان يقول بعد صلاة الصبح: اللهمَّ إنى أصبحتُ لا أستطيع دفعَ ما أكرهُ، ولا أملكُ نفعَ ما أرجو، وأصبح الأمرُ بيد غيرى، وأصبحتُ مُرْتَهَنًا بعملى، فلا فقيرَ أفقر منِّى، اللهمَّ لا تُشْمِتْ بى عَدُوِّى، ولا تسئ بى صديقى، اللهم لا تجعلْ مصيبتى فى دينى، ولا تجعلِ الدنيا أكبرَ هَمِّى، ولا مَبْلَغَ علمى، ولا تُسَلِّطْ عَلَيَّ مَنْ لا يرحمُنى، اللهمَّ بك أصبحْنا، وبك

أمسينا، وبك نحيا، وبك نموتُ، اللهم ما أصبحَ لى مع نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقك فمنك وحدَك لا شريك لك، فلكَ الحمدُ ولكَ الشكرُ. أصبحنا وأصبح المُلْكُ لله ربِّ العالمين، اللهمَّ إنى أسألُك خيرَ هذا اليوم: فَتْحَهُ ونَصْرَهُ ونورَه وبركتَه وهُداه، وأعوذ بك من شرِّ ما فيه، وشرٍّ ما بعده، اللهمَّ عافنى فى بدنى، اللهمَّ عافنى فى سمعى، اللهمَّ عافنى فى بصرى، اللهمَّ رحمتَك أرجو فلا تَكلْنى إلى نفسى طرفةَ عين، وأصلحْ شأنى كلَّه لا إلهَ إلا أنتَ، اللهمَّ إنى أعوذُ بك من الهمِّ والحَزَنِ، وأعوذُ بك من العَجْزِ والكَسَلِ، وأعوذُ بك من الجُبْنِ والبُخْلِ، وأعوذُ بك من غَلَبَةِ الدَّيْنِ وقَهْرِ الرِّجالِ، اللهمَّ اكْفِنى بحلالِك عن حرامِك، وأغننى بفضلِك عمن سواكَ، يا حى يا قيوم.

** والخلاصة التى لا بد وأن ننتهى إليها بعد كل هذا الذى وقفنا عليه حول موضوع:

ختام الصلاة (١)

هى كما جاء فى الجزء الثالث من(الدين الخالص): أنه يُسَنُّ للمصلى إذا سلم من صلاته أن يستغفرَ اللهَ ثلاثًا، ويقول: اللهمَّ أنت السلامُ ومنك السلامُ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ، اللهمَّ أَعِنِّى على ذكرِك وشكرِك وحُسْنِ عبادتِك، ويقرأ آيةَ الكرسى، وقل هو الله أحد، والمعوذتين، ويقول: سبحان الله، ثلاثًا وثلاثين، والحمد لله، ثلاثًا وثلاثين، والله أكبر ثلاثًا وثلاثين، ويختم المائة بقوله: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير. ثم يدعو بما شاء من خَيْرَىِ الدنيا والآخرة. والدعاء بالمأثور أحب.

---

(١) أو الأذكار الواردة بعد الصلاة المكتوبة...

مع ملاحظة أنه:

* يجوز عد هذه الأذكار ونحوها بالأصابع أو النَّوَى أو السبحة أو غيرها (لحديث) هانئ بن عثمان بن حميضة بنت ياسر عن يسيّرة بنت ياسر قالت: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (عليكن بالتسبيح والتهليلِ والتقديسِ(١) واعقدن(٢) بالأنامل؛ فإنهن مسئولاتٌ مُسْتَنْطَقَات، ولا تغفلن فَتَنْسَيْنَ(٣) الرحمة)

أخرجه الحاكم والترمذى

وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث هانئ بن عثمان، وصحح السيوطى إسناده.

* (ولحديث) ابن عمرو، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعقد التسبيح بيمينه.

أخرجه أبود داود، والترمذى، والنسائى، والحاكم، وصححه، والترمذى، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الأعمش عن عطاء بن السائب

* (ولحديث) سعد بن أبى وقاص أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على امرأة بين يديها نَوًى أوحَصًى تُسبِّح به فقال: (أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل؟ سبحانَ الله عددَ ما خلقَ فى السماءِ، وسبحان الله عدد ما خلق فى الأرضِ، وسبحان الله عدد ما خلق بين ذلكَ، وسبحان الله عدد ما هو خالقٌ، والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك،

---

(١) أى قول: سبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والروح.

(٢) اعقدن: أى اعددن التسبيح وغيره بالأنامل فإنهن يُسألن يوم القيامة عم اكتسبن وفيم استعملن؟ ومستنطقات بفتح الطاء، أى يطلب منهن النطق، فيشهدن لصاحبها أو عليه.

(٣) بضم فسكون ففتح: أى تُحْرَمْن من الرحمة المرتبة على ما ذكر.

ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك)

أخرجه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن حِبَّان، والحاكم وصححه، وقال الترمذى: حسن غريب.

* (والحديث) صفية قالت: دخل علىَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبين يَدىَّ أربعةُ آلافِ نواةٍ أُسَبِّحُ بِهِنَّ، فقال: (لقد سَبَّحتِ بهذا؟ ألا أُعَلِّمُك بأكثرَ مما سَبَّحتِ به؟

فقالت: علمنى، فقال: قولى: سبحان.. الله عدد خلقه) أخرجه الترمذى، والحاكم وصححه.

* (وعن ابن عباس) عن جويرية أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهى فى مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة، فقال: (ما زلتِ على الحال التى فارقتُك عليها؟ قالت: نعم، قال النبى صلى الله عليه وسلم: لقد قلتُ بعدك أربعَ كلماتٍ ثلاث مرات لو وُزِنَتْ بما قُلْتِ منذ اليوم لَوَزَنَتْهُنَّ: سبحان الله وبحمده عددَ خلقه، ورضاءَ نفسِه، وزِنَةَ عرشِهِ، ومدادَ كلماتِه)

رواه مسلم، والنَّسائى، والترمذى، وكذا أبو داود عن ابن عباس مرسلا لم يذكر جويرية.

** (ففى الأحاديث) التى وقفنا عليها: دلالةٌ على جواز عد الذكر بالنوى والحصى، وكذا بالسبحة؛ إذ لا فارق؛ لتقريره صلى الله عليه وسلم للمرأتين عليه، وعدم إنكاره، والإرشاد إلى ما هو الأفضل لاينافى جواز غيره. وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: (نعم المذكر السُّبحة)

أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس.

* وعن أبى سعيد الخدرى أنه كان يسبح بالحصى.

* وعن أبى هريرة أنه كان معه كيس فيه حصى أو نوى فيسبح به حتى ينفد.

أخرجهما ابن أبى شيبة

وقد ذكر السيوطى آثاراً أخرى فى رسالة (المنحة فى السبحة) ثم قال: ولم ينقل عن أحد من السلف ولا من الخلف المنع من جواز عد الذكر بالسبحة، بل كان أكثرهم يعدونه بها، ولا يرون ذلك مكروهًا. اهـ.

* (ومحل) جواز اتخاذ السبحة للذكر ما لم يترتب عليه رياء أو سمعة، وإلا منع، كما يمنع وضعها فى العنق كما يفعل بعض الأدعياء الذين يجهلون الكثير من الهدى المحمدى. وكذلك وضعها فى اليد وإدارتها من غير ذكر.

* (وقد سئل) العلامة الشيخ على العدوى عن اتخاذ السبح (فأجاب) بأن اتخاذ السبح الكبار من خشب أو غيره حرام يجب التباعد عنه باتخاذ سبحة من السبح المعتادة التى لا يحصل بها شهرة، وبعد اتخاذها على هذا الوجه لا يضعها فى رقبته أو نحوها مما يفيد أن حاملها من المتصوفة، فيئول أمره إلى الرياء المحرم بالإجماع

ويحذر أيضًا مما يفعله بعض الناس من كونه يتكلم مع الناس فى اللهو واللعب، ويدير السبحة من أولها إلى أخرها، ويوهم أنه يسبح فى تلك الحالة، والحاصل أنه إذا تعاطى السبحة على الوجه المعتاد يتباعد عن الأمور المقتضية للشهرة والعجب والرياء؛ لأن ذلك محبط للعمل. ا. هـ.

** ومن الأدعية المأثورة التى يستحب أن يدعو بها المصلى بعد ختام الصلاة:

* (حديث) سعد بن أبى وقاص الذى جاء فيه: أنه كان يعلم بنيه هؤلاء الكلمات، كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة، ويقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعوذُ بهنَّ دُبُرَ الصلاة: (اللهمَّ إنى أعوذُ بكَ من البُخْل، وأعوذ بك من الجُبْن، وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أَرْذَلِ العُمُر[1]، وأعوذ بك من فتنةِ الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبرِ)

أخرجه البخارى والترمذى وصححه.

* (وحديث) مسلم عن أبى بكرة عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول دبر كل صلاة (اللهمَّ عافنى فى سمعى، اللهم عافنى فى بَصرى، اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقرِ، اللهمَّ إنى أعوذُ بك من عذابِ القبرِ، لا إلهَ إلا أنت)

أخرجه أبو داود، والحاكم، وصححه السيوطى.

* و(حديث) عبد الله بن الزبير الذى يقول فيه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم فى دُبُرِ الصلاةِ أو الصلوات يقول: (لا إلـهَ إلا اللهُ وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، ولا نعبدُ إلا إياه، أهلُ النعمةِ والفضلِ والثناءِ الحسنِ، لا إله إلا اللهُ مُخلصينَ له الدينَ ولو كره الكافرون)

أخرجه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائى.

(١) أرذل العمر، هو البلوغ فى الهَرَم إلى حد يعود معه كالطفل فى سخف العقل وقله الفهم وضعف الجسم.

هديه صلي الله عليه وسلم في السنن والرواتب

* أما فى الحضر فكان لا يفوته عشر ركعات: ركعتان قبل فرض الصبح، وركعتان قبل فرض الظهر، وركعتان بعد ذلك، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء. ولم تفته ركعتا الظهر فى وقت من الأوقات، وإن فاتتا قضاهما بعد صلاة العصر.

* وكان يداوم على صلاة ركعتين بعد العصر، وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم، ويُكره فى حق غيره.

* وأحيانًا كان يصلى قبل الظهر أربع ركعات، ولفظ البخارى: كان لا يدع أربعًا قبل الظهر، وركعتين قبل الغداة.

وللعلماء فى هذا تأويلان:

(أحدهما) أنه كان إذا صلى سنة الظهر فى بيته صلاها أربعًا، وإذا صلى فى المسجد صلى ركعتين

(والثانى) أن هذه الصلاة مستقلة كان يصليها عقيب زوال الشمس ويقول: (هذه ساعةٌ تُفتَّح فيها أبوابُ السماءِ، وأُحِبُّ أن يصعدَ لى فيها عملٌ صالحٌ).

* وكان عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه يصلى بعد الزوال ثمانِى ركعاتٍ ويقول: إنهن تَعْدِلْنَ مِثْلَهُنَّ من قيامِ الليلِ.

وقال بعض المشايخ: السر فى هذا أن هذين الوقتين زمان تَنَزُّلِ الرحمة بعد الزوال، وذلك بعد انتصاف النهار، والتنزُّل الإلـهى فى الليلِ يكون بعد انتصافه، ولما كان هذان الوقتان محل قرب الرحمة ظهرت المناسبة.

* وروى فى مسند الإمام أحمد، وسنن النسائى، والترمذى: (مَنْ حافظَ على أربعِ ركعاتٍ قبل الظهر وأربعٍ بعدها حَرَّمَهُ اللهُ على النارِ)

* وكان يفصل بين هذين الأربع بتسليمتين

قال أمير المؤمنين علىٌّ: كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى قبلَ الظهرِ أربعَ ركعاتٍ يفصل بينهنَّ بالتسليمِ على الملائكةِ المقرَّبين ومن تَبِعَهُمْ من المسلمين والمؤمنين)

رواه أحمد، والترمذى مُحَسَّنًا.

وروى أمير المؤمنين علىٌّ أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى كل يوم وليلة من السُّنَّة ست عشرة ركعة: ركعتين قبل فرض الصبح، وأربعًا قبل فرض الظهر، وركعتين بعدها، وأربعًا قبل فرض العصر، وأربعًا فى وقت الضحى.

وهذا بعض حديث مطول، وللعلماء فى إسناده مقال.

* وروى ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (رَحِمَ اللهُ امرأً صلَّى قبل العصر أربعًا) صححه ابن حِبَّان.

* وكان الصحابة يصلون قبل المغرب ركعتين، ولم يمنعهم صلى الله عليه وسلم من ذلك.

* وثبت فى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: (صلوا قبل المغرب، صلوا قبل المغرب، وقال فى الثالثة: لمن شاء؛ كراهية أن يتخذها الناس سنة)

فصلاتها مندوبة مستحبة، لكن لا تبلغ درجة الرواتب.

* وكان يصلى الرواتب فى بيته، وعلى الخصوص ركعتى المغرب، فإنه لم يُصَلِّهما فى المسجد أبدًا؛ فلذلك اختلف العلماء أنه لو صلاهما فى المسجد فهل يجزيه ذلك أولا؟ قال بعض العلماء: لا، وقال الإمام المروزى: من صلى الركعتين بعد المغرب فى المسجد يكون عاصيًا، وقال أبو ثور أيضًا: هو عاص، وسبب العصيان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (اجْعَلُوها فى بيوتِكم) وعند أكثر العلماء يجزيه ذلك لكن يكون تاركًا للأَوْلَى.

* وفى سنة المغرب سُنَّتَان

(إحداهما): ألا يتكلم بينها وبين الفريضة؛ لما فى الحديث: (من صلَّى ركعتيْن بعد المغرب..) قال مكحول: يعنى قبل أن يتكلم (رفعت صلاته فى علِّيين)

(الثانية): أن يكون فى البيت، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجدَ بنى الأشهل، وصلَّى المغربَ، فلما فرغ رأى أهل المسجد اشتغلوا بصلاة السنة فقال: (هذه صلاة البيوتِ) وفى لفظ ابن ماجه: (اركعوا هاتيْن الركعتيْن فى بيوتِكم)

وحاصله أن عادة حضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلى جميع السنن فى بيته إلا أن يكون لسبب، وكان يقول: (أيها الناسُ صَلُّوا فى بيوتِكم، فإن أفضَل صلاةٍ صلاةُ الرجلِ فى بيتِه إلا المكتوبة)

* وكان يحافظ على ركعتى الفجر بحيث إنه كان يواظب عليها فى السفر أيضا، ولم يُرْوَ عنه أنه صلى فى السفر شيئًا من السنن الرواتب إلا سنة الفجر، وصلاة الوتر.

وللعلماء فى أفضلية سُنة الفجر وصلاة الوتر قولان: قال بعضهم: سنة الفجر آكد (وقال بعضهم) بل الوتر، وكما أن الوتر واجب عند البعض كذا سنة الفجر تجب عند البعض، وقال بعض المشايخ: سنة الفجر ابتداء العمل، والوتر ختم العمل. فلا جرم صرفت العناية لشأنهما؛ ولهذا السبب شرع فيها قراءة: سورة الإخلاص، وسورة: قل يأيها الكافرون؛ لاشتمالهما على توحيد العلم والعمل، وتوحيد المعرفة والإرادة، وتوحيد الاعتقاد والقصد. . .

* كما كان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا صلى سنة الفجر وضع جنبه الأيمن على الأرض ونام قليلاً، وفى جامع الترمذى:
(إذ صلَّى أحدُكم الركعتيْن قبل صَلاةِ الصبحِ فَلْيَضْطَجعْ على جنبهِ)

حديث صحيح غريب.

قال ابن حزم: هذا الاضطجاع فرض على المصلى حتى لو لم يأت به بين السنة والفرض ففرضه باطل(١)،

وقد صنف بعض العلماء فى نصرة هذا المذهب مجلداً، ووافق هذا القول جماعة من مشايخ الطريقة كصاحب (الفتوحات) وغيره، وقال بعض العلماء بكراهة ذلك، وعده من البدع، واختار جمهور العلماء الطريق المستقيم المتوسط وقالوا: باستحبابه، وقال الإمام مالك: إن فعل ذلك للاستراحة فحسن.

والسر فى الاضطجاع على الجنب الأيمن ألا يغلبه النوم؛ لأن القلب معلق فى الجانب الأيسر، فلو اضطجع عليه لاستقر القلب وغلبت الراحة وثقل النوم، وإذا اضطجع على شقه الأيمن طلب القلب مستقره فقلق وأبطأ

(١) انظره فى كتاب (المحلى) لابن جزم ج ٣ ص ١٩٦ طبع إدارة الطباعة المنيرية، تم منه جزء ٨.

النوم لذلك، وإن جاء النوم فلا يكون ثقيلاً؛ ولهذا اختار الأطباء النوم على الشق الأيسر طلبًا لكمال الراحة، واختار صاحب الشرع الشق الأيمن طلبًا لخفة النوم وسرعة قيام الليل،

وحاصله أن النوم على الجانب الأيمن ينفع القلب، وعلى الجانب الأيسر ينفع البدن، والله أعلم[1].

* وروى مالك عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى من الليل إحدى عشرة ركعة يوتر منها بواحدة، فإذا فرغ منها اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن فيصلى ركعتين خفيفتين

* وكانت عائشة تقول: لم يكن يضطجع لِسَنَّةٍ، ولكنه كان يبدأ ليلته فيستريح، وذكر أن فى اضطجاعه على الشق الأيمن سرا، وهو أن القلب مُعَلَّقٌ فى الجانب الأيسر، فإذا نام عليه استثقل نومه، وهو ظاهر فى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد من ضجعته الراحة ومقاومة النوم حتى لا يمنعه عن صلاة الفجر.

* وفى الصحيحين عن القاسم بن محمد قال: سمعت عائشة تقول: كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل عشر ركعات ويوتر بسجدة، ويركع ركعتى الفجر.

* وكان صلى الله عليه وسلم يُسِرُّ بالقراءة فى صلاة الليل تارة، ويجهر بها تارة، ويطيل القيام إذا قام تارة، ويخففه تارة، وكان أكثر وتره آخر الليل، وتارة كان يوتر وسطه أو أوله.

(١) وإذا كان رأى الطب الحديث أن النوم على الجنب الأيمن أفضل لأنه يكفل عدم الضغط على القلب والمعدة، فإننى مع هذا الرأى الحديث الذى يؤيده الشرع.

* وكان يصلى التطوع بالليل والنهار على راحلته فى السفر قِبَلَ[1] أى جهة توجهت به، فيركع ويسجد عليها إيماء، ويجعل سجوده أخفض من ركوعه. وقد ذكر أحمد وأبو داود أنه كان يستقبل القبلة فيكبر للصلاة، ثم يخلى عن راحلته، ثم يصلى أينما توجهت.

* وكان صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفره يُصلى ركعتين - وهذه الصلاة هى التى سَمَّوْها (الضحا) إذ رأوه يصليها ضُحًا حينما رجع من مغيبه ويوم الفتح

ولم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم صلاة راتبة مخصوصة لهذا الوقت، كما بينته عائشة فى الصحيح وفُهِم من مجموع الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة.

---

(١) قِبل: بكسر القاف وفتح الباء: أى جهة.

هدى النبى صلى الله عليه وسلم فى صيامه

فقد ثبت فى السنة، أنه صلوات الله وسلامه عليه:

* كان أجود الناس، وأجود ما يكون فى رمضان.

* وكان يستغرق أوقاته بالذكر والصلاة والاعتكاف والتلاوة، ويخص هذا الشهر العظيم بأنواع العبادات.

* وكان يواصل فى بعض لياليه، وينهى غيره عن الوصال، فقالوا: أتواصل وتنهانا يا رسول الله؟ قال: (لستُ كهيئتِكم إنِّى أَبِيتُ عند ربِّى) وفى لفظ: (أظلُّ عند ربى يُطعمنى ويسقينى)

وللعلماء فى ذا الطعام أقوال:

(أحدها) أنه طعام وشراب محسوس، فإن هذا حقيقة اللفظ، وليس فى الظاهر ما يوجب العدول عن الحقيقة، فتعين الحمل على الحقيقة

(الثانى) أن المراد غذاء روحانى يحصل من المعارف، ولذة المناجاة، وفيضان اللطائف الإلـهية الواردة على قلبه الكريم وتوابعها من نعيم الأرواح ومسرة النفس والروح والقلب ونور البصر، ويحصل بذلك من القوة والمسرة ما يستغنى به عن الغذاء الجسمانى.

وإلى هذا المعنى يشير أحدهم فى قوله:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضىء به ومن حديثك فى أعقابها حادى
إذا اشتكت من كلال السير واعدها روح القدوم فتحيا عند ميعاد

وهذا القول الثانى هو المختار؛ لأنه لا يتصور الوصال لو حمل على حقيقة الطعام والشراب، بل يبطل الصيام.

وكان من العادة ألا يشرع فى صيام رمضان إلا بعد رؤية الهلال على التحقيق، أو بشهادة الواحد العدل، كما صام مرة بشهادة ابن عمر، ومرة بشهادة أعرابى، واكتفى بمجرد إخبارهما، ولم يكلفهما لفظ الشهادة فإن لم يَرَ ولم يشهد به أتم شعبان ثلاثين يومًا ثم صام، وأمر الناس أن يصوموا بشهادة شخص واحد، ويفطروا بشهادة شخصين.

* وكان يعجل الفطر، ويواظب على السحور ويؤخره، وأمر الأمة بالسحور وتأخيره، وأمر أن يفطر الصائم بثلاث رطبات، فإن لم يجد فثلاث تمرات، فإن لم يجد فالماء، وهذا غاية الشفقة على الأمة؛ لأن الطبيعة أوان خلو المعدة تقبل على الطعام أتم إقبال، فإذا كان الحلو أول واصل إلى المعدة ينتفع البدن بقبوله غاية الانتفاع، وعلى الخصوص القوة الباصرة فإن انتفاعها بالحلو يكون أزيد من انتفاع سائر القوى، ولما كان التمر حلو الحجاز[1]، وطبائعهم قد نشأت عليه كان انتفاعهم به أزيد من انتفاعهم بغيره من أنواع الحلاوات، من جهة الطب

(١) أى حلو أهل الحجاز.

(وأما) من جهة الشرع وأسرار ذلك فالحق جل شأنه جعل تمر المدينة ترياقًا لكل السموم، ودواء لكل الهموم، ببركة سيد العالم صلوات الله عليه وسلامه، ومن ثَمَّ[1] قال: (إن فى عجوة العالية شِفاءً من كلِّ داء، وإنها ترياق أول البكرة)

وقال فى موضع آخر: (مَن تصبَّح بسبعِ تمراتٍ مما بين لابتيها لن يضره ذلك اليوم سم ولا سحر) وليس يظهر للأطباء الرسميين فى هذا المقام غير التحير ودوران الرأس، وسر ذلك يعلمه أطباء القلوب.

* وفى وقت الإفطار كان صلوات الله وسلامه عليه يقول هذا الدعاء: (اللهمَّ لك صمنا، وعلى رزقِك أفطرنا، فتقبَّل مِنَّا إنك أنت السميع العليم) وفى إسناده مقال.

* وثبت فى سنن أبى داود أنه كان يقول: (اللهمَّ لك صمتُ وعلى رزقك أفطرتُ)

* وجاء فى بعض الروايات أنه كان يقول: (ذهب الظمأُ، وابتلَّتِ العروقُ، وثبت الأجرُ)

* وكان ينهى الصائم عن الرفث وعن الجهل، وقال: (إن قاتَلَهُ أحدٌ أو شاتَمَهُ فليقلْ: إنى صائم)

وللعلماء فى هذه المسألة ثلاثة أقوال:

(قال) بعضهم: السنة أن يقول فى جوابه هذا اللفظ بلسانه، وذا أظهر الأقوال.

(وقال) بعضهم: يقول بقلبه، ويذكر نفسه أنه صائم؛ لئلا يشتغل بالجواب

---

(١) من ثَم: أى من أجل ذلك.

(وقال بعضهم): إن كان صومه فرضًا يقول بلسانه، وإن كان سنة يقول بقلبه؛ ليكون أبعد عن الرياء.

* وكان صلوات الله وسلامه عليه إذا سافر فى رمضان أفطر فى بعض الأحيان، وصام فى بعضها، وخيَّر الناس فى الصوم والإفطار.

* وكان إذا اقترب من العدو أمر بالإفطار، وإن وقع مثل هذا فى الحضر، وإن كان فى إفطار العسكر تقوية على العدو حَلَّ الإفطار.

* وكان من العادة النبوية فى ليالى رمضان أنه إن احتاج إلى الغسل اغتسل فى الليل، وفى بعض الليالى كان يؤخر ويغتسل بعد الصبح.

* وكان يُقَبِّل أمهات المؤمنين فى أيام رمضان، وأما الحديث الذى رواه ابن ماجه: سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن رجل قَبَّل امرأته وهما صائمان فقال: (قد أفطر) فإسنادُه ليس بثابت، ولم يبلغ درجة الصحة،

ومن أكل الطعام أو شرب الماء ناسيًا لم يأمره بالقضاء، وكان يبين أن الله هو الذى أطعمه وسقاه، وكان يُعِدُّ هذا الأكل والشرب بمنزلة أكل النائم وشربه.

* وكان يحتجم فى رمضان ويستاك، وكان لا يبالغ فى المضمضة والاستنشاق، ولم يصح فى النهى عن السواك والاكتحال حديث، وورد فى هذا الباب حديثان: (اكتحلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو صائم) والآخر قال فى الكحل: (لِيتَّقه الصائمُ) وهذان الحديثان ضعيفان لا يصلحان للاحتجاج.

* وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناسِ، وكان أجودَ ما يكونُ فى رمضانَ حينَ يلقاهُ جبريلُ، وكان يلقاهُ فى كلِّ ليلةٍ من رمضانَ،

فيدارسُه القرآنَ فَلَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أجودُ بالخيرِ من الريح المُرسَلَة)[1].

رواه البخارى عن ابن عباس.

وروى البخارى ومسلم عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم:

*كان إذا دخلَ العَشْرُ الأواخرُ[2] أحيا الليلَ، وأيقظَ أهلَهُ، وشَدَّ المِئْزَر)[3].

وفى رواية لمسلم:

* (كانَ يجتهدُ فى العشرِ الأواخرِ مالا يجتهدُ فى غيره).

وروى الترمذى وصححه عن علىٍّ قال:

* (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوقظ أهلَه فى العشر الأواخرِ، ويرفعُ المئزر)

* هذا، وإذا كنا قد وقفنا على بعض المباحات فى الصيام، فإننى أرى إتمامًا لفائدة أن أقف مع الأخ القارئ على:

مباحات الصيام

فقد جاء فى (فقه السنة) ما خلاصته:

يباح فى الصيام ما يأتى:

١ ـ **نزول الماء والانعماس فيه**؛ لما رواه أبو بكر بن عبد الرحمن عن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أنه حدَّثه فقال:

---

(١) أى فى الإسراع والعموم.

(٢) أى من رمضان.

(٣) كناية عن اعتزاله النساء.

* (لقد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يصبُّ على رأسه الماءَ وهو صائمٌ من العطشِ أو من الحَرِّ)

رواه أحمد، ومالك، وأبو داود بإسناد صحيح.

وفى الصحيحين عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم:

* (كان يُصْبِحُ جُنُبًا وهو صائمٌ، ثم يغتسل).

فإن دخل الماء فى جوفه من غير قصد فصومه صحيح.

٢ ـ **الاكتحال، والقطرة ونحوهما مما يدخل العين،** سواء أوجد طعمه فى حلقه أم لم يجده؛ لأن العين ليست بمنفذ إلى الجوف.

وعن أنس: (أنه كان يكتحلُ وهو صائم).

وإلى هذا ذهبت الشافعية، وحكاه ابن المنذر عن عطاء، والحسن، والنخعى والأوزاعى وأبى حنيفة وأبى ثور، وروى عن ابن عمر وأنس وابن أبى أوفى من الصحابة، وهو مذهب داود. ولم يصح فى هذا الباب شىء عن النبى صلى الله عليه وسلم كما قال الترمذى.

٣ ـ **القُبْلَة:** لمن قدر على ضبط نفسه فقد ثبت عن عائشة، قالت:

* (كان النبىُّ صلى الله عليه وسلم يُقَبِّلُ وهو صائمٌ، ويُباشِرُ وهو صائمٌ، وكان أَمْلَكَكم لإرْبِهِ).

ومذهب الأحناف والشافعية أنها تُكره على من حركت شهوته، ولا تكره لغيره، لكن الأَوْلَى تركها (احتياطًا) ولا فرق بين الشيخ والشاب فى ذلك، والاعتبار بتحريك الشهوة وخوف الإنزال، فإن حركت شهوة شاب أو شيخ قوى كُرهت، وإن لم تحركها لشيخ أو شاب ضعيف لم تكره، والأَوْلَى تركها، وسواء قبَّل الخد أو الفم أو غيرهما.. وهكذا المباشرة باليد والمعانقة: لهما حكم القبلة.

٤ ـ **الحقنة**: مطلقًا سواء أكانت للتغذية أم لغيرها، وسواء أكانت فى العروق أم تحت الجلد، فإنها ـ وإن وصلت إلى الجوف ـ تصل إليه من غير المنفذ المعتاد(١).

٥ ـ **الحجامة**:(٢) فقد احتجم النبىُّ صلى الله عليه وسلم وهو صائم،(٣) إلا إذا كانت تضعف الصائم فإنها تكره له، قال ثابت البنانى لأنس: (أكنتُم تكرهون الحجامةَ للصائمِ على عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: (لا، إلاَّ من أَجْلِ الضعفِ)

رواه البخارى وغيره.

والفصد(٤) مثل الحجامة فى الحكم.

٦ ـ **المضمضة والاستنشاق**: إلا أنه تكره المبالغة فيهما،

فعن لقيط بن صبرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (فإذا استنشقتَ فأبْلِغْ إلا أن تكونَ صائمًا)

رواه أصحاب السنن، وقال الترمذى حسن صحيح.

وقد كره أهل العلم السُّعوط(٥) للصائم، ورأوا أن ذلك يفطر، وفى الحديث ما يُقوى قولهم.

قال ابن قدامة: وإن تمضمض أو استنشق فى الطهارة فسبق الماء إلى حلقه من غير قصد ولا إسراف فلا شىء عليه، وبه قال الأوزاعى وإسحاق

---

(١) أما الحقنة فى إحليل الذكر فلا يفطر بها الصائم عند النعمان ومالك ومحمد بن الحسن وأحمد (وقال) أبو يوسف والشافعى: يفطر بها إن وصلت المثانة...

(٢) الحجامة: أخذ الدم من الرأس.

(٣) رواه البخارى.

(٤) أخذ الدم من أى عضو.

(٥) السعوط: وضع الدواء فى الأنف.

والشافعى فى أحد قوليه، وروى ذلك عن ابن عباس، وقال مالك وآبو حنيفة: يفطر؛ لأنه أوصل الماء إلى جوفه ذاكرًا لصومه فأفطر كما لو تعمد شربه.

قال ابن قدامة مرجحًا الرأى الأول: ولنا أنه وصل الماء إلى حلقه من غير إسراف ولا قصد، فأشبه ما لو طارت ذبَابة إلى حلقه، وبهذا فارق المتعمد.

٧ ـ وكذا يباح للصائم **مالا يمكن الاحتراز عنه** كبلع الريق، وغبار الطريق، وغربلة الدقيق والنخامة، ونحو ذلك.

وقال ابن عباس: لا بأس أن يذوق الطعام الخلَّ، والشىء يريد شراءه. . .

٨ ـ ويباح للصائم **أن يأكل ويشرب ويجامع حتي يطلع الفجر**، فإذا طلع الفجر وفى فمه طعام وجب عليه أن يلفظه، أو كان مجامعًا وجب عليه أن ينزع، فإن لفظ أو نزع صح صومه، وإن ابتلع ما فى فمه من طعام مختارًا أو استدام الجماع أفطر.

روى البخارى ومسلم عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إن بلالاً يوذنُ بليل، فكلُوا واشربوا حتى يؤذنَ ابْنُ أمِّ مكتوم).

٩ ـ ويباح للصائم: أن **يصبح جنبًا**، وقد تقدم حديث عائشة فى ذلك.

١٠ ـ والحائض والنفساء إذا انقطع الدم من الليل جاز لهما تأخير الغسل إلي الصبح وأصبحتا صائمتين، ثم عليهما أن تتطهرا للصلاة.

** وإذا كنا كذلك قد وقفنا على هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى صيام (شهر رمضان) الذى كتبه الله علينا كما كتبه على الذين من قبلنا ـ فإننى أرى أنه من الخير كذلك، أن نقف على:

(١) قال ابن عباس: دخول الذباب حلق الصائم لا يفطر.

هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم

في صيام النافلة

وهى صيام التطوع الذى رغب الرسول صلى الله عليه وسلم فى صيامه، فقال عن:

١ - الستة الأيام من شوال ما ورد:

* عن أبى أيوب الأنصارى: (مَنْ صامَ رمضانَ، ثم أَتْبَعَهُ ستا من شوالٍ فكأنما صامَ الدهرَ)

رواه الجماعة إلا البخارى والنسائى

وعند أحمد أنها تُؤَدَّى متتابعةً وغير متتابعةٍ، ولافضل لأحدهما على الآخر، وعند الحنفية والشافعية الأفضل صومها متتابعة عقب العيد.

وقال عن:

٢ - الصوم فى العشر الأوائل من ذى الحجة وتأكيد يوم عرفة لغير الحاج، ما ورد:

* عن أبى قتادة: (صومُ عرفةَ يُكَفِّر سنتين: ماضيةً ومستقبلةً، وصومُ يومِ عاشوراءَ يُكَفِّر سنةً ماضيةً)

رواه الجماعة إلا البخارى والترمذى.

* وعن حفصة قالت: (أربعٌ لم يكُن يَدَعُهُنَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: صيامُ عاشوراء، والعشر(١)، وثلاثة أيام من كل شهر(٢)، والركعتان قبل الغداة)(٣)

رواه أحمد والنسائى

---

(١) أى العشر الأوائل من ذى الحجة.

(٢) وهى اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر عربى.

(٣) أى قبل صلاة الصبح.

* وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يومُ عرفةَ ويومُ النحرِ وأيامُ التشريقِ[1] عيدُنا أهلَ الإسلامِ، وهى أيامُ أكلٍ وشُرْبٍ)

رواه الخمسة إلا ابن ماجه، وصححه الترمذى.

* وعن أبى هريرة قال: (نهى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن صومِ عرفةَ بعرفاتٍ)

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

قال الترمذى: قد استحب أهل العلم صيام يوم عرفة إلا بعرفة.

* وعن أم الفضل أنهم شكوا فى صوم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عرفة، فأرسلت إليه بلبن، فشربَ وهو يخطبُ الناسَ بعرفةَ.

متفق عليه.

وقال عن:

٣ ـ صيام المحرم وتأكيد صوم عاشوراء ويوم قبلها ويوم بعدها، ما ورد:

* عن أبى هريرة قال: سُئِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أى الصلاةِ أفضلُ بعدَ المكتوبةِ؟ قال: (الصلاة فى جَوْفِ الليلِ).

قيل: ثم أىُّ الصيام أفضل بعد رمضان؟

قال: (شهرُ الله الذى تدعونه المحرم)

رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

(١) وأيام التشريق هى الأيام: الحادى عشر، والثانى عشر، والثالث عشر من ذى الحجة.

* وعن معاوية بن أبى سفيان، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنَّ هذا يومُ عاشوراءَ، ولم يُكتب عليكم صيامُه، وأنا صائمٌ، فمن شاءَ صامَ، ومن شاءَ فَلْيُفْطِرْ)

متفق عليه.

* وعن عائشة قالت: (كان يومُ عاشوراءَ يومًا تصومُه قريشٌ فى الجاهلية، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يصومُه، فلما قدم المدينةَ صامه وأمر الناسَ بصيامِه، فلما فُرِضَ رمضان قال: من شاءَ صامهَ ومن شاء تركه)

متفق عليه.

* وعن ابن عباس قال: قدم النبى صلى الله عليه وسلم فرأى اليهود تصُوم عاشوراءَ، فقال: ما هذا؟ قالوا: يومٌ صالحٌ نَجَّى اللهُ فيه موسى وبنى إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: (أنا أحقُّ بموسى منكم) فصامه وأمر بصيامه.

متفق عليه.

* وعن ابن عباس قال: لما صام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا يا رسول الله: إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى. فقال: إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع، قال: فلم يأتِ العامُ المقبل حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رواه مسلم وأبود داود.

* وفى لفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لئن بقيتُ إلى قابلٍ لأصومنَّ التاسع. يعنى يوم عاشوراء.

رواه أحمد ومسلم.

وقد ذكر العلماء أن صيام يوم عاشوراءَ على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: صوم ثلاثة أيام: التاسع، والعاشر، والحادى عشر.

المرتبة الثانية: صوم التاسع والعاشر.

المرتبة الثالثة: صوم العاشر وحده.

وورد عن:

٤ ـ صيام أكثر شعبان:

عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: (ما رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم استكملَ صيامَ شهرٍ قَطُّ إلا شهر رمضان، وما رأيتُه فى شهرٍ أكثرَ منه صيامًا فى شعبان)

رواه البخارى ومسلم.

* وعن أسامة قال: قلتُ: يا رسول الله لمْ أَرَكَ تصومُ من شهر من الشهور ما تصوم من شعبانَ؟ قال: (ذلك شهرٌ يغفلُ الناسُ عنه بين رجب ورمضانَ، وهو شهر تُرْفَعُ فيه الأعمالُ إلى ربِّ العالمين، فأُحِبُّ أن يُرْفَعَ عملى وأنا صائم)

رواه أبو داود، والنسائى، وابن خزيمة فى صحيحه.

وتخصيص صوم يوم النصف منه ظنًا أن له فضيلة على غيره مما لم يَأْت به دليل صحيح.

٥ ـ وأما عن الأشهر الحُرُم، وهى: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، فقد ورد: أنه يسحب الإكثار من الصيام فيها:

* فعن رجل من باهلة أنه أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله أنا الرجل الذى جئتك عام الأول، فقال: (فما غيَّرك وقد كنت حسن الهيئة؟ قال: ما أكلتُ طعَامًا إلا بليلٍ منذ فارقتُك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لِمَ عذبتَ نفسك؟ ثم قال: صُمْ شهرَ الصَّبْرِ، ويومًا من كلِّ شَهْرٍ، قال: زِدْنى فإنَّ بى قوةً، قال: صُمْ يومين. قال: زِدْنى، قال: صُمْ من الحُرُم واترك، صُمْ من الحُرُم واترك. صُمْ من الحُرُم واترك. وقال بأصابعه الثلاثة فضمها، ثم أرسلها)

رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والبيهقى بسند جيد.

وصيام رجب ليس له فضل زائد على غيره من الشهور إلا أنه من الأشهر الحرم، ولم يَرِدْ فى السنة الصحيحة أن للصيام فيه فضيلة بخصوصه، وإن ما جاء فى ذلك مما لا ينتهض للاحتجاج به.

قال ابن حجر: (لم يَرِدْ فى فضله، ولا فى صيامِه، ولا فى صيامِ شىءٍ منه مُعَيَّن، ولا فى قيام ليلةٍ مخصوصةٍ منه حديث صحيح يصلح للحُجَّةِ).

وورد، عن:

٦ - صوم يومى الاثنين والخميس:

* عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس، فقيل له، فقال: (إنَّ الأعمالَ تُعرض كلَّ اثنين وخميس فيَغْفِرُ اللهُ لكلِّ مسلمٍ، أو لكلِّ مؤمنٍ إلا المُتَهاجِرَيْن فيقول أَخِّرْهما)

رواه أحمد بسند صحيح.

* وفى صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم يوم الاثنين؟ فقال: (ذاك يومٌ وُلِدتُ فيه، وأُنزِل علىَّ فيه).

وورد عن:

٧ ـ صيام ثلاثة أيام من كل شهر:

* أن أبا ذر قال: (أَمَرَنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أن نصوم من الشهرِ ثلاثةَ أيامٍ البيض:

ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة، وقال: هى كَصَوْمِ الدَّهْرِ)

رواه النسائى، وصححه ابن حبان.

* وجاء عنه صلى الله عليه وسلم: أنه كان يصوم من الشهر: السبت، والأحد، والاثنين، ومن الشهر الآخر: الثلاثاء، والأربعاء، والخميس.

وأنه كان يصوم الخميس من أول الشهر، والاثنين الذى يليه، والاثنين الذى يليه.

وورد عن:

٨ ـ صيام يومٍ وفطر يوم:

* عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد أُخْبِرتُ أنك تقومُ الليلَ، وتصومُ النهارَ، قال: قلت: يا رسولَ اللهِ، نعم، قال: فصُم وأَفْطِر، وصَلِّ ونَمْ، فإنَّ لجسدك عليكَ حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لَزْورِكَ عليك حقا، وإن بحسبك أَن تصومَ من كلِّ شهرٍ ثلاثة أيامٍ. قال: فشدَّدْتُ فَشَدَّدَ علىَّ، قال: فقلت يا رسول الله، إنى أجد قوة، قال: فَصُمْ من كل جمعة ثلاثة أيامٍ. قال: فشددتُ فَشَدَّدَ على، قال: قلت يا رسول الله إنى أجد قوة، قال: صُمْ صَوْمَ نبىِّ الله داودَ، ولا تَزِدْ عليه، قلت: يا رسول الله، وما كان صيام داود، عليه الصلاة والسلام؟ قال: كان يصوم يومًا ويُفْطِرُ يومًا)

رواه أحمد وغيره.

* وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَحَبُّ الصيام إلى الله صيامُ داودَ، وأحبُّ الصلاةِ إلى اللهِ صلاةُ داودَ، كان ينامُ نِصْفَهُ ويقومُ ثُلُثَهُ، وينامُ سُدُسَهَ وكان يصوم يومًا، ويفطر يومًا).

** وقد قرأت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* كان يصوم نافلة حتى يظنوا أنه لا يفطر، ويفطر حتى يظنوا أنه لا يصوم نافلة غيرها.

* وكان لا يدع شهراً خاليًا من الصوم.

* وكان فى غالب الأيام إذا دخل بيته سأل: هل عندكم ما يؤكل؟ فإن قالوا: لا، قال: (فإنى صائمٌ) ونوى الصيام.

* وكان فى بعض الأوقات ينوى صوم التطوع، ولا يتم الصيام، بل يفطر، وقال: (من نزلَ على قومٍ فلا يَصُومنَّ تطوعًا إلا بإذنهم) لكن طعنوا فى إسناد هذا الحديث.

* وكان يكره تخصيص يوم الجمعة بصوم إلا إذا صام يومًا قبله أو يومًا بعده، أو وافق عادة له، أو كان يوم عرفة أو عاشوراء، فإنه حينئذ لا يُكره صيامه: ففى الصحيحين من حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لا تصوموا يوم الجمعة إلاَّ وقبله يومٌ أو بعده يوم) وفى لفظ مسلم: (ولا تخصوُّا ليلةَ الجمعةِ بقيامٍ من بين الليالى، ولا تَخُصُّوا يومَ الجمعةِ بصيامٍ من بينِ الأيامِ إلا أن يكونَ فى صومٍ يصومُهُ أحدُكم).

* كما نهى صلوات الله وسلامه عليه عن إفراد يوم السبت بصيام:

فعن يُسْرٍ السلمى عن أخته الصماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تصوموا يومَ السبتِ إلا فيما افْتُرِضَ عليكم[1] وإن لم يجد أحدُكم إلا لحاء[2] عنبٍ أو عود شجرة فليَمْضَغْهُ)

رواه أحمد، وأصحاب السنن، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وحسنه الترمذى، وقال: ومعنى الكراهة فى هذا أن يختصَّ الرجل يومَ السبتِ بصيامٍ؛ لأن اليهود يفطمون يوم السبت.

وقالت أم سلمة: (كان النبىُّ صلى الله عليه وسلم يصومُ يومَ السبتِ ويومَ الأحدِ أكثَر مما يصومُ من الأيامِ، ويقول: إنهما عيدُ المشركين، فأنا أُحِبُّ أن أخالفَهم)

رواه أحمد، والبيهقى، والحاكم، وابن خزيمة، وصححاه.

* كما نهى صلوات الله وسلامه عليه عن صوم يوم الشك:

قال عمار: (من صامَ اليومَ الذى شُكَّ فيه فقد عصى أبا القاسمِ صلى الله عليه وسلم)

رواه أصحاب السنن، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، وبه يقول سفيان الثورى، ومالك ابن أنس، وعبد الله بن المبارك، والشافعى، وأحمد، وإسحاق: كرهوا أن يصوم الرجل اليوم الذى يُشَكُّ فيه، ورأىُ أكثرهم أنه إن صامه وكان من شهر رمضان أن يَقْضِىَ يومًا مكانه[3]. فإن صامه لموافقته عادة له جاز له الصيام حينئذ دون كراهة..

(١) ويشمل القضاء والنذور والنفل إلا إذا وافق عادته أو كان يوم عرفة، ونحو ذلك..

(٢) اللحاء: أى القشر.

(٣) وعند الحنفية: إن ظهر أنه من رمضان وصامه أجزأ عنه.

* كما نهى صلوات الله وسلامه عليه عن صوم الدهر، بل يحرمُ صيام السنة كلها بما فيها الأيام التى نهى الشارع عن صيامها: لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا صامَ من صامَ الأبدَ)

رواه أحمد والبخارى ومسلم.

(فإن) أفطر يومى العيد وأيامَ التشريقِ وصام بقيةَ الأيامِ انتفتِ الكراهةُ إذا كان ممن يقوى على صيامها.

* كما نهى صلوات الله وسلامه عليه عن صيام المرأة وزوجها حاضر إلا بإذنه:

فعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تَصُمِ المرأة يومًا واحدًا، وزوجُها شاهدٌ إلا بإذنِه، إلا رمضان)

رواه أحمد والبخارى ومسلم.

(وقد حمل) العلماءُ هذا النهى على التحريم، وأجازوا للزوج أن يُفسد صيام زوجته لو صامت دون أن يأذن لها لاعتدائها على حقه، وهذا فى غير رمضان، كما جاء فى الحديث، فإنه لا يحتاج إلى إذن من الزوج.

وكذلك لها أن تصوم من غير إذنه إذا كان غائبًا، فإذا قدم فله أن يفسد صيامها، وجعلوا مرض الزوج وعجزه عن مباشرتها مثل غيبته عنها فى جواز صومها دون أن تستأذنه.

* كما نهى صلوات الله وسلامه عليه عن وصال الصوم، أى وصل الصوم بمتابعة بعضه بعضًا دون فطر أو سحور

فعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والوِصالَ - قالها ثلاث مرات - قالوا: فإنكَ تواصلُ يا رسولُ الله؟ قال إنكم لستُم فى

ذلك مثلى، إنِّى أَبِيْتُ يُطعِمنى ربى ويسقينى، فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون)

رواه البخارى ومسلم.

وقد حمل الفقهاء النهىَ على الكراهة، وجَوَّز أحمد وإسحاق وابن المنذر الوصالَ إلى السحر ما لم تكن مشقة على الصائم (لما رواه) البخارى عن أبى سعيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لا تُواصِلوا، فأيُّكم أرادَ أن يُواصِلَ فَلْيُواصِلْ حتى السَّحَر).

* كما نهى صلوات الله وسلامه عليه عن صيام يومى العيدين:

وقد أجمع العلماء على تحريم صوم يومى العيدين، سواء أكان الصوم فرضًا أم تطوعًا:

لقول عمر رضى الله عنه: (إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نهى عن صيام هذين اليومين. أما يوم الفطر ففطرُكم من صومكم[1]، وأما يوم الأضحى فكلوا من نُسُكِكُم)[2]

رواه أحمد والأربعة.

* كما نهى صلوات الله وسلامه عليه عن صوم أيام التشريق، وهى الأيام: الحادى عشر، والثانى عشر، والثالث عشر من شهر ذى الحجة: أى الأيام الثلاثة التى تلى يوم عيد النحر؛ لما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبدَ الله بنَ حُذَافة يطوف فى مِنًى: (أنْ لا تصوموا هذه الأيامَ، فإنَّها أيام أَكْلٍ وشُرْبٍ وذكر اللهِ عزَّ وجل)

رواه أحمد بإسناد جيد.

---

(١) أى الفطر من صيام رمضان.

(٢) أى من الأضاحى

وروى الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس: (أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أرسلَ صائحًا يصيحُ أن لا تصوموا هذه الأيامَ، فإنها أيامُ أكلٍ، وشربٍ، وبعال)(١).

وأجاز أصحاب الشافعى صيام التشريق فيما له سبب من نذر، أو كفارة أو قضاء أما ما لا سبب له فلا يجوز فيها بلا خلاف، وجعلوا هذا نظير الصلاة التى لها سبب فى الأوقات المنهى عن الصلاة فيها.

---

(١) البعال: أى وطء الرجل زوجته.

هديه صلى الله عليه وسلم فى الاعتكاف

فقد ورد أنه صلوات الله وسلامه عليه:

* كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، وتركه مرة فقضاه فى شوال، وكان يأمر بخِباءٍ فيُضْرَبُ له فى المسجد يخلو فيه بربه.

* وكان يعتكف كل سنة عشرة أيام، فلما كان فى العام الذى قُبِضَ فيه اعتكف عشرين يومًا، وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين.

* وكان لا يدخل بيته فى اعتكافه إلا لحاجةٍ، وكان يخرج رأسه من المسجد إلى بيت عائشة فترجله وتغسله وهو فى المسجد وهى حائض، وكانت بعض أزواجه تزوره وهو معتكف، فإذا قامت تذهب قام معها يُوصلها، ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكف

لا بقبلة ولا بغيرها؛ تنفيذًا لقول الله تبارك وتعالى

﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾(١).

(١) سورة البقرة ـ من الآية: ١٨٧ .

هديه صلى الله عليه وسلم فى الحج والعمرة

* والمراد من الحج: قصد البيت الحرام الذى جعله الله فى مكة كعبة لجميع المسلمين والمسلمات يحجون إليه، ويلتفون حوله مهللين مكبرين. ويتماسكون بالمناسك والعبادات المخصوصة التى بينها الرسول صلى الله عليه وسلم، وأمر باتباعه فيها فقال: (خُذوا عنى مَناسِككم)

* وأشهره: شوال، وذو القعدة، والعشر الأوائل من ذى الحجة.

* وأما المراد من العمرة، فهى زيارة ذلك البيت، ووقتها طول السنة وسميت عُمْرَةً؛ لأن من زار فقد عمر، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

* وقد ورد فى الصحيحين: عن أنس بن مالك قال: اعتمرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أربعَ عُمَرٍ كُلُّهن فى ذى القعدة إلا التى كانت مع حجته: عمرة من الحديبية(٢) فى ذى القعدة، وهى التى صده المشركون عنها،

(١) سورة التوبة: ١٨ و ١٩.

(٢) قرية قريبة من مكة سميت ببئر فيها.

وعمرة من العام المقبل فى ذى القعدة، وعمرة من الجِعِرَّانة[1] حيث قسم غنائم حنين فى ذى القعدة، وعمرة مع حجته.

وفيهما عن البراء بن عازب: اعتمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة قبل أن يَحُجَّ مرتيْن، ولا مناقضة؛ إذْ المراد العمرة المستقلة التى تمت، ولا ريب أنهما اثنتان، فإن عمرة القِران[2] غير مستقلة، وعمرة صُدَّ عنها وحِيل بينه وبين إتمامها، كما لا مناقضة بين ذلك وبين قول عائشة وابن عباس: (لم يَعْتَمِرْ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلا فى ذى القعدة) لأن مبدأ عمرة القران كان فى ذى القعدة ونهايتها فى ذى الحجة مع انقضاء الحج، فهما أخبراَ عن ابتدائها، وأنس أخبر عن انتهائها.

* وكان فى كل عمرة داخلاً إلى مكة، ولم يُنقَل عنه أنه اعتمر خارجًا من مكة كما يفعله الناس اليوم، يخرجون من مكة إلى الحِلِّ ليعتمروا.

* وحج حجة واحدة بعد الهجرة سنة عشر، لأن فرض الحج لم ينزل قبل السنة التاسعة، وذلك أن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قدم وفد نجران على الرسول، وصالحهم على أداء الجزية، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، وفيها نزل صدر آل عمران، وناظر أهل الكتاب، ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة، ويدل عليه أن أهل مكة وجدوا فى نفوسهم بما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا... ﴾[3] فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية، ونزول هذه الآيات والمناداة بها إنما كان فى سنة تسع، وبعث الصديق يؤذن بذلك فى مكة فى مواسم الحج، وأردفه بِعَلِىٍّ.

(1) موضع قريب من مكة، وهى فى الحِلِّ وميقات للإحرام.
(2) أى الإحرام بالعمرة مع الحج.
(3) سورة التوبة ـ من الآية: ٢٨.

أما قوله تعالى:

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ... ﴾[1]. فإنها - وإن نزلت سنة ست عام الحدبية - ليس فيها فريضة الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه، وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما، وذلك لا يقتضى وجوب الابتداء.

* ولما عزم صلى الله عليه وسلم على الحج أعلم الناس، ثم خطبهم خطبة علمهم فيها الإحرام وما يجب عليهم فى هذا الحال، وصلى الظهر بهم فى مسجد المدينة أربعًا، ثم ادَّهن وترجَّلَ وليس رداءه وإزاره، وخرج قبل العصر لستٍّ بقين من ذى القعدة، فنزل بذى الحليفة[2]، فصلى بها العصر ركعتين، ثم بات بها وطاف على كل نسائه فى تلك الليلة، ولما أراد الإحرام اغتسل وتطيب، ثم لبس الإزار والرداء، وصلى الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة فى مصلاه، ولمْ ينقل عنه أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر، وقَلَّد قبل الإحرام هَدْيَه[3] وأشعره فى جانبه الأيمن، فشقَّ صفحة سنامه.

* وكان يقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»

ورفع صوته بهذه التلبية حتى سمعها أصحابه، وأمرهم كذلك.

* وكان حجه على رحل لا فى محمل ولا هودج.

(١) سورة البقرة - من الآية: ١٩٦.

(٢) عين على ستة أميال من المدينة ميقات إحرام للشام والمدينة.

(٣) الهَدْى: ما يقربه الحاج إلى مكة من الإبل أو البقر أو الغنم؛ قربانًا لله وفداء عما يقصر فيه من الأعمال، وسمى هديا لأنه يُهْدَى إلى بيت الله، ولأنه يساق فى الأمام، فكأنه يهدى صاحبه إلى الطريق كما يهديه عمله الصالح يوم القيامة إلى الجنة...

* وولدت أسماء زوج أبى بكر بذى الحليفة محمد بن أبى بكر، فأمرها الرسول صلى الله على وسلم أن تغتسل وتُحرمَ وتُهِلَّ، فدل ذلك على أن الحائض تغتسل للإحرام، ويصح منها، ثم سار هو يلبى حتى إذا كان بالروحاء[1] أُهدى إليه لحم حمار وحشى صيد حلال، فأمر بتقسيمه بين رفاقه، فدل على جواز أكل المحرم من صيد الحلال إذا لم يصده لأجله[2].

* ولما كان بسَرَف[3] حاضت عائشة، فقال لها: افعلى ما يفعل الحاج غير ألا تطوفى بالبيت.

* ولما كان بمكة أمر من لا هَدْىَ معه أن يجعلها عمرة، فيطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة، ويحل من إحرامه. ومن معه هدى أن يقيم على إحرامه. ولم ينسخ ذلك شىء البتة. بل سأله سراقة بن مالك عن هذه العمرة التى أمرهم بالفسخ إليها هل هى لعامهم ذلك أم للأبد؟ قال: (بل للأبد) أى: هذا الأمر ليس خاصا بهم، بل لكل من يحج إلى الأبد.

* وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم الأمر بفسخ الحج إلى العمرة أربعة عشر من أصحابه، وأحاديثهم كلها صحاح، وفيها يقول: (ولولا أنَّ معى الهَدْىَ لأَحْلَلْتُ كما تُحلُّون) أو (فلولا أنىِّ سُقْتُ الهَدْىَ لفعلتُ مثلَ الذى أَمَرْتُكُم، ولكن لا يَحِلُّ منى إحرامٌ حتى يَبْلُغَ الهَدْىُ مَحِلَّه).

وقد أجابوا فقصروا[4] بعد أن طافوا بالبيت وبالصفا والمروة، ثم أقاموا فى حِلٍّ حتى إذا كانوا يوم التروية[5] أَهَلُّوا بالحج.

(١) الروحاء: موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلاً من المدينة.

(٢) لأن المحرم لا يجوز له أن يصيد صيد البر، لكن لو جاءه صيد صاده أحد حلال غير محرم يجوز أن يأكل منه، قال تعالى

﴿أحلَّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يُتْلَى عليكم غيرَ مُحلِّى الصيد وأنتم حرم..﴾

(٣) سَرَفَ: بفتح السين والراء: موضع قريب من مكة.

(٤) أى قصروا شعر الرأس، فتقصيره أو حلقه شعار الحِلِّ من الإحرام.

(٥) وهو اليوم الثامن من ذى الحجة.

* ولما رأى البيت قال: (اللهمَّ زِدْ هذا البيتَ تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومَهابة)

ذكره الطبرانى.

* فلما دخل المسجد عمد إلى البيت ولم يركع تحيةَ المسجد، إذ تحيته الطواف، فلما حاذى الحجر الأسود استلمه، ولم يزاحم عليه، ولم يحاذه بجميع بدنه، ولم يتقدم عنه إلى الركن اليمانى، ولم يرفع يديه، ولم يقل نويت بِطَوَافِى هذا كذا وكذا ولا افتتحه بالتكبير كالصلاة كما يفعله من لا علم عنده، بل هو من البدع المنكرات.

* ولما استقبل الحجر واستلمه أخذ عن يمينه جاعلاً البيت عن يساره، وحُفظ عنه بين الركنين: ﴿ ..رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1] ورمل[2] فى طوافه ثلاثة الأشواط الأولى. وكان يسرع مشيه ويقارب بين خطاه، واضطبع بردائه، فجعله على أحد كتفيه، وأبدى كتفه الآخر ومنكبه، وكلما حاذى الحجر الأسود أشار إليه واستلمه بمحجنه، وقبَّل المحجن، ـ والمحجن عصا محنية الرأس.

وثبت عنه أنه قبَّل الحجرَ نفسَه واستلمه بيده، واستلم الركن اليمانى ولم يقبله..

وذكر الطبرانى أن كان إذا استلم الركن اليمانى، قال: (باسم الله، والله أكبر) وكلما أتى على الحجر الأسود، قال: (الله أكبر).

* ولما فرغ من أشواط الطواف السبعة، جاء إلى خلف المقام[3] فقرأ ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[4]. فصلى ركعتين والمقام بينه وبين

(١) سورة البقرة ـ من الآية: ٢٠١.

(٢) رمل يرمل رملا: أى أسرع وهرول.

(٣) أى مقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

(٤) سورة البقرة ـ من الآية: ١٢٥.

البيت قرأ فيهما بعد الفاتحة سورة الإخلاص(١)، ثم خرج إلى الصفا، فلما قرب منه قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ(٢) مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ..﴾(٣): أبدأ بما بدأ الله به، ثم رقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبله وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

* ثم نزل إلى المروة يمشى، قال ابن عباس: ولما كثر عليه الناس ركب.

* وكان إذا وصل إلى المروة رقى عليها، واستقبل البيت، وكبر الله ووحَّده، وفعل كما فعل على الصفا حتى السبعة الأشواط سعيًا من غير رَمَل فى الثلاثة الأولى خاصة، على خلاف الطواف بالبيت.

* وهناك أَمَرَ كلَّ من لا هَدْىَ معه أن يحل حتما (كما تقدم) قارنًا أو مفردًا(٤)، وأمرهم أن يحلوا الحِلَّ كله من وطء النساء والطيب ولبس المخيط، وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية، ولم يحل هو من أجل هديه، وقال: لو استقبلتُ من أرى ما استدبرتُ لما سقتُ الهَدْىَ معى حتى أشتريه ثم أحل كما حلوا.

* وكان يصلى مدة مقامه بمكة بمنزله، فأقام أربعة أيام يقصر الصلاة، وتوجه يوم الخميس بمن معه إلى مِنًى، فأحرم بالحج مَنْ كان أحل منهم، ولم يدخلوا إلى المسجد فيحرموا منه، بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم، ثم نزل مِنًى، فصلى بها الظهر والعصر، وبات فيها ليلة الجمعة.

(١) أى أنه قرأ سورة الإخلاص فى كل ركعة بعد الفاتحة.

(٢) الصفا والمروة: جبلان يمشى الحاج والمعتمر بينهما ويرقى عليهما.

(٣) سورة البقرة - من الآية: ١٥٨.

(٤) المفرد: من يحرم بكلٍّ من الحج والعمرة علي حدة. والقارن: من يحرم بهما معا، فإذا أدي أعمال العمرة وتحلل من إحرامه إلي أن جاء فأحرم به سمي (متمتعا) قال تعالي: «فمن تمتع بالعمرة إلي الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب (البقرة - من الآية: ١٩٦).

* ولما طلعت الشمس سار إلى عرفة وأصحابه: منهم الملبى، ومنهم المكبر، وهو يسمع ولا ينكر على أحد، فلما أتى عُرَنَة[1] خطب الناس على راحلته خطبة عظيمة[2] قرر فيها قواعد الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقرر فيها تحريم المحرمات التى اتفقت الملل على تحريمها وهى: الدماء والأموال والأعراض، ووضع فيها أمور الجاهلية، وأوصاهم بالنساء خيراً، وذكر الحق الذى لهن وعليهن، وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله، وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به، ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه، واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون فقالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحتَ، فرفع أصبعه إلى السماء واستشهد الله عليهم، ثلاث مرات، وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم.

* ووقف بعرفة وخطب خطبة واحدة، ولم تكن خطبتين جلس بينهما، فلما أتمها أمرَ بلالاً فأذن، ثم أقام الصلاة فصلى الظهر ركعتين أَسَرَّ فيهما بالقراءة، وكان يوم الجمعة، فدل على أن المسافر لا يُصلى جمعةً، ثم أقام فصلى العصر ركعتين كذلك ومعه أهل مكة، وصلوا بصلاته قصراً وجمعًا بلا ريب، ولم يأمرهم بالإتمام ولا بترك الجمع.

* ومن قال إنه قال لهم: أتموا صلاتكم فإنا قوم سَفْرٌ، فقد غلط فيه غلطًا بيِّنًا، ووهم وهمًا قبيحًا.

* وإنما قال لهم ذلك فى غزاة الفتح بجوف مكة، حيث كانوا فى ديارهم مقيمين؛ ولهذا كان أصح أقوال العلماء أن أهل مكة يقصرون ويجمعون بعرفة، كما فعلوا مع النبى صلى الله عليه وسلم - .

وفى هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يتحدد بمسافة معلومة ولا بأيام معلومة، ولا تأثير للنسك فى قصر الصلاة البتة، وإنما التأثير لما جعله الله سببًا وهو السفر، هذا مقتضى السنة، ولا وجه لما ذهب إليه المحددون.

(١) واد حذاء عرفات وليس من الموقف.

(٢)سأذكرها بتمامها إن شاء الله بعد ذلك.

* فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف فى ذيل الجبل عند الصخرات، واستقبل القبلة على بعيره، ثم أخذ فى الدعاء والتضرع إلى غروب الشمس، وأخبر الناس أن عرفة لا تختص بموقفه ذلك، بل قال: (وقفتُ ها هنا وعرفةُ كلُّها موقفٌ) وأرسل إلى الناس أن يكونوا على مشاعرهم ويقفوا بها؛ فإنها من إرث أبيهم إبراهيم، وهناك أقبل نَاس من أهل نجد، فسألوه عن الحج، فقال: الحجُّ يوم عرفةَ، مَنْ أدركَ قبلَ صلاةِ الصبحِ فقد أدركَ الحجَّ، أيامُ مِنًى ثلاثة، فمن تعجَّل فى يومَيْن فلا إثمَ عليه، ومن تأخَّر فلا إثم عليه لمن اتقى، وأخبر أنَّ خير الدعاء يوم عرفة.

وكان فى دعائه رافعًا يديه إلى صدره كاستطعام المسكين.

ومن دعائه فى الموقف:

* (اللهمَّ لكَ الحمدُ كالذى نقول، وخيرًا ممَّا نقولُ، اللهم لك صلاتى ونُسُكى ومحيايَ ومماتى، وإليك مآبى، ولك تُراثى، اللهمَّ إنى أعوذُ بكَ من عذابِ القبر ووسوسةِ الصدرِ وشَتَاتِ الأمرِ، اللهمَّ إنى أعوذُ بكَ من شَرِّ ما تجيء به الريحُ)

ذكره الترمذى.

* وهناك نزلت عليه: ﴿ ... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾(1).

وسقط رجل من المسلمين عن راحلته هناك وهو محرم فمات، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُكفَّن فى ثوبيه، ولا يُمَسَّ بطيب، وأن يُغسل بماء وسدر، ولا يُغطى رأسه ولا وجهه، وأخبر أن الله تعالى يبعثه يومَ القيامة يُلبِّى.

(1) سورة المائدة ـ من الآية: ٣.

* ولما استحكم غروب الشمس أفاض من عرفة، وأردف أُسامة بن زيد خلفه وهو يقول: أيُّها الناسُ عليكم السكينةُ فإن البِرَّ ليس بالإيضاع - أى ليس بالإسراع - وأفاض من طريق المأزمين، وكان قد دخل من طريق ضب - وهكذا كانت عادته فى الأعياد أن يخالف الطريق (وقد تقدم حكمة ذلك عن الكلام على هديه فى العيد).

* ثم جعل يسير سيراً ليس بالبطىء ولا السريع، وهى يلبى ولا يقطع التلبية، حتى وصل المزدلفة فتوضأ للصلاة، ثم أمر بالأذان فأُذِّن وأقام، وصلى المغرب قبل حَطِّ الرحال، فلما حطوها أمر فأقيمت الصلاة، فصلى العشاء، فلم يُصَلِّ بينهما شيئًا، وصلاَّهما بأذان وإقامتين كما فعل بعرفة، ثم نام حتى أصبح ولم يُحْيِ تلك الليلة ولا صح عنه فى إحياء ليلتى العيد شىء، وأذِنَ فى تلك الليلة لِضَعَفَةِ أهله أن يتقدموا إلى مِنًى قبل طلوع الفجر، وأمرهم ألا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمسُ - وهذا الذى صححه الترمذى وغيره.

وقد ورد فى بعض الروايات الرمى مع الفجر، ولا تعارض ما دام هناك مشقة كبيرة على الرمى بعد الشمس كازدحام المرأة وكبير السن والمريض، فإنهم يعجلون قبل ذلك، ولا حرج عليهم.

* فلما طلع الفجر صلاها ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلةَ ودعا الله وذكره حتى أسفر(١)، وانطلق مردفًا للفضل بن عباس وهو يلبى فى مسيره، وأسامة على رجليه فى سباق قريش.

(١) قال تعالى: (... فإذا أفضتُم من عرفات فاذكروا اللهَ عند المشعرِ الحرامِ واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا مَن حيث أفَاضَ الناسُ واستغفروا اللهَ إن الله عفور رحيم. فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا اللهَ كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خَلاق. ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) «سورة البقرة - من الآية: ١٩٨ - ٢٠٢».

وفى طريقه هذا أمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات، فجعل ينفضهن فى كفه ويقول: أمثال هؤلاء فارموا وإياكم والغُلُوَّ فى الدين؛ فإنما أهلكَ من كان قبلكم الغُلُوُّ فى الدينِ.

وفى طريقه تلك عرضت له امرأة من خثعم جميلة، فسألته عن الحج عن أبيها، وكان شيخًا كبيرًا لا يستمسك على الراحلة، فأمرها أن تحج عنه، وجعل الفضلُ ينظر إليها وتنظر إليه، فوضع يده على وجهه وصرفه عنها، وكان الفضل وسيمًا.

* لما أتى وادى محسِّر حرك ناقته، وأسرع كعادته فى المواضع التى نزل فيها بأس الله بأعدائه، فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل ما قصه الله علينا، إذْ حسر الفيل وانقطع عن الذهاب.

* وسلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى مِنًى، فأتى جمرة العقبة، فوقف فى أسفل الوادى، واستقبل الجمرة فرماها راكبًا بعد الشمس واحدة بعد واحدة، يكبر مع كل حصاة، وحينئذ قطع التلبية وبلال وأسامة معه: أحدهما آخذ بخطام ناقته، والآخر يُظِلُّه بثوب من الحر.

وفى هذا دليل على جواز استظلال المُحرم.

* ثم رجع إلى مِنًى فخطب الناس خطبة بليغة أعلمهم بحرمة يوم النحر وفضله وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله وأَخْذ مناسكهم عنه.

* وقال: لَعَلِّى لا أحج بعد عامى هذا، وعلمهم مناسكهم، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض، وأمر بالتبليغ عنه، وأخبر أنه رُبَّ مبلغ أوعى من سامع.

* وقال: «لا يجنى جانٍ إلا على نفسه، اعبدوا ربَّكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربِّكُم»

وودع حينئذ الناسَ، فقالوا حجة الوداع، وهناك سئل عن تقديم الرمى والذبح والحلق بعضها على بعض، فقال: لا حرجَ - ذكره ابن عباس وغيره - ثم انصرف إلى المنحر بمنى، فنحر ثلاثًا وستين بَدَنَةً بيده - عدد سنى عمره - قائمة معقولة[1]، ثم أمر عليا أن ينحر ما بقى من المائة، وأمره أن يتصدق بجلالها ولحومها وجلودها فى المساكين، ولا يعطى الجزار فى جزارتها شيئا منها، وقال: نحن نعطيه من عندنا، وقال: من شاء اقتطع.

* عن ابن عباس: نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة.

خرجه الصحيحان.

* وعن جابر أنهم نحروا البدنة فى حجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرة. على شرط مسلم.

* وثبت أنه صلى الله عليه وسلم ضحى عن نسائه. وهن تسع - ببقرة.

* ونحر صلى الله عليه وسلم بِمِنًى وأعلمهم أن مِنًى كلها منحر، وأن فجاج مكة طريق ومنحر.

---

(١) البَدَنَة بفتح الباء والدال: الناقة السمينة، وجمعها: (بُدْن) بضم الباء وسكون الدال قال تعالى: (والبُدْن جعلناها لكم من شعائِر اللهِ لكم فيها خيرٌ فاذكروا اسم الله عليها صوافَّ. .) سورة الحج - من الآية: ٣٦.

ومعنى صواف: مصفوفة، ومعنى وجبت جنوبها. . فى بقية الآية بعد ذلك: سقطت على الأرض، وذلك بعد نحرها. .

* ولما أتم النحر استدعى الحلاق، فأمر أن يأخذ جانبه الأيمن ثم الأيسر، وحلق كثير من الصحابة، وقصَّر بعضهم، قال تعالى:

﴿ ... لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ... ﴾(١) وفى هذا دليل على أن الحلق نسك، وليس بإطلاق من محظور.

* ثم أفاض إلى مكة قبل الظهر راكبًا، فطاف طواف الإفاضة، ولم يَطُفْ غيره، ولم يَسْعَ معه، ولم يَرْمُلْ فيه ولا فى طواف الوداع كما رمَل فى طواف القدوم.

* ولما قضى طوافه أتى إلى زمزم وهم يسقون، فقال: (لولا أن يَغْلبكُم الناس لنزلتُ فسقيتُ معكم) ثم ناولوه الدلو فشرب وهو قائم، ثم رجع إلى مِنًى فبات بها.

* ولما أصبح انتظر زوال الشمس، ثم مشى إلى الجمار فبدأ بالجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف فرماها بسبع حَصيات واحدة بعد واحدة يقول مع كل حصاة: الله أكبر، ثم يقدم على الجمرة، فيستقبل القبلةَ ويرفع يديه ويدعو الله طويلا، وكذلك فعل فى الجمرة الثانية والثالثة وهى جمرة العقبة، ولم يرمها من أعلاها كما يفعل الجهال ولا جعلها عن يمينه واستقبل البيت وقت الرمى كما ذكره غير واحد من الفقهاء.

* ولما رمى جمرة العقبة رجع من فوره، ولم يقف عندها يدعو؛ إذ دعاؤه كان كله فى نفس العبادة قبل الفراغ منها.

* وخطب صلى الله عليه وسلم الناس بِمِنًى خطبة ثانية، اليوم الثانى من النحر، كما ذكر أبو داود، وفيه نزل عليه سورة: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ وعرف أنه الوداع، وأخبر الناس، كما ذكر البيهقى، ولم يتعجل

(١) سورة الفتح ـ من الآية: ٢٧.

فى يومين، بل تأخر حتى أكمل رمى أيام التشريق الثلاثة، وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر.

* ولما وصل مكة طاف للوداع ليلاً سَحَرًا، ولم يرمُل فى هذا الطواف، وأخبرته صفية أنها حائض، فقال: أحابستنا هى؟ فقالوا له: إنها قد أفاضت قال: فَلْتَنْفِرْ إذًا. ورحل إلى المدينة.

* وقد رخَّصَ للعباس أن يبيت بمكة ليالى مِنًى من أجل سقايته ولرعاء الإبل أن يبيتوا خارج مِنًى عند إبلهم، ورخَّص لهم أن يرموا يوم النحر، ثم يجمعوا رمى يومين بعده يرمونه فى أحدهما.

* وفى أثناء ارتحاله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لقى ركبًا بالروحاء، فرفعت امرأة صبيا لها من محفة[1] فقالت: يا رسول الله، ألهذا حج؟ قال: نعم، ولك أجر.

* فلما أتى ذا الحليفة بات بها، فلما رأى المدينة كبَّر ثلاثًا، وقال لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ المُلْكُ، ولهَ الحمدُ، وهو على كل شيءٍ قديرٌ، آيبونَ تائبونَ عابدونَ ساجدون لربنّا حامدونَ، صدق اللهُ وعدَهُ، ونصرَ عبدَهُ، وهزَمَ الأحزابَ وحدَهُ).

ثم دخلها نهارًا.. والله أعلم.

** فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ كل هذا، حتى إذا ما حج إن شاء الله تعالى كان مهتديا بهدى رسول الله فى أدائه لتلك الفريضة التى هى ركن من أركان الإسلام الخمس التى بُنِىَ عليها، والتى لا بد وأن تؤديها ـ إن لم تكن قد أديتها ـ مادمت تستطيع إلى ذلك سبيلاً، قال تعالى:

---

(١) المحفة: مركب للنساء كالهودج إلا إنها لا تُقَبَّب.

﴿ . . .وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . . . ﴾(١).

وحتى تكون إن شاء الله تعالى من الحريصين على تحقيق هذا بكل رغبة لا رهبة، إليك هذه الأحاديث الشريفة الصحيحة:

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يأيُّها الناسُ، إن اللهَ قد فرضَ عليكم الحجَّ فحُجُّوا) فقال: رجل: أكلَّ عامٍ يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها(٢) ثلاثًا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو قلتُ نعم لوجَبتْ ولما استطعتُم) ثم قال: (ذَرُونى ما تركتُكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرةِ سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بشىء فَأْتُوا منه ما استطَعتُم، وإذا نهيتُكم عن شىءٍ فدعوه)

رواه مسلم.

* وعنه قال: سئل النبى صلى الله عليه وسلم أىُّ العمل أفضل(٣)؟ قال: (إيمانٌ بالله ورسولِه) قيل: ثم ماذا؟ قال: (الجهادُ فى سبيلُ اللهِ) قيل: ثم ماذا؟ قالَ: (حَجٌّ مبرورٌ)

متفق عليه.

و(المبرور): هو الذى لا يرتكب صاحبه فيه معصية.

* وعنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مَنْ حَجَّ فلم يرفُثْ(٤) ولم يَفسُقْ(٥)، رجع كيوم ولدته أمُّه) متفق عليه.

---

(١) سورة آل عمران ـ من الآية: ٩٧.

(٢) أى: حتى أعاد المقالة ثلاث مرات.

(٣) أى: أكثر ثوابًا عند الله.

(٤) أى: لم يَلْغُ بكلام فاحش.

(٥) أى: لم يرتكب فواحش أو حماقات، قال تعالى (فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ فى الحج). «سورة البقرة ـ من الآية: ١٩٧».

* وعنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (العمرةُ إلى العمرة كفَّارةٌ لما بينهما، والحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنَّةُ)

متفق عليه.

* وعن عائشة رضى اللهُ عنها قالت: قلتُ يا رسولُ اللهِ، نرى الجهادَ أفضل العملِ، أفلا نجاهد؟ فقال: (ولكن أفضل الجهادِ: حج مبررو)

رواه البخارى

* وعن ابن عباس رضى الله عنهما:

* أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (عمرةٌ فى رمضانَ تَعْدِلُ حجَّةً ـ أو حجةً معى)

متفق عليه.

* وعنه أن امرأة، قالت: يا رسولَ الله إن فريضة الله على عباده فى الحج أدكَتْ أبى شيخًا كبيرًا لا يثبتُ على الراحلة، أفأحجُّ عنه[1]؟

قال: (نعم)

متفق عليه.

* وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ما من يوم أكثر من أن يعتق اللهُ فيه عبده من النار من يوم عرفة)

رواه مسلم.

** وهناك موضوع[2] أحب كذلك أن يقف عليه الأخ المسلم، وهو:

(١) أى نيابة عنه.

(٢) يتصل بموضوع الهدى فى الحج.

هديه صلى الله عليه وسلم فى الهدايا، والضحايا، والعقيقة.

* وهى مختصة بالأزواج الثمانية المذكورة فى سورة الأنعام، ولم يُعرف عنه ولا عن الصحابة هَدْىٌ ولا أضحية ولا عقيقة من غيرها، وهذا مأخوذ من القرآن من مجموع أربع آيات:

إحداها: قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾(١).

والثانية: قوله تعالى: ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾(٢).

والثالثة: قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(٣).

والرابعة: قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ .. ﴾(٤).

(١) سورة المائدة ـ من الآية: ١.
(٢) سورة الحج ـ من الآية: ٢٨.
(٣) سورة الأنعام ـ من الآية: ١٤٢ ـ ١٤٤.
(٤) سورة المائدة ـ من الآية: ٩٥.

فدل على أن الذى يبلغ الكعبة من الهدى هو هذه الأزواج الثمانية. وهذا استنباط على بن أبى طالب رضى الله عنه.

** والذبائح التى هى قربة إلى الله وعبادة ثلاث: الهدى، والأضحية، والعقيقة:

* فأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنم، وأهدى الإبل، وأهدى عن نسائه البقر.

* وشَرَكَ بين أصحابه فى الهدى، كما تقدم، البدنة عن سبعة، والبقرة كذلك، وأباح لسائق الهدى رُكوبه بالمعروف حتى يجد ظهراً غيره، قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾(١).

* وأباح لأمته أن يأكلوا من هداياهم وضحاياهم ويتزودوا منها، قال تعالى:

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾(٢).

وذكر أبو داود من حديث جبير بن نفير عن ثوبان قال: ضَحَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: (يا ثوبانُ، أصلح لنا لحم هذه الشاة) فما زِلتُ أُطْعِمهُ منها حتى قدم المدينة.

وروى مسلم هذه القصة أيضا.

* وكان ربما قسم لحوم الهدى، وربما قال: من شاء اقتطع.

---

(١) سورة الحج ـ الآيتان: ٣٢ و ٣٣.

(٢) سورة الحج من الآية: ٢٨.

* وكان يذبح هدى العمرة عند المروة، وهدى القِران بمِنًى، وكذلك فعل ابن عمر.

* ولم ينحر إلا بعد أن حَلَّ يوم النحر بعد طلوع الشمس والرمى، فكان ترتيبه صلى الله عليه وسلم فى هذه الأربعة هكذا:

الرمى، ثم النحر، ثم الحلق، ثم الطواف. ولم يرخص فى النحر قبل طلوع الشمس البتة.

* وأما عن الأضحية: فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يضحى بكبشين ينحرهما بعد صلاة العيد، وأخبر أن من ذبح قبل الصلاة فليس من النسك فى شيء، وإنما هو لحم قدمه لأهله، عملاً بقوله تعالى:

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾(1).

* وقد كان من هديه صلى الله عليه وسلم اختيار الأضحية وسلامتها من العيوب، ويُضحى فى المصَلَّى. والشاة تجزى عن الرجل وأهل بيته ولو كثر عددهم، قال عطاء بن يسار: سألت أبا أيوب الأنصارى: كيف كانت الصحابة تُضَحِّى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: كان الرجل يضحى بالشاة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون.

قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

* وأما عن العقيقة: فقد ورد فى الموطأ ما نصه: قالوا: يا رسولَ الله يَنْسُكُ أحدُنا عن ولده؟ فقال: مَنْ أحبَّ منكم أن يَنْسُكَ عن ولده فليفعلْ: عنِ الغلام شاتان، وعن الجاريةِ شاةٌ، وقال: كلُّ غلامٍ رهينةٌ بعقيقته، تُذبَحُ عنه يومَ السابعِ، ويُحلَق رأسه، ويُسَمَّى.

---

(1) سورة الكوثر: 2.

وذكر رهينة لقوية الترغيب.

وصح عنه أنه عقَّ عن الحسن ـ رضى الله عنه ـ بكبش، وعن الحسين ـ عليه رضوان الله ـ بكبش. وكان مولد الحسن عام أُحد، ومولد الحسين فى العام القابل منه. روى ذلك ابن عباس وأنس.

** وأحب بعد ذلك أن أذكر الأخ المسلم ببعض الملاحظات المتعلقة بالأضحية، حتى يستفيد بها، وحتى يكون منفذاً لها إن شاء الله.

فقد قرأتُ:

* أن الأضحية هى كل ما يذبح من الإبل والبقر والغنم تقربًا إلى الله تعالى فى أيام عيد الأضحى المبارك..

* وأن أول وقتها بعد صلاة عيد الأضحى أو قدرها لمن لم يُصَلِّ العيدَ، وهذا باتفاق الجميع، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أولُ ما نبدأُ به فى يومِنا هذا ـ عيد الأضحى ـ أن نُصَلِّى، ثم نرجعَ فننحرَ، من فعل ذلكَ فقد أصابَ سُنَّتَنا، ومن ذبحَ قبل ذلك، فإنَّما هو لحمٌ قدَّمه لأهلِه، ليس من النُّسُكِ فى شىء)

* وينتهى وقت الذبح عند الشافعية إلى غروب الثالث من أيام التشريق، أى الرابع من أيام النحر، وعند غيره من الأئمة بانتهاء اليوم الثانى من أيام التشريق، أى الثالث من أيام النحر، وهذا هو المشهور من الأقوال.

* وهى ـ أى الأضحية ـ عند الحنفية: واجبة على الشخص الذى يملك نصاب الزكاة(١)، أى يجب عليه فعلها وإن لم يفعلها كان آثما.

(١) وهو ما يساوى: ٨٤ جرامًا من الذهب. تقريبًا. والله أعلم.

* وهى عند الشافعية والمالكية والحنابلة: سنة.. وعندهم: يشترطون القدرة، ولكن يفسرون القدرة بإمكان الحصول على ثمنها ولو دَيْنًا عند الحنابلة.

* وقال الشافعية: إن القادر هو الذى يملك ثمنها زائدًا عن حاجته وحاجة من يعول يوم العيد وأيام التشريق، كما يشترطون الحرية، فلا تُسَنُّ للعبد.

وزاد بعض الأئمة أن يكون مقيمًا، وزاد بعضهم كذلك ألا يكون حَاجا.

* وتصح الأضحية من الإبل والبقر والغنم، الذكر منها والأنثى باتفاق المذاهب الأربعة..

* ويرى بعض المذاهب: أن الأفضل الإبل، ثم البقر، ثم الغنم..

* ويرى البعض الآخر: أن الضأن أفضل، ولكلٍّ دليله.

* ويجزئ من الضأن: ما أتم الحول[1]، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر.

* ويجزئ من المعز: ما دخل فى السنة الثانية. ومن الإبل: ما دخل فى السادسة. ومن البقر: ما دخل فى الثالثة.

* وتصح الأضحية: بالجَمَّاء، وهى: المخلوقة بدون قرن، والبتراء، وهى: المخلوقة بدون ذَنَب، والخصى، وهو: مقطوع الأنثيين.

* ولا تجزئ الأضحية: بالعوراء البيِّن عورها، ولا بالعرجاء البيِّن عرجها، ولا بالعجفاء التى لا شحم لها، ولا بالمريضة البيِّن مرضها.

---

(١) الحول: أى السنة.

والقاعدة العامة فى هذا ألا تكون معيبة بعيب يعوقها عن السعى للأكل، أو ينقص لحمها وشحمها . . ويقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾(١).

* وتجزئ الشاة عن واحد، والواحد من الإبل والبقر عن سبعة (سواء أرادوا جميعهم الأضحية أو أراد بعضهم اللحم).

* كما تجزئ الشاه عن رب الأسرة، وعمن تلزمه نفقته من زوجته وعياله؛ لحديث أبى أيوب (كان الرجلُ فى عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يُضَحِّى بالشاةِ عنه وعن أهلِ بيتهِ، فيأكلون ويطعمون . .)

رواه ابن ماجه والترمذى.

* مع ملاحظة: أن الشاة للواحد أفضل من سُبع بقرة أو بدنة (واحدة من الإبل).

* ومع ملاحظة أنه:

* من السنة نحر الإبل قائمة معقولة يدها اليسرى، فيطعنُها بالحربة (السكِّين) فى الوهدة التى بين أصل الصدر والعنق.

* وتُذبحَ البقرة على جنبها الأيسر موجهة إلى القبلة، ويُستحب أن يُعرض عليها الماء قبل الذبح، وأن يحد الذابح شفرته، ثم يقول قبل تحريك يده بالسكين:

(وَجَّهْتُ وَجْهِىَ للذى فطرَ السموات والأرضَ حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونُسُكِى ومَحْيَاىَ ومماتى للَه ربِّ العالمين. لا شريكَ له وبذلك أُمِرتُ وأنا من المسلمين)

---

(١) سورة البقرة ـ من الآية: ٢٦٧.

ثم يقول: (اللهمَّ تَقبَّلْ منِّى كما تَقَبَّلْتَ من إبراهيم خليلك ومحمد حبيبك) ثم يقول عند الذبح: (باسم الله، والله أكبر، اللهمَّ إن هذا منك وإليك، فَتَقَبَّلْهُ من عبدك القائم بين يَدَيْك).

* ويُسَنُّ أن يذبح المضحى أضحيته بيده؛ فقد ورد فى حديث رواه مسلم أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم: (ضَحَّى بكبشَيْن أملحين[1] أقرنين[2]، ذبحهما بيده، وسمَّى وكبَّر، ووضع رجله على صفاحهما)[3].

* وإذا كان المُضحى لا يُحسن الذبحَ فإنه يجوز أن يُوَكِّل عنه من عُرف بذمته وأمانته.

* ومن السُّنَّة أن يأكل المضحى ثلث الأضحية، ويهدى ثلثها، ويتصدق بثلثها، وذلك لقوله تعالى:

﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾[4].

* ويستحب أن يتصدق بأفضلها، ويهدى الوسط، ويأكل الأقل.

** فتلك هى أهم أحكام الأضحية التى شرعت فى السنة الثانية من الهجرة، والتى أرجو أن يفوز الأخ المسلم بثوابها المشار إليه فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من ضحى طيبة بها نفسه محتسبًا لأضحيته كانت له حجابًا من النار).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من هراقة الدم، وإنها

(١) الأملح: أى الأبيض الخالص.

(٢) والأقرن: أى الذى له قرنان معتدلان.

(٣) أى جانب عنقها.

(٤) سورة الحج - من الآية: ٣٦.

لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفسًا)

رواه ابن ماجه، والترمذى.

* وحسبك أنك بهذا كذلك ستوسع على إخوانك من الفقراء والمساكين، وستذكِّر المسلمين بصفة عامة بالذبح العظيم الذى به افتدى الله تعالى سيدنا إسماعيل عليه السلام

﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾(١).

---

(١) سورة الصافات: ١٠٧.

هديه صلي الله عليه وسلم
في عيادة المريض

* فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يعود مَن مَرِضَ من أصحابه، وعاد غلامًا يهوديا كان يخدمه، وعاد عمه وهو مشرك، وعرض عليهما الإسلام، فأسلم اليهودى.

* وكان يدنو من المريض ويجلس عند رأسه، ويسأله عن حاله، ويدعو له، وذكر أنه كان يسأله عما يشتهى، فإن علم أنه لا يضره أمر له به.

* وكان إذا دخل على المريض يقول: (لا بأسَ، طَهُورٌ إن شاء الله).

* وكان يجعل يده اليمنى على المريض، ويقول: (اللهمَّ ربَّ الناس أذْهبِ الباس، اشْفِ أنت الشافى، لا شفاءَ إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادرُ سَقَمًا، امسح الباسَ ربَّ الناسِ، بيدك الشفاءُ، ولا كاشفَ له إلا أنت)

* وكان يدعو للمريض ثلاث مرات. ولما عاد سعدًا، قال: (اللهمَّ اشْفِ سعدًا، اللهمَّ اشفِ سعدًا، اللهمَّ اشفِ سعدًا).

* وكان إذا اشتكى الإنسان الشىء منه، أو كانت قرحة، أو جُرح وضع النبى صلى الله عليه وسلم السبابة على الأرض، ثم رفعها، وقال: (باسم الله تربة أرضِنا برقيقة بعضنا يشفى سقيمُنا بإذنِ ربنًا).

* ولم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم تخصيص يوم للعيادة، ولا وقت من ليل أو نهار.

* وكان إذا يئس من المريض، قال: ﴿ .. إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾(١).

هذا، وإذا كنا قد وقفنا على بعض (هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيادة المريض) - فإننى أرى إتمامًا للفائدة أن نقف على:

حكم عيادة المريض

كما جاء فى (الدين الخالص) ج ٧ حيث يقول ما خلاصته:

* العيادة - معناها - الزيارة وتفقد الحال، وهى حق من حقوق المسلم على المسلم (لحديث) أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (حَقُّ المسلمِ على المسلمِ ستٌّ، قيل: ما هنَّ يا رسولَ الله؟ قال: إذا لقيتَه فَسَلِّم عليه، وإذا دعاك فَأَجِبْه، وإذا استنصحكَ فانصَحْ له، وإذا عَطَس فحمِدَ الله فَسَمِّته(٢)، وإذا مَرِضَ فَعُدْهُ، وإذا مات فَاتْبَعْهُ)

أخرجه أحمد والشيخان.

ثم يقول: والكلام ينحصر فى خمسة مباحث:

(أ) **حكمها:** هى سنة مؤكدة عند الجمهور (لقول) ابن عباس رضى الله عنهما: (عِيادةُ المريض أولَ يوم سُنَّة، وبعد ذلك تطوع)

أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه النضر أبو عمر، وحديثه حسن.

---

(١) سورة البقرة - من الآية: ١٥٦.

(٢) (فسمته) بالسين المهملة: من السمت وهو القصد والطريق القويم، وروى بالشين المعجمة من التشميت وهو الدعاء بالخير والرحمة.

(وقال) البخارى: إنها واجبة، وقال ابن حمدان: إنها فرض كفاية (لحديث) أبى موسى الأشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (أَطْعِمُوا الجائعَ، وعودوا المريضَ، وفُكُّوا العانى)

أخرجه أحمد، والبخارى، وأبو داود

(ولحديث) أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (خَمْسٌ تجبُ للمسلمِ على أخيه:

ردُّ السلامِ، وتشميتُ العاطسِ، وإجابة الدعوةِ، وعيادةُ المريضِ، واتِّباعُ الجنائز)

أخرجه الشيخان، واللفظ لمسلم.

(وأجاب) الجمهور بأن الأمر فى الحديث الأول، والوجوب فى الثانى محمول على مزيد الترغيب فى عيادة المريض والاهتمام بشأنها، وللحث على التواصل والألفة، وإلا فهى فى الأصل مندوبة، وقد تصل إلى الوجوب فى حق البعض، وتتأكد فى حق مَن تُرجَى بركته، وتُسَنُّ فيمن يراعى حاله، وتباح فيما عدا ذلك (ونقل) النووى الإجماع على عدم الوجوب، يعنى على الأعيان.

(هذا) وقد استدل بعموم قوله: «عُودوا المريضَ» على مشروعية العيادة لكل مريض (وقد) جاء فى عيادة الأرمد بخصوصها حديث زيد بن أرقم قال:

(عادنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من وَجَعٍ كان بعينىَّ)

أخرجه أبو داود، وأحمد، والبيهقى، والبخارى فى الأدب المفرد، والحاكم وصححه.

* (ويلحق) بعيادة المريض تعهده وتفقد أحواله والتلطف به، وربما كان ذلك سببًا لنشاطه وانتعاش قوته، وفى إطلاق الحديث دليل على أن العيادة لا تتقيد بوقت.

(ب) **فضل العيادة:** فقد ورد فى فضلها والترغيب فيها أحاديث، منها:

(حديث) ثوبان أن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: (من عَادَ مريضًا لم يَزَلْ فى خرفة الجنة حتى يرجع، قيل يا رسولَ اللهِ، وما خرفةُ الجنة؟ قال: جنَاهَا)

أخرجه أحمد، ومسلم، والترمذى، والبيهقى.

* (وحديث) ثابت البنانى عن أنس أن النبى صلى الله على وسلم قال: (مَنْ توضَّأ فأحسنَ الوضوء، وعادَ أخاه المسلمَ محتسبًا بُوعِدَ من جهنمَّ مسيرةَ سبعين خريفًا، فقلت: يا أبا حمزة، ما الخريف، ؟ قال: العام)

أخرجه أبو داود

* (وحديث) ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (من عادَ مريضًا خاضَ فى الرحمة، فإذا جلس إليه غمرته الرحمةُ، فإن عادَه من أولِ النهارِ استغفرَ له سبعونَ ألفَ مَلَك حتى يُصبح، قيل: يا رسول الله، هذا للعائد، فما للمريض؟ قال: أضعاف هذا)

أخرجه الطبرانى فى الكبير، وقال الهيثمى: وفيه محمد بن عبد الملك الأنصارى، ولم أجد مَن ذكره.

* (وحديث) أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إن اللهَ تعالى يقول يومَ القيامة: يابن آدم، مرضتُ فلم تعدنى، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدى فلانًا مرض فلم تعده؟

أما علمت أنك لو عُدتَه لوجدتَنِى عنده؟ . .) (الحديث)

أخرجه مسلم.

أضاف المرض إليه تعالى ـ والمراد العبد ـ تشريفًا للمريض، ومعنى (وجدتنى عنده) أى وجدتَ ثوابى وكرامتى؛ لقوله فى تمام الحديث: (لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندى، لو أسقيتَه لوجدت ذلك عندى): أى ثوابه.

(جـ) آداب العيادة: ويندب فيها أمور المذكور منها هنا عشرة:

١ ـ يستحب لعائد المريض أن يدعو له بالشفاء، ويأمره بالصبر (لحديث) عائشة بنت سعد بن أبى وقاص أن أباها قال:

(اشتكيتُ بمكةَ، فجاءنى النبىُّ صلى الله عليه وسلم يعودُنى، ووضعَ يدَهُ على جبهتى، ثم مسحَ صدرِى وبطنى، ثم قال: اللهمَّ اشْفِ سَعْدًا وأتمم له هجرتَهُ)

أخرجه أبو داود، والبيهقى، وكذا البخارى مطولاً.

* (وعن) ابن عباس أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ عادَ مريضًا لم يحضرْ أجلُه، فقال عنده سبع مرار: أسألُ اللهَ العظيمَ ربَّ العرشِ العظيمِ أن يَشْفِيَك، إلا عافاه اللهُ من ذلك المرض)

أخرجه الثلاثة، وابن حبان.

* (وعن) ابن عَمرو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إذا جاءَ الرجلُ يعودُ مريضًا فليقل: اللهمَّ اشْفِ عبدَك ينكأ لك عدوا أو يمشى لك إلى جنازةٍ)

أخرجه أبود داد، والحاكم، وابن حبان.

* (وعن) أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال: (عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأنصار، فأكبَّ عليه يسأله قال: يا رسولَ اللهِ ما غَمضتُ منذ سبع ليالٍ، ولا أحَد يحضرنى، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أى أُخَىَّ، اصبِر، أى أُخَىَّ، اصبرْ، تخرجْ من ذنوبك كما دخَلتَ فيها)

أخرجه ابن أبى الدنيا.

٢ ـ ويستحب أن يقول الزائر للمريض: لا بأس عليك، طَهُورٌ إن شاء الله تعالى (لحديث) ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل يعوده فقال: (لا بأسَ، طَهُورٌ إن شاء الله، فقال: كلاَّ، بل هى حُمَّى تفور على شيخ كبير حتى تُزيره القبور، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: فنعم إذًا)

أخرجه البخارى.

٣ ـ ويستحب للزائر أن يضع يده على مكان المرض، ويُسَمِّى الله تعالى، ويدعو للمريض؛ لما تقدم، ولقول عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عاد مريضًا يضع يده على المكان الذى يألم، ثم يقول: (باسم الله)

أخرجه أبو يعلى بسند حسن.

٤ ـ ويستحب للزائر أن يُطيِّبَ نفس المريض بإطماعه فى الحياة وقرب الشفاء (لحديث) أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخلتمُ على المريض فنفِّسُوا له فى الأجل؛ فإن ذلك لا يَرُدُّ شيئًا، وهو يُطيِّبُ بنفس المريض)

أخرجه ابن ماجه، والترمذى بسند فيه لين.

٥ ـ ويستحب لعائد المريض أن يطلب منه الدعاء، فإن دعاءه مستجاب (لحديث) أنس أن النبى صلى الله عِلى وسلم قال: (عُودُوا المرضَى، ومُرُوهم فَلْيَدْعُوا لكم، فإنَّ دعوة المريضِ مستجابةٌ، وذَنْبَه مغفورٌ)

أخرجه الطبرانى فى الأوسط، وفيه عبد الرحمن بن قيس الغبى، وهو متروك الحديث.

٦ ـ ويُسْتَحَبُّ تخفيف العيادة وعدم تكريرها فى اليوم إلا إن رغب المريض فى ذلك، فإن رغب فى التطويل أو تكرير العيادة من صديق ونحوه ولا مشقة فى ذلك، فلا بأس به (ويؤيده) حديث عروة عن عائشة قالت: (لما أُصيبَ سعد بن معاذ يوم الخندق رماه رجل فى الأَكْحَل، فضرب عليه النبى صلى الله عليه وسلم خيمةً فى المسجد ليعودَه من قريب)

أخرجه أبو داود، ومسلم، وكذا البخارى مطولاً.

(وجه الدلالة) أن النبى صلى الله عليه وسلم ضرب عليه الخمية فى المسجد لتسهل عليه زيارته كثيراً.

٧ ـ ويستحب لمريد العيادة الوضوء، لحديث أنس السابق فى فضل العيادة.

٨ ـ ويستحب للعائد الذى يتبرك به المريض أن يتوضأ، ويصب عليهَ وضُوءَه(١) (لقول) جابر: مرضتُ مرضًا، فأتانى النبىُّ صلى الله عليه وسلم يعودُنى وأبو بكر وهما ماشيان، فوجدانى أُغْمِىَ علىَّ، فتوضأ النبى صلى الله عليه وسلم، ثم صَبَّ وَضُوءَه علىَّ، فأفقتُ، فإذا النبى صلى الله عليه وسلم! فقلت: يا رسولَ الله، كيف أصنع فى مالى؟ كيف أقضى فى مالى؟ فلم يجبنى بشىء حتى نزلت آية الميراث.

أخرجه البخارى.

---

(١) الوضوء بفتح الواو: هو الماء الذى يُتوضأ به.

٩ ـ والأفضل المشى فى العيادة، ولا بأس بالركوب، لا سيما إذا كان لحاجة (لحديث) جابر: (كان النبىُّ صلى الله عليه وسلم يعودُنى ليس براكب بغلاً ولا بِرْذَوْنًا[١]

أخرجه البخارى، وأبو داود، والترمذى، والحاكم.

(وعن) عروة أن أسامة بن زيد أخبره أن النبى صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على إكاف على قطيفة فَدَكِيَّة[٢]، وأردف أسامة وراءه يعود سعد بن عبادة قبل وقعة بدر

الحديث أخرجه البخارى

١٠ ـ ويستحب للعائد ألا يتناول عند المريض طعامًا ولا شرابًا؛ فإنه مكروه مُضَيِّع لثواب العيادة (لحديث) أبى أمامة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إذا عاد أحدُكم مريضًا فلا يأكلْ عنده شيئًا؛ فإنَّه حَظُّه من عيادتِه)

أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس، وفيه موسى بن وردان، ضعفه بن معين والذهبى.

وفى معنى الأكل ما اعتيد من إتحاف الزائر بشرب القهوة أو الشراب أو اللبن أو نحو ذلك. فينبغى تجنبه للعائد، إلا الأصل[٣] فى عيادة فرعه، فلا يمنع من ذلك (لحديث) سمرة بن جندب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (أنت ومالك لأبيك)

أخرجه الطبرانى، والبزار، وفيه عبد الله بن إسماعيل الحوارنى، قال أبو حاتم: ليِّن وبقية رجاله ثقات.

(١) البرذون: بكسر فسكون ففتح: فى الأصل الدابة، وفى العرف التركى من الخيل.

(٢) الإكاف ما يلى ظهر الحمار كالبردعة (والقطيفة) كساء يوضع فوق الإكاف (وفَدَكِية) بكسر بعد فتحتين نسبة إلى فدك قرية بالشام صنعت فيها.

(٣) أى أصل المريض كأبيه وأمه.

* (فائدة): قال جابر: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يأيُّها الناسُ، أنا أكرمُ الناسِ حَسَبًا.. .فذكر حديثًا وفيه: مَنْ عادَ مرضانا عُدْنا مرضاه)

أخرجه أبو الطيب الغول بسند ضعيف.

* ولذا قال ابن وهب وأحمد: لا تَعُدْ مَنْ لا يعودُك (لكن) قد يعارضه حديث قيس، رجلٍ من الأنصار، قال: أخبرتُ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (عُدْ مَنْ لا يَعودك)

أخرجه الديلمى، وهو حديث ضعيف.

وبجمعُ بينهما بأن هذا محمولٌ على الفضل، والأول على العدل.

(د) **عيادة المرأة**: فلا بأس بعيادة الرجل المرأة المريضة إذا لم تؤدِّ إلى خلوة بأجنبية (لحديث) عبد الملك بن عُمير عن أم العلاء، قالت: عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريضة فقال: (أبشرى يا أُمَّ العلاءِ؛ فإنَّ مرضَ المسلم يُذهِبُ الله به خطاياهُ، كما تُذهب النارُ خبثَ الذهبِ والفضةِ)

أخرجه أبو داود.

* (وللمرأة) الأجنبية عيادة الرجل مع التستر وأمن الفتنة (فقد) عادت أمٌّ الدرداء رجلاً من أهل المسجد من الأنصارِ.

ذكره البخارى معلقا.

(وقالت عائشة): لما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ وُعِك أبو بكر وبلال، فدخلتُ عليهما، فقلتُ يا أبتِ كيف تجدك؟ ويا بلالُ كيف تجدك؟ وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مُصَبَّح فى أهلِهِ والموتُ أدنَى من شِراك نعلِهِ(١)

(١) الشراك بكسر الشين: السير يكون فى وجه النعل، والمعنى: أن الموت أقرب إلى الشخص من شراك نعله برجله.

وكان بلال إذا أقلعت عنه يقول:

ألا ليتَ شِعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادٍ وحَوْلى إذْخَرٌ(١) وجَليلُ(٢)

وهل أَرِدَنْ يومًا مياه مَجِنَّةٍ(٣) ... وهل تبدوَنْ لى شامةٌ وطفيلُ(٤)

أخرجه البخارى.

(هـ) **عيادة الذمى:** فتجوز عيادته إذا رُجِىَ منها مصلحة له أو للعائد أو كان قريبًا له أو جارًا (لحديث) ثابت بن أنس أن غلامًا من اليهود مرض، فأتاه النبىُّ صلى الله وسلم يعوده، فقعد عند رأسه فقال: له: (أسلم) فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه فقال له أبوه: أَطِعْ أبا القاسم، فأسلم، فقام النبىُّ صلى الله عليه وسلم وهو يقول: (الحمدُ للهِ الذى أنقذَهُ بى من النارِ)

أخرجه البخارى، وأبو داود، والنسائى.

* (وعن) أنس أن أبا طالب مرض فعاده النبى صلى الله عليه وسلم فقال: (يا بنَ أخى ادْعُ إلـهك الذى تعبد أن يعافيَنى، فقال: (اللهمَّ اشْفِ عمى) فقام أبو طالب كأنما نُشط من عقال، فقال له يا بن أخى: إن إلـهكَ الذى تعبد لَيُطِيعُكَ، قال: (وأنتَ يا عَمُّ إن أطعت الله ليطيعك)

أخرجه الطبرانى فى الأوسط، وفيه الهيثم بن جماز البكاء، وهو ضعيف.

** وبهذا قال الجمهور. وقالت الحنبلية: لا يُعَادُ مبتدع ومجاهر بمعصية، وتحرم عيادة الذمى.

---

(١) الإذخر بكسر فسكون: نبت طيب الرائحة.

(٢) وجليل بالجيم: نبت صفيق يوضع فى سقف البيوت.

(٣) ومجنة بالجيم وشد النون: موضع على أميال من مكة كانْ به سوق.

(٤) وشامة وطفيل: قيل جبلان قرب مكة. وقال الخطابى: ثبت عندى أنهما عينان.

** ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يعود المرضى فحسب، بل كان من هديه صلى الله عليه وسلم التداوى فى نفسه والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه

(روى) أبو الزبير عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لكلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أُصِيبَ دواءُ الداءَ بَرِئَ بإذن الله عز وجل)

أخرجه مسلم.

* (وفى) الحديث إشارة إلى استحباب التداوى، وهو مذهب الجمهور، وفيه رد على من أنكر ذلك من غُلاة الصوفية، وقال: كل شىء بقضاء وقدر، فلا حاجة إلى التداوى، (وَرُدَّ) بأنه أيضًا من قدر الله، وهذا كالأمر بالدعاء، وكالأمر بقتال الكفار، وبالتحصن، ومجانبة الإلقاء باليد إلى التهلكة، مع أن الأجل لا يتغير، والمقادير لا تتأخر ولا تتقدم عن أوقاتها.

وقد تضمنت أحاديث باب:

استحباب التداوى: إثبات الأسباب والمسببات والرد على من أنكرها (وقوله) لكل داء دواء يحتمل العموم، فيتناول الأدواء القاتلة والتى لا يمكن طبيا أن يبرئها، ويكون الله تعالى قد جعل لها أدوية تبرئها، ولكن طوى علمها عن البشر؛ ولذا علق النبى صلى الله عليه وسلم الشفاء على مصادفة الداوء للداء

(ويحتمل) أن يكون من العام المراد به الخاص، ويكون المراد أن الله تعالى لم يضع داء يقبل الدواء إلا وضع له دواء، فلا يدخل فى هذا الأدواء التى لا تقبل الدواء. ومن تأمل خلق الأضداد فى هذا العالم وتسليط بعضها على بعض، تبين له كمال قدرة الله تعالى وحكمته وإتقان صنعه، وتفرده بالوحدانية والقهر، وأنه الغنى بذاته وكل ما سواه محتاج إليه

(انظر ص ٦٧ ج ٣ زاد المعاد).

* (وقال) أسامة بن شريك: أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه كأنَّ على رءُوسِهم الطيرَ، فسلمتُ، ثم قعدتُ، فجاء الأعرابُ من هاهنا وهاهنا، فقالوا: يا رسولَ الله، أنتداوى؟ فقال: (تَدَاوَوْا؛ فإن الله تعالى لم يَضَعْ داءً إلا وَضَعَ له داوءً غيرَ داء واحد: الهرم).

أخرجه أحمد، والأربعة، وقال الترمذى: حسن صحيح.

* (وعن) ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ اللهَ لم يُنزِلْ داءً إلا أنزلَ لَهُ شفاءً فَتَدَاوَوْا)

أخرجه النسائى، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وصححاه[1].

(والظاهر) كما يقول فى (الدين الخالص): أن الأمر فى الحديثين للإباحة؛ لأن السؤال إنما هو عنها (ولذا) قالت المالكية: التداوى وتركه سواء (وقال) بعض الشافعية: الأمر للندب؛ ولذا قالوا: التداوى أفضل من الترك (ورُدَّ) بأنه قد ورد فى مدح مَن ترك الدواء والاسترقاء توكلا على الله تعالى أحاديث (ولذا) قالت الحنبلية: ترك التداوى أفضل (لحديث) ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفًا بغير حسابٍ هم الذين لا يَسترقون ولا يَتَطَيَّرون ولا يكْتَوُون، وعلى ربهم يتوكلونَ)

أخرجه الشيخان.

* (وعن) المغيرة بن شعبة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (مَنِ اكْتَوَى أو استرقى فقد بَرِئَ من التوكُّل)

أخرجه أحمد والترمذى وصححه، وابن ماجه، والحاكم.

(١) انظر ص ١٧٧ ج ٢ وص ١٠٤ ج ١٠ فتح البارى.

* (وقال) الحنفيون: التداوى آكَدُ؛ للأمر به، وقد تداوى النبى صلى الله عليه وسلم

(قالت) عائشة: إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كَثُرَتْ أسقامُه فكان يقوم عليه أطباء العرب والعجم، فيصفون له، فنعالجه.

أخرجه أحمد.

* والمعَوَّل عليه: أن التداوى لا ينافى التوكل، كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب، وكذلك تجنب المهلكات والدعاء وطلب العافية ودفع المضار وغير ذلك

(وأجابوا) عن حديثى ابن عباس والمغيرة بأن أهل الجاهلية كانوا يسترقون بالكلمات الخبيثة، ويكتوون زاعمين أن الرقية والكىَّ يمنعنان من المرض أبدًا؛ فلذا منع منهُ النبى صلى الله عليه وسلم، وأخبر أن من فعله فقد برئ من التوكل.

أما من تداوى أو استرقى أو اكتوى معتقدًا أنها أسباب تنفع بإذن الله تعالى، وأنها لا تنجع بذاتها، بل بما قدَّر الله ـ فهذا مطلوب لا ينافى التوكل.

* (قال) ابن القيم: لا يتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله مقتضيات مسبباتها قدراً وشرعًا، وتعطيلها يقدح فى نفس التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى فى حصول ما ينفع العبد فى دينه ودنياه ودفع ما يضره فيهما. ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب. وإلا كان معطلا للحكمة والشرع.

(وقد روى) أن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال: يا رب، ممن الداء؟ قال: (منِّى) قال: فممن الدواء؟ قال: (منِّى) قال: فما بال الطبيب؟ قال: (رجل أُرسِلُ الدواءَ على يَدَيْه).

* وفى قوله صلى الله عليه وسلم: (لكل داءٍ دواءٌ) تقوية لنفس المريض والطبيب، وحثٌّ على طلب الدواء؛ فإن المريضَ إذا استشعر أن لدائه دواء تعلق قلبه بالرجاء وترك اليأس، ومتى قويت نفسه تغلبت على المرض ودفعته، والطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء بحث عنه.

* وأمراض الأبدان كأمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضًا إلا جعل له شفاء بضده، فإن علمه صاحب الداء واستعمله وصادف داء قلبه أبرأه بإذن الله تعالى (انظر ص ٦٧ و ٦٨ ج٣ زاد المعاد).

** وقد أشار فى (الدين الخالص) إلى ملاحظتين ينبغى علينا كذلك أن نقف عليهما:

أولاهما، عن (الطبيب) وأنه ينبغى أن يكون مسلمًا ثقة، ويكره لغير ضرورة التداوى من ذمى لعدم الثقة بهم (أما) إذا دعت الضرورة لذلك فلا كراهة إذا كان خبيراً ثقة عند المريض. . .

(وقد روى) أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن يُستَطَبَّ(١) الحارث بن كَلَدَةَ، وكان كافراً. (وكذلك) لا يجوز للمرأة الأجنبية معالجة الرجل إلا لضرورة (وعليه) يحمل حديث الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ، قالت: كنا نغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم، فنسقى القوم، ونخدمهم، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة.

أخرجه البخارى.

وفى رواية: كنا نسقى ونداوى الجرحى ونرد القتلى.

* (ففيه) جواز معالجة المرأة الأجنبية الرجل الأجنبى للضرورة، ولكن تكون بلا مباشرة ولا مس إذا أمكن، وإلا فالضرورة تبيح المحظورة، وتعالج

---

(١) يستطب بضم الياء: أى يجعل طبيبًا.

المرأة المرأة إن تيسر، وإلا داواها الرجل بعد ستر جسدها، إلا موضع المرض، ويغض بصره ما استطاع إلا عن موضع الجرح.

ومما تقدم يُعلم جواز عرض المريض على الطبيب (ويؤيده) حديث زيد بن أسلم أن رجلاً أصابه جُرح، فاحتقن الدم، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم برجلين من بنى أنمار، فقال (أيكما أطب؟) فقال: وفى الطب؟ قال: (الذى أنزل الداء أنزل الدواء)

أخرجه مالك فى الموطأ.

وفى قوله: (أيكما أطب) دليل على أنه ينبغى اختيار الحاذق فى الطب.

* والملاحظة الثانية، حول: (ما يجوز التداوى به وما لا يجوز): فذكر أنه يجوز التداوى بالطاهر الحلال، ولا يجوز بالنجس والحرام (لحديث) مجاهد عن أبى هريرة قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدواء الخبيث)

أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والترمذى، وزاد يعنى السم.

والدواء الخبيث قد يكون خبثه لنجاسته وحرمته كالخمر والبول والعَذِرة ولحم غير المأكول.

(وعن) أبى الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ اللهَ أنزل الداءَ والدواءَ، وجعل لكلِّ داءٍ دواءً، فَتَدَاوَوْا، ولا تَتَداوَوْا بحرام)

أخرجه أبو داود، وفى سنده إسماعيل بن عيَّاش، وفيه مقال.

(وهذان) الحديثان: محمولان على النهى عن التداوى بالمسكر والحرام من غير ضرورة للجمع بينهما وبين حديث العُرَنِيِّين الذى جاء فيه عن أنس: (أن ناسًا من عُرَينة قدموا المدنية، فاجتَوَوْها، فبعثَهم النبىُّ صلى الله عليه وسلم

إلى إبلِ الصدقة، وقال: اشربوا من ألبانها وأبوالِها، فشربوا من ألبانِها وأبوالِها حتى صَلُحَتْ أبدانهُم...) (الحديث)

أخرجه الشيخان والترمذى، وقال حسن صحيح.

* ولا فرق فى المُحرَّم بين كونه مأكولاً أو غيره، كلبن الأتان[1] والخمر والسم، والتميمة وهى خرزة أو خيط ونحوه يعلقها المريض.

* والصحيح من مذهب الشافعى: جواز التداوى بالنجس سوى المسكر؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر العُرنيين بالشراب من أبوال الإبل للتداوى (وَرُدَّ) بأنها طاهرة عند مالك، وعلى أنها نجسة فإنما أمر النبى صلى الله عليه وسلم العُرَنِيِّين بالتداوى بها لأنه علم أن شفاءهم فيها، فهو خاص بهم، أو يُقال: يحرم التداوى بكل حرام إلا أبوال الإبل؛ لإذن النبى صلى الله عليه وسلم بالتداوى بها (ويدل) على حرمة التداوى بالنجس (مطلقًا) حديث عبد الرحمن بن عثمان أن طبيبًا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ضفدع يجعلها فى دواء، فنهاه النبى صلى الله عليه وسلم عن قتلها.

أخرجه أبو داود والنسائى.

(دل) على أن الضفدع يحرم أكله، فيحرم التداوى به؛ لأنه نجس.

* (وعن) علقمة بن وائل بن حُجْر عن أبيه: (أن طارق بن سُويد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الخمر، فنهاه، ثم سأله فنهاه.

فقال له: يا نبى الله: إنها دواء، قال النبى:

(لا، ولكنها داء)

أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذى، وقال: حسن صحيح.

---

(1) الأتان: الحمارة، ولا تقل أتانة. (مختار الصحاح).

(ففيه) التصريح بأن الخمر ليست بدواء بل داء، فيحرم التداوى بها عند أكثر الفقهاء، كما يحرم شربها. وأباح بعضهم التداوى بها عند الضرورة؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم (أباح) لِلْعُرَنِيِّين التداوى بأبوال الإبل، وهى محرمة.

(وَرُدَّ) بأن النبى صلى الله عليه وسلم منع التداوى بالخمر، وذكر أنها داء، وأباح التداوى ببول الإبل، فلا يصح قياس أحدهما على الآخر بعد أن فرَّق بينهما النبى صلى الله عليه وسلم

(أما) إذا غُصَّ إنسان بلقمة، ولم يجد ما يُسيغها إلا الخمر فيلزمه الإساغة بها؛ لأن حصولها حينئذ مقطوع به بخلاف التداوى

(هذا) وقد نص الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ على كراهة التداوى بما يصنعه أهل الذمة؛ لأنه لا يؤمن أن يخلط به شىء محرم.

هديه صلى الله عليه وسلم فى الجنائز

كان أول تعاهده صلى الله عليه وسلم للمريض فى مرضه أن يذكره الآخرة، ويأمره بالوصية والتوبة، ويأمر من حضره بتلقينه شهادة أن لا إله إلا الله؛ لتكون آخر كلامه، ثم ينهى عن عادة الأمم التى لا تؤمن بالبعث من لطم الخدود، وشق الثياب، ورفع الصوت بالنياحة، وتوابع ذلك.

وسَنَّ الخشوع للميت والبكاء الذى لا صوت معه، وحزن القلب.

وكان يفعل ذلك ويقول تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا.

(روى) ثابت البنانى عن أنس قال: دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى سيف القَين[1] وكان ظئراً[2] لإبراهيم فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبَّله وَ شَمَّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلَت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: (يابنَ عوف إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى. فقال: رسول الله صلى الله عيه وسلم: إن العينَ تدمعُ، والقلبَ يحزنُ ولا نقولُ إلا ما يُرضى ربنًا وإنَّا بفراقِك يا إبراهيم لمحزونون) أخرجه الشيخان، والبيهقى، وهذا لفط البخارى.

---

(١) القين: بفتح فسكون: أى الحداد.

(٢) الظئر: بكسر فسكون أى زوج المرضع.

ومعنى: (عيناه تذرفان) أى يجرى دمعهما. (وإنها رحمة) أى: ما تراه من دمع العين هو رحمة أودعها الله فى قلوب عباده المؤمنين تنشأ عن رقة القلب لا من الجزع.

و(لمحزونون) أى: كان حزن النبى صلى الله عليه وسلم بحكم الطبيعة البشرية، وهذا ليس محظوراً فى الشرع إلا إن صَحِبَهُ رفع صوت وجزع.

وخاطب النبى صلى الله عليه وسلم ابنه إبراهيم بهذه الكلمات مع أنه لم يكن يفهم الخطاب لصغره واحتضاره؛ ليبين أن مثل هذا القول ليس منهيا عنه.

أما النياحة[1] والندب[2]: فهما محرمان:

فيحرم البكاء على الميت إذا صحبه نياحة وندب، أو ضجر، أو ضرب خد، أو شق جيب، أو خمش وجه، أو نشر شعر، وعويل وصراخ، أو دعاء بالويل والثبور، ونحو ذلك مما يدل على عدم الرضا بقضاء الله وقدره.

(وقد) ورد فى النهى عن ذلك عدة أحاديث (منها):

* حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (ليس مِنَّا مَنْ شَقَّ الجيوبَ، ولطمَ الخدودَ، ودعا بدعوى الجاهلية)

أخرجه البيهقى، والسبعة[3] إلا أبا داود.

---

(١) النياحة: من النوح، وهو رفع الصوت بالبكاء.

(٢) والندب: هو تعديد المحاسن والتغالى فيها.

(٣) وهم البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وأحمد.

ومعنى: (ليس منا) أى: ليس من أهل سُنَّتِنا وطريقتنا الكاملة من فعل ذلك. فالمراد به المبالغة فى الردع والزجر عن فعل ما ذُكر، وليس المراد إخراجه من الدين، إلا إن استحل ما ذكر مع العلم بتحريمه أو فعله ساخطاً على القضاء، فإنه يكفر والعياذ بالله تعالى. والمراد بشق الجيب: إكمال فتحه إلى آخر الثوب، وهو من علامات عدم الرضا بالقضاء، وخص الخد باللطم لكونه الغالب، وإلا فلطم بقية الوجه كذلك، والمراد بدعوى الجاهلية: النياحة والندب، كقولهم: واجملاه! واسنداه! واظهراه! إلى غير ذلك.

* وحديث يزيد بن أوس قال: أُغْمِى على أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فَبَكَوْا عليه، فقال: إنى برىء ممن بَرِئَ منه النبى صلى الله عليه وسلم، فسألوا عن ذلك امرأته، فقالت: مَنَ حلق، أو خَرق، أو سَلق.

أخرجه النسائى. وأبو داود، وأحمد، وهذا لفظه.

ومعنى: (برئ) من البراءة، وهى فى الأصل الانفصال من الشىء، والمراد التوعد بألا يدخله فى شفاعته مثلا. (ومن حلق) أى من حلق شعره عند المصيبة (وخرق) أى شق ثوبه (وسلق) بالسين المهملة، ويروى بالصاد من باب ضرب: أى رفع صوته بالبكاء.

* وحديث أبى بُردة بن أبى موسى قال: وجِع أبو موسى وَجعًا، فغُشِى عليه ورأسه فى حجر امرأةٍ من أهله، فصاحت، فلم يستطع أن يَرُدَّ عليها شيئًا، فلما أفاق قال: إنى برىء ممن برئ منه محمد صلى الله عليه وسلم، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم برئ من العالقة والحالقة والشاقة.
أخرجه البخارى.

** وقد نسأل: وهل يُعذب الميت بالنياحة عليه؟:

وحسبنا لكى نقف على إجابة هذا السؤال، أن نقرأ الأحاديث الشريفة الآتية:

* روى ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (مَن نِيحَ عليه فإنه يُعذَّبُ بما نِيحَ عليه يوم القيامة)

أخرجه أحمد.

* وعن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (الميت يُعَذَّبُ فى قبره بما نِيحَ عليه)

أخرجه أحمد، والشيخان، والنسائى، وابن ماجه، والبيهقى.

* وعن أنس أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما عوّلت عليه حفصة قال: يا حفصة أما سمعتِ النبى صلى الله عليه وسلم قال: المُعَوَّل عليه يُعَذَّب؟

وعَوَّل صُهيب فقال عمر: يا صُهيبُ، أما علمتَ أن المعَوَّل عليه يُعذَّب؟.

أخرجه أحمد، ومسلم، والنسائى، والبيهقى.

فظاهر هذه الأحاديث كما يقول فى: (الدين الخالص): أن الميت يُعذب بالبكاء عليه بصوت ونوح مطلقاً، وبه قال عمر وابنه والمغيرة بن شعبة وأبو موسى الأشعرى وغيرهم.

و(قال) جماعة من الشافعية منهم أبو حامد: إن الميت لا يُعذّب ببكاء الغير عليه مطلقاً، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(١).

(وروى) عن أبى هريرة وعائشة: روى هشام بن عروة عن أبيه أن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الميت ليُعذَّبُ ببكاء أهله) فذكر ذلك لعائشة فقالت: وَهَلَ(٢) (تعنى ابن عمر) إنما مر النبىُّ صلى الله

(١) جزء من الآية ١٦٤ من الأنعام، ومن الآية ١٥ من الإسراء، ومن الآية ١٨ من فاطر، ومن الآية ٧ من الزمر.

(٢) وهَلَ بفتح الهاء: أى ذهب وَهْمُه إلى ما قال.

عليه وسلم على قبر فقال، (إن صاحبَ هذا ليُعذَّب وأهله يبكون عليه) أخرجه البيهقى، والسبعة إلا البخارى، وابن ماجه.

و(الجواب) أن إنكار عائشة هذا، وحكمها على ابن عمر بالخطأ والنسيان غير مُسَلَّم؛ لأنه قد ثبت الحديث عن عمر وأبى موسى الأشعرى والمغيرة بن شعبة، كما ثبت عن ابن عمر، وهم جازمون به، فلا وجه للنفى مع إمكان تأويله تأويلاً صحيحاً، فإنكار عائشة لذلك بعد رواية الثقات لا يُعَوَّلُ عليه فإنهم قد يحضرون ما لا تحضره، ويشهدون ما تغيب عنه، واحتمال السهو والغلط بعيد جدا.

و(ذهب) الجمهور إلى تأويل الأحاديث الدالة على تعذيب الميت ببكاء أهله عليه لمخالفتها لقوله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)(١) أى لا تحمل نفس مذنبة إثم نفس أخرى. وكذا غير المذنبة لا تحمل ذنب أخرى. . . .

وأحسن تأويل فى هذه المسألة أن المراد بالتعذيب توبيخ الملائكة الميت بما يندبه أهله به (ويؤيده) حديث أَسِيد بن أبى أسيد عن موسى بن أبى موسى الأشعرى عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (الميتُ يُعَذَّبُ ببكاءِ الحيِّ عليه، إذا قالت النائحة: واعَضُداهُ! واناصراهُ! واكَاسياه! جُبِذ الميت، وقيل له: أنت عضدها؟ أنت ناصرها؟ أنت كاسيها؟) فقلت: سبحان الله! يقول الله عز وجل: (ولا تَزِر وازِرةٌ وِزرَ أُخرى)(٢) فقال: ويحكَ أحدثك عن أبى موسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول هذا؟ فأيُّنا كذب؟ فوالله ما كذبتُ على أبى موسى، ولا كذب أبو موسى على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أخرجه أحمد، وابن ماجه.

---

(١) سبقت الإشارة إلى مواضعها من السور.

(٢) سبقت الإشارة إلى مواضعها من السور.

* وعن أبى موسى أن رسول لله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من ميِّتٍ يموتُ فيقومُ باكيهم فيقول: واجبلاهُ! واسيداهُ! أو نحو ذلك إلا وُكِّلَ به ملكَان يلهَزَانه أهكذا كنتَ؟

أخرجه الترمذى، وقال: حسن غريب، والحاكم وصححه.

* وعن النعمان بن بشير قال: أُغْمِى على عبد الله بن رواحة، فَجَعلتْ أخته تبكى. وتقول: واجبلاه! وَاكذاً وَاكذا تُعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلتِ شيئًا إلا قيل لى: آنت كذلك؟ فلما مات لم تبك عليه.

أخرجه البخارى.

** والخلاصة التى ينبغى أن ننتهى إليها ـ كما جاء فى (الدين الخالص) ـ هى أنه يحتمل أن يجمع بين هذه التوجيهات، فينزل على اختلاف الأشخاص بأن يقال مثلا: من كانت طريقته النوح فمشى أهله على طريقته أو بالغ فأوصاهم بذلك عُذِّب بُصنعه، ومن كان ظالماً فنُدب بأفعاله الجائرة عُذِّب بما نُدبَ به. ومن كان يعرف من أهله النياحة، فأهملَ نهيهم عنها: فإن كان راضياً بذلك التحق بالأول، وإن كان غير راضٍ عُذِّب بالتوبيخ كيف أهمل النهى، ومن سَلِمَ من ذلك كله واحتاط، فنهى أهله عن المعصية، ثم خالفوه وفعلوا ذلك كان تعذيبه تألمه بما يراه منهم من مخالفة أمره وإقدامهم على معصية ربهم.

* (وحكى) الكرمانى تفسيراً آخر وهو التفرقة بين حال البرزخ وحال يوم القيامة، فحمل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(١) على يوم القيامة، وأحاديث تعذيب الميت بنوح أهله عليه على البرزخ. (ويؤيده) أن مثل ذلك يقع فى الدنيا، والإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾(٢) : فإنها دالة على جواز تعذيب

(١) سبق بيان مواضعها من السور.

(٢) الأنفال ـ من الآية: ٢٥.

الإنسان بما ليس فيه تسبب، فكذلك يمكن أن يكون الحال فى البرزخ بخلاف يوم القيامة (انظر ص١٠٠ ج٣ فتح البارى - قول النبى صلى الله عليه وسلم: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه).

** ولهذا، فإننى أنصح الأخ المسلم بأن يعجل بوصيته - التحريرية والشفوية - التى يعلن فيها براءته من أهله إذا هم فعلوا ما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عند موته أو بعد موته: من لطم للخدود، وشق للجيوب... إلخ. حتى لا يعذب بسبب فعلهم هذا.. وحتى يكون بسبب هذه الوصية فى مأمن من عذاب الله تعالى فى القبر أو يوم القيامة، أو فيهما معًا، إذا أهمل هذا أو كان موافقاً عليه أو راضياً عن فعله فى حياته الدنيوية التى لابد أن يعلم أنه فيها لأجل معلوم يعلمه الله سبحانه وتعالى وحده.

ومن أجمل ما قرأت فى هذا الموضوع (وصيةٌ) شرعية، يقول فيها قائلها عليه رحمة الله موصِيًا أهله:

وإذا أتانى الموتُ تلك وصيتى	بالله لا تبغوا لها تبديلاَ
أرجو حضور الصالحين فإنهم	يرجون يوماً للحساب ثقيلا
يستغفرون لى الإلـه لعلنى	يوم الوداع أفوتكم مقبولا
وشهادة التوحيد دوماً لقنوا	فقد اطمأن بها الفؤاد طويلا
يس فَاتْلُوها، فقد جاء الذى	سكراته يَجْعَلْنَنى مذهولا
بَصَرى يُغَمضُ تلك روحى قد سَمت	فادعوا إلـهاً غافِرًا مأمولا
الآن غطونى بثوب آخرٍ	وسَلُوا الإله اللطفَ والتسهيلا
دَفْنى يُعَجَّل، لا تُخلُّوا جيفتى	بل عَجِّلُوا، روحى تروم رحيلا

لا تلطموا، لا تصرخوا، لا تكفروا ... سأكون عن أخطائكم مسئولا
وقضاء دينى فاحذروا إهماله ... مما تركت، فقد أردت قبولا
أثواب تكفينى أردت ثلاثة ... بيضًا، وهذى فُضِّلت تفضيلا
ودعوا الحرير، فإن ذاك مُحَرَّمٌ ... ولِمَ الغُلُوُّ فلن يدوم طويلا؟
وأيا نِساءَ محارمِى وقرابتى ... أَخْبِبْنَ ربَّكمُ، أطِعْنَ رسولا
فى البيت قَرْنَ، ولا تَزُرْنَ مقابرًا ... لا تَلْمِسنَّ لقولةٍ تأويلا
صَلُّوا علىَّ، وأكثروا أعدادكم ... ولْتُخلصوا ، فَلَذَاكَ أَقْوَمُ قيلا
ثم اكشفوا نعشى، وأحيوا سنةً ... وتبتَّلوا لإلـٰهكم تبتيلا
وإذا خرجتم تَبْتغُون جنازتى ... فالصمتُ حينئذ يكون جميلاً
ولْتُسْرِعوا بجنازتى يا إخوتى ... رَبُّ العباد غدًا لنَا مأمولا
باسم الإلـه كذا على دين الهدى ... فضعوا رُفَاتى لا أريد عويلا
واستغفروا لى إخوتى وكذا اطلبوا ... لى أن أُثَبَّتَ كَىْ أحوز قبولا
مالى يُقسَّمُ قسمة شرعية ... يا وارِثِىَّ فَنَفِّذُوا ما قيلا
والثلْثُ للفقراء حقٌّ لازمٌ ... إن تفعلوا كان الثواب جليلا
لا تفعلوا من بعد موتى مأتما ... إن المآتِم أصبحت تمثيلا
يا من أقمتم للسرادق محفلاً ... من أجلكم كان العذاب وبيلا
لا تفعلوا ذكرى لعام، وانتهُوا ... عن أربعين، فهل ترون دليلا
وكذا الولائم فاتركوها، واجعلوا ... حبل الصلاة بربكم موصولا
وبرئتُ من شر ابتداعٍ يُبتَغَى ... عن سُنَّةٍ لا تبتغوا تحويلا

حتى تفوزوا بالمكارم دائماً وأكون مثلكم لذاك فضيلا

فلتكن ـ أخا الإسلام ـ متشبها لهذا الرجل الذى استطاع أن ينجو بنفسه من نتائج تلك المسئولية التى لابد وأن نعمل لها جميعا ألف حساب.

* وقد سَنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته الحمد والاسترجاع والرضا عن الله، أى أن نحمد الله تعالى على السراء والضراء، وأن نقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون).

* وكان من هديه تغميض عَيْنَىِ الميت، وتغطية وجهه وبدنه ـ وربما يُقَبِّلُهُ ـ والإسراع بتجهيزه إلى الله، فيطهره ويطيبه ويكفنه فى الثياب البيض، ثم يصلى عليه.

ولهذا فإننى ـ وإتماماً للفائدة أذكر ـ هنا ـ بما أشار إليه صاحب كتاب (الدين الخالص) تحت عنوان:

ما يتعلق بالميت

حيث يقول فى الجزء السابع ص ١٩٧ ما خلاصته:

من تحقق موته يتعلق به أمور، منها:

أنه يطلب ممن حضره أن يفعل به ما يؤدى إلى حسن منظره وهو تغميض عينيه، وشد لَحَيْيه وتليين أعضائه ومنع انتفاخه. فإذا مات شخص تولى أرفق الناس به إغماض عينيه، ودعا له:

* (لحديث) شداد بن أوسٍ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إذا حضرتُم موْتاكُم فأغمضوا البَصَرَ؛ فإنَّ البصرَ يَتْبَعُ الروحَ، وقولوا خيراً فإنه يُؤَمَّن على ما قال أهلُ البيتِ) أخرجه أحمد، وابن ماجه، والطبرانى فى

الأوسط، والبزار، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وفيه قزعة بن سويد، قال أبو حاتم: محله الصدق ليس بذاك القوى(١).

(فإن البصر يتبع الروح) الروح يذكر ويؤنث، والمعنى: أن الروح إذا خرجت من الجسد يتبعها البصر ناظراً أين تذهب؟

وفى الحديث دليل على أن الروح شىء لطيف متخلل فى البدن تذهب حياته بذهاب الروح.

* (وقالت) أم سلمة: دخل النبى صلى الله عليه وسلم على أبى سلمة وقد شَقَّ بَصُره، فأغمضه فضَجَّ ناس من أهله فقال: (لا تَدْعُوا على أنفسكم إلا بخيرٍ، فإنَّ الملائكةَ يُؤَمِّنُون على ما تقولون. ثم قال: اللهمَّ أغفر لأَبى سَلَمةَ، وارْفَعْ درجتَهُ فى المهديِّين، واخْلُفْهُ فى عَقِبِهِ فى الغابرين، واغفرْ لنا وله يا ربَّ العالمين. اللهم أَفْسِحْ له فى قبرِه ونَوِّرْ له فيه)

أخرجه مسلم، وأبو داود(٢).

ومعنى (وشَق بصره) بفتح الشين: ورفع بصره على المشهور، أى: أنه لما حضره الموت انفتحت عيناه وشخص بصره، ويجوز نصب بصر على المفعولية، أى أن الموت شق البصر. (فضَجَّ) بشد الياء، أى: رفعوا أصواتهم بالبكاء عالياً. وفى رواية مسلم: فضَجَّ ناس من أهله. و(لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير) نحو: (اللهم أَجِرْنا فى مصيبتنا، واخْلُفْنا خيراً منها، واغفر لنا ورَضِّنَا بقضائك وقدرك) ولا تدعوا بشر كالويل والهلاك (واخلفه) أى: كن خليفة له فى إصلاح من يعقبه من ذريته حال كونهم فى الباقين من الناس.

---

(١) انظر ص٦٦ ج٧ الفتح الربانى وص٢٢٩ج١ (تغميض الميت).

(٢) انظر ص ٢٢٢ ج٦ نووى (الجنائز) وص٢٥٤ ج٨ المنهل العذب (تغميض الميت).

والإغماضُ إطباق الجفن الأعلى على الجفن الأسفل، ويقول مُغمضه: باسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم، اللهم يَسِّر عليه أمره، وسَهِّل عليه ما بعده، وأسعده بلقائك، واجعل ما خرج إليه خيراً مما خرج عنه.

(قال) بكر بن عبد الله المزنى التابعى: إذا أغمضتَ الميت فقل: باسم الله، وعلى ملة رسول لله. وإذا حملته فقل: باسم الله، ثم تسبح مادمتَ تحمله. أخرجه البيهقى بسند صحيح(١).

(٢) ويُسَنُّ شد لحيى الميت بعصابة عريضة تربط على رأسه لئلا يسترخِيَ لَحيُه، وينفتح فمه، ويقبح منظره، وربما دخل إلى فيه شىء من الهوام أو الماء عند غسله.

(٣) ويُسَنُّ تليين مفاصله، فَيَمُدُّ ساعده إلى عَضُده ثم يرده، ويرد ساقه إلى فخذه، وفخذه إلى بطنه ويردهما، ويلين أصابعه؛ لأنه أسهل فى الغسل؛ ولأنها تبقى جافية، فلا يمكن تكفينه، وتخلع ثيابه؛ لأن الثياب تحمى الجسم، فيسرع إليه التغير، ويوضع على سرير أو لوح حتى لا تُصيبه نداوة الأرض فتغيره.

(٤) ويُسَنُّ وضع حديدة على بطنه لئلا ينتفخ.

(قال) عبد الله بن آدم: مات مولًى لأنسٍ، فقال أنس: ضعوا على بطنه حديدة.

أخرجه البيهقى(٢).

فإن لم يتيسر الحديد وُضع على بطنه طين رطب، ولا يُجعل عليه مصحف، ويستقبل به القبلة كالمحتضر.

---

(١) انظر ص ٣٨٥ ج٣ بيهقى (ما يستحب من إغماض عينيه إذا مات).

(٢) انظر ص ٣٨٥ ج٣ بيهقى (ما يستحب من وضع شىء على بطنه. . . .).

ويتولى هذه الأمور أرفق محارمه بأسهل ما يقدر عليه، ويتولاها الرجل من الرجل، والمرأة من المرأة، فإن تولاه أجنبى أو محرم من النساء أو أجنبية أو محرم من الرجال جاز.

(٥) ويسن تغطية الميت بثوب يستره (لحديث) عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم حين تُوفِّى سُجِّىَ بثوب حِبرةَ.

أخرجه أحمد، ومسلم، والبيهقى، وأبو داود(١).

ومعنى: (سُجِّى) بضم فكسر، أى: غُطِّىَ بدنه (وحِبَرة) بكسر ففتح: ثوب فيه أعلام.

وعلى هذا اتفق العلماء

(وحكمته صيانة الميت من الانتشار، وستر عورته عن الأعين. ويلف طرف الثوب المسَجَّى به تحت رأسه وطرفه الآخر تحت رجليه؛ لئلا ينكشف منه شىء.

(هذا) ويجوز تقبيل الميت إجماعاً.

(فعن) عائشة أن أبا بكر دخل على النبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، فوضع فاه بين عينيه، ووضع يده على ساعديه، وقال: يانَبِيَّاهْ! يا صَفِيَّاه! أخرجه الترمذى(٢).

وفيه بيان موضع التقبيل وكيفيته.

(٦) ويطلب ممن حضر عند الميت ألا يقول إلا خيراً كالذكر والاستغفار وأن يدعو له بالمغفرة ولأهله بحسن العاقبة.

---

(١) انظر ص ١٠٢ ج٧ الفتح الربانى (تسجية الميت) وص ١٠ ج٧ نووى وص ٣٨٥ ج٣ بيهقى وص ٢٥٦ ج٨ المنهل العذب (الميت يسجى).

(٢) ذكره ابن العربى فى شرح الترمذى بسنده إلى الترمذى (انظر ص ٢٠٨ ج٤ شرح ابن العربى).

(قالت) أم سلمة رضى الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا حضرتُم الميتَ أو المريضَ فقولوا خيراً، فإن الملائكةَ يُؤمِّنون على ما تقولون(قالت: فلما مات أبو سلمة أتيتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم، فقلتُ: يا رسول الله، إن أبا سلمة قد مات، فقال: (قولى: اللهم اغفرْ لى ولهُ، وأَعقِبْنى منه عُقْبَى حسنةً) قالت: فقلت، فأعقبنى الله عز وجل من هو خير لى منه، محمداً صلى الله عليه وسلم.

أخرجه أحمد، ومسلم، والأربعة، والبيهقى، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(وأعقبنى) من الإعقاب، أى أبدلنى منه أو فى مقابلته عقبى حسنة أى بدلاً صالحاً.

وينبغى لأهل الميت أن يدعوا له بالمغفرة ولأنفسهم بالصبر، وأن يكثروا من قول: (إنا لله وإنا إليه راجعون).

(قالت) أم سلمة رضى الله عنها: سمعتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم يقول: (ما مِنْ عبدٍ تصيبُه مصيبةٌ فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعونَ، اللهمَّ أَجِرْنى فى مصيبتى، وأخْلِفْ لى خيراً منها: إلَا آجَرَهُ اللهُ فى مصيبته، وأخلفَ له خيراً منها) قالت: فلما تُوفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخلفَ اللهُ لى خيراً منه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم.

أخرجه أحمد، ومسلم(١).

ومعنى (أَجِرْنى) بالقصر عند أكثر أهل اللغة، وقد يُمَدُّ، أى: أعطانى أجراً جزاء صبرى على المصيبة (وأخلِف) بقطع الهمزة وكسر اللام: يقال لمن ذهب ماله أو ولده أو قريبه أو شىء يتوقع حصول مثله: أخلف الله عليك. أى: رد عليك مثله. فإن ذهب مالا يتوقع مثله كموت والد أو عم أو خال قيل له: خلف الله عليك، بغير ألف، أى: كان الله خليفة منه عليك.

(١) انظر ص ٦٨ ج ١٠٧ الفتح الربانى (الشرح) وص ٢٢١ ج٦ نووى (الجنائز).

* (وعن) ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾(١) قال: أخبر الله عز وجل أن المؤمن إذا سلّم لأمر الله ورَجَّع واسترجع عند المصيبة كُتِبَ له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، و تحقيق سبيل الهدى.

(وقال) النبى صلى الله عليه وسلم (مَنِ استرجعَ عندَ المصيبةِ جَبَرَ اللهُ مصيبتَه، وأحسنَ عُقباه، وجعل لهَ خلفًا يرضاه).

أخرجه الطبرانى فى الكبير، وفيه على بن أبى طلحة ضعيف(٢).

* ويطلب حث ورثة الميت على المسارعة بقضاء دينه؛ لأن نفسه محبوسة حتى يُقْضَى عنهِ دينه.

(فعن) أبى نضرة عن سعد بن الأطول أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم، وترك عيالاً، فأردت أن أنفِقَها على عياله، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: (إنَّ أخاك محبوسٌ بدينِه، فَاقْضِ عنه) فقال: يا رسول الله، فقد أديتُ إلاَّ دينارين ادعتهما امرأةٌ وليس لها بينة، قال:

(فأعطِها فإنها مُحِقَّة) أخرجهُ أحمد بسند جيد.

* (وعن) سلمة بن الأكوع قال: كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم إذْ أُتِى بجنازة فقالوا: صَلِّ عليها، فقال (هل عليه دَيْنٌ؟) قالوا: لا، قال: (فهل ترك شيئًا؟) قالوا: لا، فصلَّى عليه، ثم أُتى بجنازة أخرى فقالوا: يا رسول الله صلِّ عليها، قال: (هل عليه دَيْنٌ؟) قيل: نعم، قال:

(١) البقرة ـ الآيتان: ١٥٦ و ١٥٧.

(٢) انظر ص ٣٣ ج ٢ مجمع الزوائد (الاسترجاع).

(فهل تركَ شيئًا؟) قالوا: ثلاثة دنانير، قال: (صلُّوا على صاحبِكم) فقال أبو قتادة صَلِّ عليه يا رسول الله وعليَّ دَيْنُه. فصلى عليه.

أخرجه البخارى(١).

* ويطلب من ولى المتوفَّى المبادرة بتنفيذ وصيته والإسراع بتغسيله بعد تحقق موته، والتعجيل بالصلاة عليه ودفنه؛ تكريمًا له.

(روى) الحُصَين بن وَحْوَحٍ أن طلحة بن البراء مرض، فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم يعوده، قال: (إنى لا أُرى(٢) طلحة إلا قد حَدَثَ فيه الموتُ فآذنونى به حتى أشهدَه فأُصلى عليه، وعَجِّلُوا؛ فإنه لا ينبغى لجيفةِ مسلم أن تُحْبَسَ بين ظَهْرانَىْ أهله)

أخرجه أبو داود وسكت عنه، والبيهقى، وفيه عُروة أو عَزْرَة بن سعيد الأنصارى، وهما مجهولان(٣).

* (وقالت) عائشة رضى الله عنها: إن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال: أىُّ يومٍ هذا؟ قالوا: يوم الاثنين. قال: فإن مُتُّ من ليلتى فلا تنتظروا إلى الغد، فإن أحبَّ الأيام والليالى إلىَّ أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أخرجه أحمد، وفيه أبو سعد محمد بن مُيَسِّر، ضعفه جماعة كثيرون، وقال أحمد صدوق(٤).

وحكمة طلب الإسراع بتجهيز الميت خوف تغيره، وإذا تغير استقذرته النفوس، ونفرت منه الطباع، فيحط ذلك من كرامته، ولأن إبقاءه بين أهله يؤلمهم ويحملهم على كثرة البكاء والعويل، وهذا مذموم شرعًا. فينبغى أن

---

(١) انظر ص ٣١٣ ج٤ فتح البارى (إذا أحال دين الميت على رجل جاز).

(٢) لا أُرى: بضم الهمزة: أى لا أظن طلحة إلا قد ظهرت عليه أمارات الموت.

(٣) انظر ص ٣٢٠ ج ١٨ المنهل العذب (تعجيل الجنازة).

(٤) انظر ص ٢٠ ج ٣ مجمع الزوائد (تجهيز الميت وغسله والإسراع بذلك).

يُعجل به ولا ينتظر به حضور أحد إلا الولى(١) فإنه يُنتظر، ما لم يُخش عليه التغير.

وإن مات فجأة لم يبادر بتجهيزه لئلا تكون به سكتة ولم يمت، بل يترك حتى يتحقق موته، فيبادر حينئذ إلى تجهيزه، وكذا إذا مات مصعوقاً أو غرقاً أو حريقاً أو خوفا من حرب أو سبع أو تردَّى من جبل أو فى بئر فمات، فإنه لا يُبادر به حتى يتحقق موته، لئلا يكون مُغْمًى عليه أو انطبق حلقه(٢).

* ولم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم تغسيل قتيل المعركة..

وذكر الإمام أحمد أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن تغسيلهم، وكان ينزع عنهم الجلود والحديد ويدفنهم فى ثيابهم، ولم يُصَلِّ عليهم.

* وكان إذا مات المحرم أمر أن يغسل بماء وسدر، ويكفن فى ثوبيه، وهما ثوبَا إحرامه إزاره ورداؤه، وينهى عن تطييبه وتغطية رأسه.

* ونهى عن المغالاة فى الكفن، وكان إذا قصر الكفن عن ستر جميع البدن غطى الرأس، وجعل على الرجلين من العشب.

* وكان يصلى على الميت خارج المسجد إلا لعذر، وكان إذا قُدِّم إليه ميت يصلى عليه سأل: هل عليه دين؟ ـ كما عرفنا ـ فإن كان عليه دَيْنٌ لم يُصَلِّ، وأذن لأصحابه أن يصلوا؛ إذ صلاته لشفاعته موجبة، والعبد مرتهن بدَيْنه لا يدخل الجنة حتى يُقْضَى عنه، ولما فتح الله عليه كان يصلى على المدين، ويتحمل دَيْنَهُ ويدع ماله لورثته.

* وكان إذا أخذ فى الصلاة عليه كبر وحمد الله وأثنى عليه ودعا للميت، وكان تكبيراته أربعًا، وصحَّ عند مسلم أنه كبر خمسًا، وروى فوق ذلك.

---

(١) كل من ولى أمر واحد فهو وليه (مختار الصحاح).

(٢) انظر ص ١٢٤ ج ٥ مجموع النووى.

فمنه ما ذكره سعيد بن منصور عن ابن عُيينة: كانوا يكبرون على أهل بدر خمساً وستا وسبعًا، وكل هذه الآثار صحيحة، فلا موجب للمنع من الزيادة عن الأربع، وقد فعلها النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده.

وصلى ابن عباس على جنازة، فقرأ بعد التكبيرة الأولى بفاتحة الكتاب جهراً، وقال: لتعلموا أنها سنة، وكذلك قال أبو أمامة بن سهل، وذكر جماعة من الصحابة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة على الجنازة.

وقد أشار فى الدين الخالص إلى:

كيفية صلاة الجنازة

فقال ما خلاصته:

أجمعُ كيفية لكل ما ورد ـ فى كيفية صلاة الجنازة ـ أن ينوى الصلاة على من حضر ويكبر رافعاً يديه، ثم يضع اليمنى على اليسرى فوق السرة، ثم يأتى بدعاء الاستفتاح، ويتعوَّذ، ويقرأ الفاتحة ويؤمِّن، ويقرأ سورة قصيرة، ويدعو للميت سرا، ثم يكبر الثانية، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم **بالوارد عقب التشهد**، ثم يدعو للميت، ثم يكبر الثالثة ويدعو للميت ولنفسه وللمؤمنين بالرحمة والمغفرة، **والدعاء بالمأثور أفضل**، ثم يكبر الرابعة ويدعو بنحو قوله: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(1) ثم يسلم.

ومعنى أنه يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم بالوارد عقب التشهد، أى: بالصيغة الإبراهيمية التى نقرؤها عقب التشهد الأخير فى كل صلاة، وهى: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل

(1) البقرة: من الاية ٢٠١.

إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت إبراهيم وآل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

وهذه هى أكمَل الصيغ، وأما أقلها فهى: اللهم صلِّ على محمد.

ومعنى أن الدعاء بالمأثور أفضل، أى: بما ورد:

* عن عوف ابن مالك رضى الله عنه قال: صلى النبى صلى الله وسلم على جنازة، فحفظنا من دعائه: (اللهمَّ اغفرْ له وارحمْهُ، وعافه واعْفُ عنه، وأكْرِمْ نُزُلَه، وَوَسِّع مَدخله، واغسلْه بالماء والثَّلْج[1] والبَرَد، ونَقِّه من الخطايا كما نَقَّيتَ الثوبَ الأبيضَ من الدنَس، وأَبْدِلْهُ داراً خَيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأَدْخِلْه الجنةَ، وأَعِذْهُ من عذابِ القبرِ ومن عذابِ النارِ) قال عون: حتى تمَنيتُ أن أكونَ أنا ذلك الَميت)

أخرجه أحمد، ومسلم، والنسائى، والترمذى، وابن ماجه، والبيهقى[2].

ومعنى قوله : (وزوجًا خيرًا من زوجه) فهذا معطوف على (أهلاً) من عطف الخاص على العام. وهذا خاص بالرجل، ولا يقال فى الصلاة على المرأة: أبدلها زوجًا خيرًا من زوجها؛ لجواز أن تكون لزوجها فى الجنة. فإن المرأة لا يمكن الشركة فيها بخلاف الرجل (انظر ص ٢٨١ ج١ زهر الربى شرح المجتبى).

* وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا فى الصلاة على الجنازة فقال: (اللهمَّ أنتَ ربُّها، وأنتَ خلقتَها، وأنتَ رزقتَها، وأنت هديتَها للإسلام، وأنتَ قبضتَ روحَها، وأنت أعلمُ بسرِّها وعلانيتِها، جئنا شفعاءَ له فاغفر له ذنبَهُ).

أخرجه أحمد، وأبو داود، والبيهقى، والنسائى فى عمل اليوم والليلة بسند جيد.

(١) البَرَد نفتحتين: ما ينزل من السحاب كصغار الثلج أى يطهره بأنواع الرحمة التى نزلت منزلة الثلج والبرد فى إزالة الوسخ.

(٩٢) انظر ص ٢٣٧ ج ٧ـ الفتح الربانى..

* وقال أبو هريرة رضى الله عنه: كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا صلَّى على جنازة قال: (اللهمَّ اغفر لحيِّنا وميِّتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرِنا وكبيرِنا، وذَكَرِنا وأُنثانا، اللهمَّ من أحييتَهُ مَنَّا فأَحْيه عَلى الإِسلامِ، ومن توفَّيْتَهَ منَّا فتوفَّهَ على الإيمانِ، اللهم لا تحرمْنا أجرَه ولاَ تُضلَّنا بعدَه)

أخرجه أحمد، والأربعة، والبيهقى(١).

* وقال وائل بن الأسقع: صلى بنا النبى صلى الله عليه وسلم على رجل من المسلمين، فسمعته يقول: (اللهمَّ إن فلان بن فلانٍ فى ذمتك وحَبْلِ جوارك فَقِهْ من فتنة القبرِ وعذاب النارِ، وأنتَ أهل ُ الوَفاءِ والحَقِّ، اللهم فأغفرْ له وَارحمه؛ فإنك أنت الغفورُ الرحيمُ)

أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه بسند جيد(٢).

والمراد بذمة الله: حفظه ورعايته، والمراد بالحبل: العهد، أى اجعله فى كنف حفظك وعهدك. والأظهر أن المراد بالحبل القرآن، أى أنه متمسك به واقف عند حدوده.

هذا بالنسبة للمُكَلَّف ذكرًا كان أم أنثى، وأما غير المكلف فلا يُستَغْفَر له، بل يدعو بما فى حديث أبى هريرة:

* (اللهمَّ اجعله لنا سَلَفًا وفَرَطاً وأَجْرًا).

أخرجه البيهقى.

* وقال الحسن: يقرأ على الطفل بفاتحة الكتاب، ويقول: (اللهمَّ اجعلْه لنا فَرَطًا وسَلَفًا وأَجْرًا) أخرجه البخارى و(الفَرَط) بفتحتين، أى: السابق المهيئ للمصالح.

---

(١) انظر ص ٢٣٥ ج٧ الفتح الربانى، ص ٤١ ج٩ المنهل العذب.

(٢) انظر ص ٢٣٤ ج٧ الفتح الربانى، ص ٤ ج٩ المنهل العذب. . .

* (وقال) النووى: وإن كان صبيًّا أو صبية اقتُصِر على ما فى حديث: (اللهمَّ اغفر لحيِّنا وميِّتنا. . .) إلى آخره، وضم إليه: اللهم اجعله فرطًا لأبويه وسلفًا وذُخراً وعظَةً واعتباراً وشفيعًا وثقِّل به موازينَهُما، وأفرِغ الصبرَ على قلوبهِما، ولا تَفْتِنْهُما بعده، ولا تحرِمْهما أجرَه[1].

* وكان من هديه صلوات الله وسلامه عليه إذا فاتته الصلاة على الجنازة صلَّى على القبر، ولم يوقت فى ذلك، فصلى مرة بعد ليلة، وأخرى بعد ثلاث، وثالثة بعد شهر.

* وكان يقوم عند رأس الرجل ووسط المرأة.

* وكان يصلى على الطفل، ويقول: (صَلُّوا على أطفالكم؛ فإنهم من أفراطِكم) كما فى سنن ابن ماجه.

* وكان لا يصلى على من قَتَل نفسه، ولا على من غَلَّ[1] فى الغنيمة.

* وكان إذا صلى على ميت تبعه إلى المقابر ماشيًا أمامه، وسَنَّ لمن تبعها إن كان راكبًا أن يكون وراءها، وإن كان ماشيًا أن يكون قريبًا منها فى الخلف أو الأمام أو اليمين أو اليسار.

* وكان يأمر بالإسراع بها، وأما دبيب الناس اليوم خطوة خطوة فبدعة، وكان أبو بكرة يرفع السوط على من يفعل ذلك، ويقول: لقد رأيتُنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نرمل[2] رملاً.

* وكان إذا تبعها لم يجلس حتى توضع على الأرض، وأمر بذلك، كما قال أبو داود.

---

(١) أى سرق من الغنيمة.

(٢) الرَّمَل بفتحتين: الهرولة.

* وكان من هديه اللحد وتعميق القبر وتوسيعه وتسويته، ولم يكن من هديه تعلية القبور ولا بناؤها بآجر ولا حجر ولا لبن ولا غيره، بل قد بعث علي بن أبي طالب ألا يدع تمثالاً إلا طمسه ولا قبراً إلا سوَّاه. ونهى أن يُجَصَّصَ القبرَ، وأن يبنى عليه، وأن يكتب عليه. وكان يعلم قبر من يريد تعرف قبره بصخرة.

* وكان إذا وضع الميت في القبر قال: باسْمِ الله، وعلى ملة رسول الله، ولا يدفنه عند طلوع الشمس ولا غروبها ولا عند الظهيرة.

* وكان إذا فرغ من دفنه قام هو وأصحابه، وسألوا له التثبيت، ولم يجلس عند القبر لقراءة أو تلقين للميت كما يفعله الناس اليوم - أما ما رواه الطبراني في حديث أبي أمامة من الأمر بالتلقين فلا يصح رَفْعُه(1).

(وقد) قال في (الدين الخالص): والأمر في هذا واسع. فلا ينهى عن التلقين بعد الدفن ولا يؤمر به، فإن الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال.

* وإتماماً للفائدة إليك - أخا الإسلام - نص حديث (أبي أمامة) فقد قال(2) ابن الحاج والقرطبي وغيرهما من المالكية: يندب التلقين بعد الدفن، ويستأنس له بما قال أبو أمامة وهو في النزع: إذا أنا متُّ فاصنعوا بي كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (إذا مات أحَدٌ من إخوانكم فسوَّيتمُ الترابَ على قبرِه فليقُمْ أحدُكم على رأسِ قبرِه ثم ليقلْ: يا فلانَ بنَ فلانة، فإنه يسمعه ولا يجيب، ثم يقول: يا فلان بن فلانة فإنه يستوى قاعداً، ثم يقول: يا فلان بن فلانة، فإنه يقول: أرشدنا يرحمك الله، ولكن لا تشعرون، فليقل: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا: شهادة أن لا إله إلا الله،

---

(1) ضعفه الحافظ بن حجر والعراقي والنووي وابن الصلاح. وقال في الهدى: لا يصح رفعه.

(2) كما جاء في الدين الخالص ج ٧ ص ٣٧٣.

وأن محمداً عبده ورسوله، وأنك رضيتَ بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نَبِيا، وبالقرآن إماماً، فإن مُنكرًا ونكيرًا يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول: انطلق بنا، ما نقعد عند مَن لُقِّنَ حُجَّتَه، فيكونُ الله حَجِيجَه دونهما) قال رجل: يا رسول الله، فإن لم يعرف أمه؟ قال: (فينسبه إلى حواء، يا فلانُ ابن حواء)

أخرجه الطبراني فى الكبير، قال فى التلخيص: سنده صالح، وقال الهيثمى: وفى سنده جماعة لم أعرفهم. (انظر ص ٤٥ ج٣ مجمع الزوائد (تلقين الميت بعد دفنه).

والأفضل الذى نبه عليه كذلك فى (الدين الخالص): أنه يُستحَبُّ الاستغفار للميت والدعاء له عند القبر بعد دفنه بالثبات، فيقول ـ مستقبلاً وجهه ـ اللهم هذا عبدك وأنت أعلمُ به منا، ولا نعلم منه إلا خيراً، وقد أجلسته لتسأله، اللهم فثبته بالقول الثابت فى الآخرة كما ثبتَّه فى الدنيا. اللهم ارحمه، وألْحقْهُ بنبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم، ولا تُضِلَّنا بعده ولا تحرمنا أجرَه، ولا تَفْتِنَّا بعده، واغفرْ لنا وله ولسائر المسلمين.

* (قال) عثمان بن عفان رضى الله عنه:

كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف عليه وقال: (استغفروا لأخيكم وسَلَوا له التَّثبيتَ فإنه الآن يُسْأل).

أخرجه أبو داود، والحاكم وصححه، والبيهقى بسند حسن.

* (وكان) علىٌّ رضى الله عنه إذا فرغ من دفن الميت قال: (اللهمَّ هذا عبدُك، نزلَ بك وأنت خَيْرُ مَنْزُولٍ به، فاغفر له، ووسِّع مُدْخَلَه) أخرجه أبو الحسن رزين بن معاوية.

* (لأنه) إذا كان مؤمناً فإن الله تعالى سيثبته عند السؤال، كما يقول تعالى مشيراً إلى هذا فى قرآنه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾(١).

* ولأن القبر هو أول منزل من منازل الآخرة (لحديث) هانئ مولى عثمان ابن عفان قال: كان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكى، وتذكر القبر فتبكى؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (القبر أول منزل من منازل الآخرة. فإن نجا منه فما بعده أَيْسَر، وإن لم يَنْجُ منه فما بعده أَشَدُّ منه)، وقال صلى الله عليه وسلم: (ما رأيت منظراً قطُّ إلا والقبر أفظع(٢) منه) أخرجه الترمذى، وقال: حسن غريب، ورزين وزاد: قال هانئ: سمعت عثمان يُنشد:

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذى عظيمةٍ ... وإلاَّ فإنى لا إخالك ناجيًا

وحتى تتضح الصورة إليك ـ أخا الإسلام ـ هذا الحديث الشريف الذى أخرجه أحمد، وأبو داود وابن خزيمة:

* (قال) البَراء بن عازب: خرجنا مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَّما يُلْحَد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجلسنا حوله وكأنَّ على رءوسنا الطيَّر، وفى يده عود ينكت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: (استعيذُوا باللهِ من عذابِ القبر، مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: إن العبدَ المؤمنَ إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة، نزل إليه ملائكةٌ من السماءِ بِيضُ الوجوهِ كأن وجوههم

(١) إبراهيم ـ من الآية: ٢٧.

(٢) أفظع أى: أشد وأشنع.

الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحَنُوطٌ(١) من حَنوط الجنة حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء مَلَكُ الموت، عليه السلامُ، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السِّقاء(٢)، فإذا أخذها لم يَدَعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مِسْك وُجِدت على وجه الأرض ـ قال: فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيُفْتَح لهم، فَيُشَيِّعه من كل سماء مُقَرَّبُوها إلى السماء التى تليها حتى يُنْتَهَى به إلى السماء السابعة. فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابَ عبدى فى عِلِّيين، وأَعيدُوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتُهم، وفيها أعيدُهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أخرى. قال: فتُعادُ رُوحُه فى جسده فيأتيه ملكان فيُجلسانه، فيقولان له: مَن ربُّك؟ فيقول: ربىَ اللهُ، فيقولان له: وما دينُكَ؟ فيقول: دينى الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذى بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فيقولان له: وما عِلْمُكَ؟ فيقول: قرأتُ كتابَ اللهِ فآمنتُ به وصَدَّقتُ، فينادى مُنَادٍ فى السماء: أن صدقَ عبدى فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة. قال: فيأتيه مِن رَوْحِها(٣) وطيبِها، ويُفْسَحُ له فى قبره مَدُّ بَصَرِه، ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوجه حَسَنُ الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يَسُرُّك، هذا يومُك الذى كنتَ تُوعَد، فيقول له: من أنتَ، فوجهك الوجه يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رَبِّ أَقِم

(١) حنوط كرسول: طيب يخلط للميت خاصة، وكل ما طيب به الميت من مسك وغيره
(٢) أى فم القِربة. .
(٣) الروح بفتح الراء وسكون الواو: الرحمة.

الساعةَ حتى أرجع إلى أهلى ومالى . . .) الحديث(١).

وهكذا تتضح الصورة لنا، بل ويتأكد لنا أن الإيمان المؤكد بالأعمال الصالحة هو السبيل إلى فلاحنا فى الدنيا ونجاتنا فى الآخرة التى ستبدأ ـ كما عرفنا ـ من اللحظة الأولى التى سيكون الإنسان فيها داخل قبره. وقيل: إن اليوم الآخر أولُه من النَّشْرِ (الخروج من القبور) وآخرُه دخول أهلِ الجنةِ الجنةَ وأهلِ النارِ النارَ. ولا يَعلم وقت مجيئه إلا الله تعالى، ليكون الإنسان منه على وَجَل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾(٢) أى لا يعلم وقت مجىء القيامة إلا الله تعالى.

فاذكر كل هذا ـ أخا الإسلام ـ واعمل ليوم الحساب ألف حساب. وتذكَّر دائماً وأبداً أنك منذ أن وُلِدْتَ وأنتَ فى سفر إلى الله تبارك وتعالى . .

كما يقول لقمان الحكيم لولده: (يا بُنَىَّ إنكَ منذ نزلتَ إلى الدنيا استدبرتَها واستقبلت الآخرة . . فدارٌ أنت إليها تسيرُ أقربُ من دارٍ أنت عنها ترحل).

* وكان من هديه صلى الله عليه وسلم أنه كان يعزى أهل الميت، ولم يكن من هديه أن يتكلف أهل الميت الطعام للناس، بل أمر أن يصنع الناس لهم طعاماً يرسلونه إليهم.

وقد ورد فى هذا عدة أحاديث، منها:

* (ما فى حديث معاذ بن جبل) أنه مات ابن له، فكتب إليه النبى صلى الله عليه وسلم يعزيه: (بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله

(١) ارجع إلى الحديث بتمامه فى الجزء الأول من (الدين الخالص) ٦٠ ، ٦١.
(٢) لقمان ـ من الآية: ٣٤.

إلى معاذ بن جبل. سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فَأَعْظَمَ اللهُ لك الأجرَ، وألهمَكَ الصبرَ، ورزقَنا وإيَّاكَ الشكرَ، فإنَّ أنفسَنا وأموالنا وأهلَنَا من مواهب الله الهنيئة، وعواريه المُسْتَوْدَعَة، متَّع بها إلى أجلٍ معدودٍ، ويقبضُها لوقتٍ معلوم، ثم افترض علينا الشكر، إذا أعطى، والصبرَ إذا ابتلى.. وكان ابنُك من مواهبِ الله الهنيئة، وعواريه المستودَعة. متَّعك الله به فى غبطةٍ وسرورٍ، وقبضه منك بأجر كثيرٍ: الصلاةُ والرحمةُ والهُدَى إن احتسبته، فاصبرْ ولا يُحبِط جزعُكَ أجرَك فتندم، واعلم أن الجزع لا يردُّ ميتًا ولا يدفع حُزنًا، وما هو نازلٌ فكان قَدْ(1)، والسلام).
أخرجه الحاكم، وقال: غريب حسن، وابن مردويه، والطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه مجاشع بن عمرو ضعيف.

* (وقول) أسامة بن زيد: أرسلتْ إلى النبى صلى الله عليه وسلم وآله بعضُ بناتهِ أنَّ صبيا لها ـ ابنًا أو بنتًا ـ قد احتُضِر فاشهَدْنا، فأرسلَ إليها يقرأ السلام ويقول: (إنَّ لله ما أخذ وما أعطى، وكل شىءٍ عنده إلى أجل مُسَمًّى، فلتَصْبِرْ ولْتَحْتَسِبْ)

أخرجه السبعة(2) إلا الترمذى.

* وأما عن جواب التعزية، فقد قال أحمد بن الحسين: سمعت أحمد بن حنبلٍ وهو يُعَزَّى فى عبثر بن عمه وهو يقول: استجاب الله دعاك، ورحمنا وإياك.

ويقال فى جواب التعزية: آجرك الله.

(1) فكأن قد: أى. فكان قد وقع ما هو نازل أو حصل فلا فائدة فى الجزع.
(2) أى أخرجه البخارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وأحمد

* وقد يسأل الأخ المسلم: وهل كان من هدى الرسول صلى الله عليه وسلم: الجلوس للتعزية؟ فأجيبه بأنه صلوات الله وسلامه وعليه لم يكن من هديه هذا، ولم يجتمع لقراءة قرآن لا عند القبر ولا غيره

** ولهذا، فإننى أرى ـ إتماماً للفائدة ـ أن أخص للأخ المسلم ما ذكره صاحب (الدين الخالص) رحمه الله فى الجزء الثامن ص ٥٥، تحت عنوان:

الجلوس للتعزية

فقد ذكر أنه يكره: عند الشافعى وأحمد وجماعة من الحنفيين لولى الميت الجلوس فى مكان خاص ـ كالسرادق ـ لكى يُعَزَّى فيه؛ لأنه محدث وبدعة.

* و(قال) كثير من متأخرى الحنفيين يكره الاجتماع عند صاحب البيت، ويكره له الجلوس فى بيته حتى يأتى إليه مَنْ يُعزِّى، بل إذا فرغ ورجع الناس من الدفن فليتفرقوا، ويشتغل كلٌّ بأمره(١)، لا فرق فى ذلك بين الرجال والنساء.

* (وقال) الشافعى فى (الأم): أكره المأتم وهى الجماعة، وإن لم يكن لهم بكاء، فإن ذلك يجدد الحزن، ويكلف المؤنة، مع ما مضى فيه من الأثر(٢).

* (وقال) متقدمو الحنفيين: لا بأس بالجلوس فى غير المسجد ثلاثة أيام للتعزية، بلا ارتكاب محظور من فرش البسط، وتناول الدخان والقهوة وغيرها كعمل الأطعمة؛ لأنها تتخذ عند السرور.

* (ونقل) الحطاب المالكى عن سند أنه يجوز الجلوس لها بلا مُدَّة معينة، ومحل الخلاف فى إباحة الجلوس وعدمها، إذا خلا المجلس من المنكرات،

(١) انظر ص ٦٦٤ج١ ـ رد المختار على الرد المختار.
(٢) انظر ص ١٤٨ ج١ ـ الأم.

وإلا امتنع اتفاقًا كما يقع من غالب أهل هذا الزمان، فإن مجالسهم للتعزية يرتكبون فيها الكثير من المخالفات التى (منها) إتيانهم بأشخاص يقرءون القرآن بقصد إسماع الحاضرين فى نظير أجر يأخذونه على قراءاتهم(١).

وغالب هذه المجالس فى الأمصار تكون فى الشوارع والطرقات، ويكثر إذ ذاك شرب الدخان واللغط، ويُحيِّى بعضهم بعضاً بتحيات غير إسلامية نحو نهارك سعيد، أو ليلتك سعيدة، أو البقية فى حياتكم(٢)، أو لا يمشى أحد لكم فى سوء. . . ونحو ذلك مما يشوش على القارئ، وينضم إلى ذلك اشتغالهم بشرب نحو القهوة والشاى.

ومن المعلوم أن هذه الأمور كلها منكراتٌ مخالفة لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والسلف الصالح، مضادة للشريعة المطهرة، ولاسيما قراءة القرآن فى الأماكن القذرة والطرق وحال شرب الدخان الذى تنفر منه الملائكة وكل من له طبع سليم من الآدميين، كيف يرتكب العاقل شيئاً مما ذُكِر، وقد ورد فى القرآن والتوراة أنه يلزم المستمع كلام الله تعالى أن يكون فى غاية الأدب والخشوع متدبراً ما يُتلى عليه: ليعمه الله بالرحمة والإحسان، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾(٤).

* (وقال) فى التوراة: (يا عبدى، أما تستحى منى إذ يأتيك كتاب من

(١) وهذا الأجر قد يصل الآن إلى آلاف الجنيهات لكل قارئ من القراء المشهورين. .

(٢) وهذا خطأ كبير معناه جهل هذا المعزى الذى يجب عليه أن يعلم أن المعزَّى فيه ليست هناك بقية من حياته. وإنما مات بعد أن استوفى أجله كاملاً دون نقصان.

(٣) سورة الأعراف: ٢٠٤.

(٤) سورة محمد: ٢٤.

بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفاً حرفًا حتى لا يفوتك منه شيء، وهذا كتابى أنزلته إليك، انْظُرْ كم فَصَّلْتُ لك فيه من القول، وكم كررتُ فيه عليك لتتأمل طوله وعرضه، ثم أنت مُعرِضٌ عنه، أَوَ كنتُ أَهْوَنَ عليك من بعض إخوانك؟

يا عبدى يقصد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتُصغِى إلى حديثه بكل قلبك. فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل فى حديثه أَوْمَأْتَ إليه أن كُفَّ. وهأنذا مقبل عليك ومُحَدِّثٌ لك وأنت معرض بقلبك عنى. أفجعلتنى أهونَ عندك من بعض إخوانك؟).

ثم ينتقل بعد ذلك، إلى:

حُكم شرب الدخان

فيقول: فإن شرب الدخان فى ذاته حرام(١)، فضلا عن تعاطيه فى مجلس القرآن.

(ووجه) حرمته أنه مُضِرٌّ بالصحة بإخبار منصفى الأطباء، ولا خلاف فى تحريم تعاطى المضر. وقد صار ضرره محققًا محسوسًا مُشَاهَدًا بمن يتعاطاه فى بصره وأسنانه وقلبه ورئتيه وأعصابه، كل ذلك فضلاً عن إضاعة المال فيما يغضب الكبير المتعال، وأن ذلك إسراف وتبذير حرَّمه الربُّ القديرُ، وسوَّى بين فاعليه والشياطين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ

(١) وقد أفتى أحد العلماء العاملين بأن شارب الدخان يعتبر منتحرًا؛ لأنه يقتل نفسه قتلا بطيئًا. وعلى هذا فإنه لو ثبت موته بسبب شرب الدخان فإنه سيموت كافرًا والعياذ بالله. والله أعلم.

وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴾(١)، ولو أنَّا شاهدنا رَجُلاً يرمى درهمًا فى البحر لعددناه مجنونًا، فكيف ومتعاطى الدخان قد رمى بما له وصحته فى مكان سحيق. زد على ذلك إيذاءه لمن لا يتعاطاه، سيَّما فى مجامع الصلاة ونحوها، وهو مُؤْذٍ للملائكة الكرام البررة مَن أُمِرْنَا بإكرامهم.

* (روى) جابر مرفوعًا: (من أكلَ ثومًا أو بصلاً فليعتزلْنا أو فليعتزلْ مسجدَنا، ولْيَقْعُدْ فى بيتِه).

أخرجه الشيخان، وأبو داود.

(ومعلوم) أن رائحة الدخان إن لم تكن فى النتن أقبح من البصل والثوم فهى لا تقلُّ عنهما.

(وقال) جابر: نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن أكل البصل والكراث، فغلبتنا الحاجة، فأكلنا منها، فقال: (مَن أكل من هذه الشجرة المنتنة فلا يقربنَّ مسجدَنا، فإن الملائكةَ تتأذَّى مما يتأذَّى منه الإنسُ)

أخرجه مسلم(٢).

* (وعن) أنس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: (مَنْ آذى مُسلمًا فقد آذانى، ومَن آذانى فقد آذى الله تعالى)

أخرجه الطبرانى فى الأوسط بسند حسن(٣).

** ثم يشير بعد ذلك، إلى:

---

(١) سورة الإسراء: ٢٧.

(٢) انظر ص ٤٩ ج٥ نووى.

(٣) انظر رقم ٨٢٦٩ ص ١٩ ج٦ فيصن القدير للمناوى.

مأتم الأربعين والعام

فيقول : ومن البدع المستنكرة والعادات المستقبحة الاحتفال بذكرى الأربعين ومرور العام؛ لأنه لم يكن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولا عهد الصحابة والتابعين، ولم يكن معروفاً حينئذ، وفيه مفاسد دينية ودنيوية يأباها العقل والنقل، والخير فى اتباع مَن سَلَف، والشر فى ابتداع مَن خَلَف.

* هذا بالإضافة إلى أن هذا الفعل المستَنكر شرعًا من العادات الفرعونية التى ينبغى علينا نحن المسليمن أن ننزه أنفسنا عنها. وألا نجدد الأحزان بتجديدها.

** وأما عن الأحاديث المرغبة فى صنع الطعام لأهل الميت:

* (فمنها) حديث عبد الله بن جعفر رضى الله عنه قال: لما جاء نعىُ جعفرٍ حين قُتل قال النبى صلى الله عليه وسلم:

(اصنعوا لآل جَعفرٍ طعَامًا؛ فقد أتاهم ما يَشْغَلُهم) أخرجه أحمد، والشافعى، والأربعة إلا النسائى، وحسَّنه الترمذى، وصححه ابن السكن والحاكم. وفى سنده خالد بن سارة وَثَّقَهُ أحمد والترمذى وابن معين والنسائى وغيرهم.

* (وحديث) عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت إذا مات الميت من أهلها فاجتمع النساء ثم تَفرَّقن إلا أهلها وخَاصتَّها أمَرتْ ببُرمَة من تلبينَة فَطُبخَتْ، ثم صُنع ثريد فصبَّت التلبينةُ عليها، ثم قالت: كُلْن منها؛ فإنى سمعتُ النبى صلى الله عليه وسلم، يقول: (التلبين مُجِمَّةٌ لفؤادِ المريضِ تذهب ببعض الحزن)

أخرجه أحمد والشيخان

(والمطلوب) صُنع طعام يُشبع أهل الميت يومَهم وليلَتهم؛ فإن الغالب أن لحزن الشاغل عن تناول الطعام لا يستمر أكثر من يوم. ويسن الإلحاح عليهم في الأكل؛ لئلا يضعفوا بتركه استحياء أو لفرط الجزع، ولو كان لنساء يَنُحْنَ لم يَجُزْ صنع طعام لهنَّ؛ لأنه إعانة على المعصية

(ثانياً) ويُكره تحريمًا ـ اتفاقاً ـ جمع الناس على طعام يصنعه أهل الميت إن م تَدْعُ إلى ذلك ضرورة كمُعَزٍّ مسافر سفراً طويلاً (لقول) جرير بن عبد الله لْبجَلِيِّ: كُنَّا نَعُدُّ الاجتماع إلى أهل الميت وصَنْعَة الطعام بعد دفنه من النياحة أخرجه أحمد، وابن ماجه بسند صحيح.

* وكان صلى الله عليه وسلم لا ينعى الميت، ونهى عن النعى وقال: هو ن عمل الجاهلية.

وهو فى اللغة الإخبار بموت الشخص، وشرعًا له ثلاث حالات:

* **(الأولي)** : إعلام الأهل والأصحاب وأهل الصلاح بموته من غير نَوْح لا منكر آخر لتجهيزه، والصلاة عليه، وتشييعه ودفنه، والدعاء له وغير لك، وهو مشروع (لحديث) أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم نعى لناس النجاشىَّ فى اليوم الذى مات فيه، وخرج بهم إلى المصلَّى فَصَفَّ صحابه، وكبَّر عليه أربعًا.

أخرجه السبعة.

* **(الحالة الثانية)**: الإعلام بدعوى الجمع الكثير للمفاخرة، وهو كروه، ومنه ما يقع من كثير من أهل هذا الزمان، إذا مات عظيم أعلنوا ن موته فى الصحف وغيرها أو أرسلوا إلى الجهات الأخرى يخبرون أهلها وته؛ مفاخرة ومباهاة، وعليه يحمل قول حذيفة: إذا مُتُّ فلا تُؤْذنوا بى حدًا، فإنى أخاف أن يكون نعيًا، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم ينهى عن النعى)

أخرجه أحمد، وابن ماجه، والبيهقى، والترمذى،وهذا لفظه وقال: حديث حسن.

* **(الحالة الثالثة)** : الإعلام بموته بنوح وغيره مما يشبه نعى الجاهلية، كانوا يرسلون رجلاً على أبواب الدور وفى الأسواق يعلن بموت فلان، وكانوا إذا اتُوفِّى رجل ركب أحدهم فرسًا ويقول: نَعَاءِ فلانًا، ويخرج إلى القبائل ينعاه إليهم، ويقول: هلك فلان أو هلكت العرب بموت فلان.

(ومن) هذا ما يقع فى كثير من البلدان من طواف النساء فى البلد يَصِحن ويُوَلْوِلْنَ، ويَلْطُمْنَ الخدود، ويدعون بدعوى الجاهلية فى حالة منكرة قبيحة. وفى بعض الجهات إذا مات عظيم وقفوا على المنارات ونحوها: يخبرون بموته، ويرفعون أصواتهم بالبكاء والنياحة، أو يضربون بالطبول والموسيقا، وهو مُحَرَّمٌ مَنْهِىٌّ عنه.

ومنه التبرير الذى يفعله بعض المؤذنين على المنارات عند موت عالم أو عظيم من العظماء.

** وبهذا نكون قد عرفنا ما هو النعى المنهى عنه، والذى هو من عمل الجاهلية الذى ينبغى علينا أن نتجنبه بوصفنا مسلمين تأدُّبًا بأدب الإسلام الحنيف.

بقى أن ننتقل بعد ذلك إلى:

هديه صلى الله عليه وسلم فى زيارة القبور

فقد كان من هديه صلوات الله وسلامه عليه فى زيارة القبور: أنه كان إذا زار قبور أصحابه يزورها للدعاء لهم والترحم عليهم والاتعاظ بهم ، وهذه هى الزيارة التى شرعها لأمته، وأمرهم أن يقولوا فيها: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية.

---

(١) (نَعَاءِ) كَدَرَاكِ ونَزَالِ: أى أنعاه وأظهر خبر وفاته.

وأحب أيضاً أن أُذَكِّر هنا، بـ:

كيفية الزيارة الشرعية

فقد قال فى (الدين الخالص) مشيراً إليها، ومُذَكِّرًا بها جميع المسلمين الذين يريدون أن يفوزوا فعلاً بثواب الزيارة :

* يُسَنُّ أن يخرج الزائر متواضعًا، مراقبًا الله تعالى، معتبراً بمن تقدمه من الموتىٰ، قاصدًا وجه الله تعالى، ونفع الميت بالسلام علية والدعاء له، فإذا وصل القبر قام مُسلِّمًا داعيًا مستقبل القبلة على المشهور عند الحنفيين، بلا تمسح بالقبر ولا طواف حوله ولا دعاء صاحبه. (وقيل) يستقبل وجه الميت، وهو قول الشافعى، وكذا الكلام فى زيارة النبى صلى الله عليه وسلم (قال) أبو الليث: لا يُعرف وضع اليد على القبر سنة ولا مستحبا، بل هو بِدْعَةٌ منكرة من عادة أهل الكتاب(١).

* ويستحب للزائر أن يدنو من قبر المزور بقدر ما كان يدنو من صاحبه لو كان حَيا وزاره، وهو بالخيار، إن شاء زار قائماً، وإن شاء قعد كما يزور الرجل أخاه فى الحياة.

* ولا يستلم القبر بيده ولا يقبِّله (قال) أبو الحسن محمد الزعفرانى: واستلام القبور وتقبيلها كما يفعله العوام من المبتدعات المنكرة يجب تجنبه وَيُنْهَى فاعله، فمن قصد السلام على ميت سَلَّمَ عليه من قِبَلِ وجهه.

وإذا أراد الدعاء تحوَّل عن موضعه واستقبل القبلة(٢).

* ويستحب للزائر التسليم على أهل القبور والدعاء لهم بالعافية والرحمة والمغفرة، وإذا كان بالوارد فما أحسنه!

---

(١) انظر ص ٤٠٨ (شرح منية المصلى).

(٢) انظر ص ٣١٠ ج٥ (مجموع النووى).

* (ومنه) ما فى حديث سليمان بن بُرَيْدَةَ عن أبيه قال: كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولَ قائلهم: (السلامُ عليكم أهلَ الدِّيارِ من المؤمنينَ والمسلمينَ، وإنَّا إن شاءَ اللهُ بكم لاحقون، أنتمُ فَرطُنا ونحن لكم تَبَعٌ، ونسألُ اللهَ لنا ولكم العافية)

أخرجه أحمد، ومسلم، والنسائى، وابن ماجه، والبيهقى.

* (وحديث) ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم مَرَّ بقبورِ المدينةِ فأقبلَ عليهم بوجهِه فقال: (السلامُ علكم يا أهلَ القبورِ، يَغْفِرُ اللهُ لنا ولكم، أنتم سَلَفُنا ونحن بالأثرِ)

أخرجه الترمذى وحسَّنه.

* (وحديث) عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبى صلى الله عليه وسلم - كلما كان ليلتها - يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: (السلام عليكم دار قومٍ مؤمنينَ وأتاكم ما تُوعَدون غدًا مؤَجَّلُون، وإنَّا إن شاءَ اللهُ بكم لاحقون، اللهمَّ اغفرْ لأهلِ بقيعِ الغَرْقَدِ)(١).

أخرجه مسلم.

* (وحديث) عائشة رضى الله عنها قالت: فقدتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فإذا هو بالبقيع فقال: (السلامُ عليكم دارَ قومٍ مؤمنين، أنتم لنا فَرَطٌ، وإنَّا بكم لاحقون، اللهم لا تحرمْنا أجرَهم، ولا تَفْتِنَّا بعدَهم)

أخرجه ابن ماجه.

* (وقال) أنس: مر رجل بالمقابر فقال: (اللهم رَبَّ الأرواحِ الفانيةِ، والعظام النَّخِرَةِ التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنةٌ أَدْخِلْ عليها رَوْحًا

(١) (الغرقد) بفتح فسكون: شجر له شوك، سُمِّى به بقيع الغرقد، لغرقد كان فيه.

منك وسلامًا مِنّا، فاستغفر له من مات من لَدُنْ آدم)

أخرجه ابن النجار[1]

وأما عن:

محظورات القبور

التى أحب كذلك أن تقف عليها، فقد ورد فيها عدة أحاديث، منها:

* (حديث) أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن يُبنَى على القبور أو يُقْعَد عليها أو يصلى عليها.

أخرجه أبو يعلى بسند رجاله ثقات، وروى ابن ماجه النهى عن البناء عليها فقط.

* (وحديث) أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لأنْ يجلسَ أحدُكم على جمرةٍ فتحرقَ ثيابَه حتى تخلُصَ إلى جلدِهِ خيرٌ له من أن يجلسَ على قبرٍ)

أخرجه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنَّسائى، وابن ماجه.

* (وحديث) عقبة بن عامر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لأنْ أمشى على جمرةٍ أو سيفٍ أو أَخْصفَ نعلى برجلى أَحَبُّ إلىَّ من أن أمشى على قبر مسلم، وما أبالىً أَوسَطَ القبور قضيت حاجتى أوْ وَسَطَ السوق)

أخرجه ابن ماجه بسند صحيح.

* (وحديث) سليمان بن موسى عن جابر بن عبد الله قال: (نهى النبىُّ صلى الله عليه وسلم أن يُكتَب على القبر شىء)

أخرجه ابن ماجه، والحاكم بسند صحيح رجاله ثقات

---

(١) انظر رقم ٢٢٩٧ ص ١٢٦ ج ٨ (كنز العمال).

(وقول) الحاكم ليس العمل عليه فإن أئمة المسلمين من الشرق إلى الغرب يكتبون على قبورهم، وهو شيء أخذه الخلف عن السلف (رده) الذهبى بأنه مُحدث، ولعل مَن فعل ذلك من السلف لم يبلغهم النهى[1].

* (وحديث) سليمان بن موسى عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن يبنى على القبر أو يُجَصَّص أو يُكتب عليه)

أخرجه النسائى

* (وحديث) أبى مَرْثَد الغنوى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لا تُصَلُّوا إلى القبورِ، ولا تَجْلِسُوا عليها)

أخرجه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والبيهقى.

* (وحديث) أبى هريرةَ أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال: (لعنَ اللهُ اليهودَ والنصارى، اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ)

أخرجه مسلم، والنسائى، وكذا أحمد، وأبو داود، والبيهقى بلفظ: (قاتل الله اليهود).

* (وحديث) عبد الرزاق بسنده إلى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لا عَقْر فى الإسلام) قال عبد الرزاق: كانوا يعقرون عند القبر يعنى بقرة أو شيئًا.

أخرجه أبو دادو، والبيهقى، والترمذى وقال: حسن صحيح.

وقد يسأل الأخ المسلم، عن:

---

(١) انظر ص ٢٢٤ ج ١ سندى ابن ماجه.

حكم زيارة النساء للمقابر

فَنُجِيبه كذلك، بأنه: يحرم على النساء زيارة القبور إن ارتكبن فى زيارتها ما يغضب الواحد الغيور. وعليه تحمل الأحاديث الواردة فى لعن زائرات القبور، ومنها:

* (حديث) ابن عباس قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور) (الحديث)

أخرجه أحمد، والأربعة، والبزار، وابن حِبَّان، والحاكم، وحسنه الترمذى.

* (وحديث) أبى هريرة رضى الله عنه: (أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لعنَ زَوَّارات القبور)

أخرجه أحمد، وابن ماجه، والترمذى وصححه، وابن حبان.

ففى هذين الحديثين - كما قرأنا - دعا عليهن النبى صلى الله عليه وسلم بالطرد عن رحمة الله تعالى؛ لما يقع منهن حال الزيارة من الجزع، وشق الجيوب، ولطم الخدود، والتبرج

ولهذا، فقد اجتهد الأئمة الأعلام فى توضيح كل هذا وتحديده، كما جاء فى الجزء الثامن من (الدين الخالص) على النحو التالى:

(قال) القرطبى: هذا اللعن إنما هو للمكثرات من الزيارة؛ لما تقتضيه الصيغة من المبالغة، ولعل السبب ما يفضى إليه ذلك من تضييع حق الزوج وما ينشأ منهن من الصياح ونحوه (فقد) يقال إذا أمن جميع ذلك فلا مانع من الإذن، لأنَّ تذكُّرَ الموت يحتاج إليه الرجال والنساء، فإذا كانت زيارتهن للاعتبار بلا تعديد ولا نَوْحٍ، فهى مكروهة تحريمًا عند بعض الحنفية والمالكية والشافعية لظاهر الأحاديث.

* (وقال) بعض الحنفية وأكثر الشافعية والحنبلية: تُكره زيارتهن تنزيها، والصارف للأحاديث عن التحريم قول أم عطية: (نُهِينا أن نتبع الجنائز ولم يُعزم علينا)

أخرجه أحمد، والشيخان، وأبو داود، وابن ماجه، والبيهقى.

* (وقال) فريق ثالث من الحنفيين: زيارتهن حينئذ جائزة، وهو قول لمالك، ورواية عن أحمد (قالوا): إن منعهن من الزيارة كان قبل الترخيص، فلما رخص فيها عمت الرخصة الرجال والنساء.

(ويؤيده) حديث عبد الله بن أبى مُلَيْكَةَ أن عائشة رضى الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر، فقلت لها: يا أم المؤمنين، من أين أقبلتِ؟ قالت: من قبر أخى عبد الرحمن، فقلت لها: أليس كان نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيارة القبور؟ قالت: نعم كان نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها..

أخرجه الحاكم، وقال الذهبى: صحيح، والبيهقى وقال: تَفَرَّدَ به بسطام ابن مسلم البصرى.

* (وقالت) عائشة رضى الله عنها من حديث طويل: (فكيف أقول - تعنى إذا زارت القبور - يا رسول الله؟ فقال: قولى: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، يَرْحَمُ اللهُ المُسْتَقْدِمين منَّا والمُسْتَأْخِرين، وإنَّا إن شاءَ اللهُ بكم لاحقون)

أخرجه أحمد ومسلم.

** ثم يوضح فى (الدين الخالص) فيقول:

* فتعليمها ما تقول إذن لها بالزيارة للقبور.

(ويجمع) بين الأدلة بأن الإذن فى الزيارة لمن خرجت متسترة خاشعة متذكرة أمر الآخرة. معتبرة بما صار إليه أهل القبور. تاركة النياحة وضرب الخدود وشق الجيوب وسوء القول. وبأن المنع ـ من الزيارة ـ لمن فعلت شيئًا مما ذُكِر كما يقع من كثير من نساء زماننا، ولا سيما نساء (مصر).

ومعلوم أن أَمْنَ الفتنة فى زماننا معدوم بل مستحيل عادة، إذْ المرأة لو خرجت إلى زيارة القبور لا تسلم من ارتكاب الفجور وعبث الفساق وأهل الشرور، خاصة فى هذا الزمان الذى أصبحت القبور فيه سُكنى لهؤلاء الذين لاخلاق لهم من اللصوص والمدمنين والمهربين ـ

فيطلب طلبًا أكيدًا عدم خروج النساء لزيارة القبور ليلاً ولا نهاراً، لا فرق فى ذلك بين شابة وغيرها؛ إذ لكل ساقطة لاقطة، ولا سيما ما هو فاشٍ من غالب أهل هذا الزمان من الفساد والإفساد.

* ومن القواعد المقررة أن درء المفاسد مُقَدَّمٌ على جلب المصالح، ومن ثَمَّ ذهب شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية وغيره إلى عدم جواز الزيارة للنساء.

* فلاحظ كل هذا ـ أخا الإسلام ـ وكن من المذكِّرِينَ به للأخوات المسلمات؛ حتى لا يقعن فى هذا المحظور الذى لا ثمرة من وارئه إلا ما يغضب الله رب العالمين. نسأل الله تعالى العفو العافية لنا ولجميع المسلمين والمسلمات. . آمين.

الـصِّفَاتُ الخُلُقِيَّةُ
لـرسول الله صـلى الله عليه وسلم

تمهيد هام:

والآن - أخا الإسلام - وقبل أن أنتقل بك ومعك إلى الخُلُق العظيم لأعظم مخلوق على وجه الأرض، لسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة (صلوات الله وسلامه عليه) - أحب أن يعلم الأخ المسلم أننا إذا كنا سنقف على الجانب الخلقى فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم - فإن هذا سيكون معناه أننا سنقف على أهم جانب ينبغى علينا أن نقف عليه وأن ندرسه دراسة مستفيضة تؤهلنا بعد ذلك أو مع ذلك لأن نكون من المتخلقين بخلق هذا النبى العظيم، الذى كان على خُلُق عظيم، والذى أمرنا الله وسبحانه وتعالى ورغَّبنا فى أن نقتدى به ونسير على هداه فقال، تبارك وتعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(١).

وذلك لأن هذا النبى العظيم كان متخلقًا بخلق القرآن كما أجابت السيدة عائشة رضى الله عنها عندما سئلت عن خلقه صلوات الله وسلامه عليه، ثم قرأت: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢).

* وقد سئلت عائشة رضى الله عنها: كيف كان خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقرأت:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾(٣).

(١) سورة الأحزاب: ٢١.
(٢) سورة القلم: ٤.
(٣) سورة المؤمنون - من الآية: ١ - ٩.

ثم قالت: هكذا كان خُلُقُ رسولِ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ)

أخرجه النسائى فى تفسيره.

وحتى تُنَفِّذَ هذ الخلق الكريم، إليك كذلك نص هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب قال: (كان إذا نَزَلَ على رسولِ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الوحى، يُسْمَعُ عند وجهه دَوِىٌّ كَدَوِىِّ النحلِ، فمكثنا ساعةً فَسُرِّىَ عنه، فاستقبلَ القبلةَ ورفع يَدَيْه فقال: اللهمَّ زِدْنا ولا تَنْقُصْنا، وأَكْرِمْنا ولا تُهِنَّا، وأَعْطِنا ولا تَحْرِمْنا، وآثِرْنا ولا تُؤْثِر علينا، وَارْضَ عنا وأَرْضِنا) ثم قال: (لقد أُنزِلَتْ علىَّ عشرُ آياتٍ من أقامهُنَّ دخل الجنة، ثم قرأ: (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر. أى إلى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾[1] التى يقول بعدها:

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2].

والفردوس جنة أعلى الجنان، ومن فوقها عرش الرحمن.

ففى الحديث: (إذا سألتم اللهَ الجنةَ فاسألوه الفردوسَ، فإنه أعلى الجنةِ وأوسَطُ الجنةِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة، وفوقَه عرشُ الرحمنِ)

أخرجه البخارى ومسلم.

وقد عَبَّر عن استحقاقهم الفردوس بالميراث (لما روى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما مِنكم مِنْ أَحَدٍ إلا وله منزلان: منزلٌ فى الجنةِ، ومنزلٌ فى النارِ، فإن ماتَ فدخلَ النارَ ورِثَ أهلُ الجنةِ منزلَهُ، فذلك قوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون﴾

أخرجه ابن ماجه عن أبى هريرة، وابن جرير عن أبى معاوية بإسناده إليه.

(١) سورة المؤمنون: ١٠.

(٢) سورة المؤمنون: ١١.

* وكان صلوات الله وسلامه عليه على خُلُقٍ عظيم؛ لأنه كان منفذًا لأوامر القرآن، ومجتنبًا لنواهيه كما أمره الله تبارك وتعالى بهذا فى قوله:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[1] أى كما أُمِرتَ ونُهِيتَ. حتى قال بعضهم مشيرًا إلى دقة تنفيذه صلوات الله وسلامه عليه - لأوامر القرآن واجتنابه لنواهيه: (لقدَ تَقَرْآنَ الرسولُ) أى: صار قرآنًا يمشى على قدميه:

* فاستحق لهذا، أعظم وصف وصفه الله تعالى به، وهو:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

* واستحق لهذا، كذلك أن يكون أستاذًا وسيدًا ومثلاً أعلى للبشرية جمعاء إلى يوم الدين.

* بل وأرسله الله تعالى لهذا ليتمم مكارم الأخلاق، كما ورد عنه صلوات الله وسلامه عليه فى حديث رواه مالك قال فيه مشيرًا إلى هذا الفضل العظيم والمنهج القويم الذى بُعِثَ به وله: (إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكَارم الأخلاقِ).

ومن أجل هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه مثلاً أعلى للخلق الذى يدعو إليه؛ فهو يغرس بين أصحابه - وفى قلوب أصحابه - هذا الخُلُقَ السامى بسيرته العاطرة، قبل أن يغرسه بما يقول من حكم وعظات.

وحتى تتضح الصورة الشريفة لنا، فإننى سأذكِّر الأخ المسلم (ونفسى) ببعض ما ورد فى هذا الخُلُق السامى (إجمالاً)[3] قبل أن أعود إليه (تفصيلاً): حتى يُفْهَم المراد من هذا التمهيد، فقد ورد:

(١) سورة هود - من الآية: ١١٢.

(٢) سورة القلم: ٤.

(٣) كما جاء فى (كتاب: خلق المسلم) لفضيلة الشيخ محمد الغزالى. أكرمه الله.

* عن عبد الله بن عمرو قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: (خيارُكم أحاسنُكم أخلاقًا)(١).

* وعن أنس قال: خدمتُ النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين، واللهِ ما قال لى: أُفٍّ قَطُّ، ولا قال لشىءٍ لمَ فعلَت كذا؟ وهَلاَّ فعلتَ كذا؟(٢).

* وعنه: إنْ كانت الأَمَةُ لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنطلق به حيثُ شاءتْ، وكان إذا استقبلَه الرجلُ فصافحَه لا ينزِع يدَه من يده حتى يكونَ الرجلُ ينزعُ يدَه، ولا يصرفُ وجهَهُ عن وجهِه، حتى يكونَ الرجلُ هو الذى يصرفُه، ولم يُرَ مُقَدِّمًا ركبتيْه بين يدى جليس له(٣) ـ يعنى أنه يتحفَّظ مع جُلسائه، فلا يتكبر.

* وعن عائشة قالت: (مَا خُيِّرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين أمريْن إلا اختار أَيْسَرَهُما ما لم يكن إثْمًا، فإن كان إثْمًا كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه فى شىء قط، إلا أن تُنْتَهكَ حُرمة الله فينتقم، وما ضَرَبَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم شيئًا قط بيدِه، ولا امرأةً ولا خادمًا، إلا أن يُجاهِدَ فى سبيل الله تعالى)(٤).

* وعن أنس: كنتُ أمشى مع رسول الله وعليه بُرْدٌ غليظُ الحاشيةِ، فأدركه أعرابىٌّ فجذبَهُ جذبةً شديدةً، حتى نظرتُ إلى صفحةِ عاتِق رسولِ اللهِ وقد أثَّرَتْ بها حاشيةُ البُرْدِ من شدةِ جذبتِه، ثم قال: يا محمد، مُرْ لى من مال الله الذى عندك! فالتفت إليه رسولُ اللهِ، وضحكَ، وأمر له بعطاء(٥).

---

(١) أخرجه البخارى.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه الترمذى.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه البخارى.

* وسئلت عائشةُ: ما كان رسولُ الله يفعلُ فى بيته؟ قالت: كان يكون فى مهنة[1] أهله، فإذا حضرتِ الصلاةُ يتوضأُ ويخرجُ إلى الصلاة)[2].

* وعن عبد اللهِ بن الحارثِ: ما رأيتُ أحدًا أكثرَ تَبَسُّمًا من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم[3]!.

* وعن أنس: كان رسولُ اللهِ أحسنَ الناسِ خُلُقًا، وكان لى أخ فطيم يُسَمَّى أبا عُمَيْرٍ، لديْه عُصْفُورٌ مريض اسمه النُّغَيْر، فكان رسولُ اللهِ يلاطف الطفلَ الصغير، ويقول له: يا أبا عُمَيْرٍ، ما فَعَلَ النُّغَيْر!)[4].

** والمعروف فى شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان سمحًا لا يبخل بشىء أبدًا، وشُجاعًا لا ينكص عن حق أبدًا، عدلاً لا يجور فى حكم أبدًا، صدوقًا أمينًا فى أطوار حياته كلها.

* قال القاضى عياض: كان النبى صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس، وأجودَ الناس، وأشجعَ الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قِبَلَ الصوت، فتلقَّاهم رسول الله راجعًا، قد سبقهم إليه واستبرأ الخبر، على فرس لأبى طلحة عُرىٍ والسيف فى عنقه، وهو يقول: (لَن تُرَاعُوا).

* وقال علىٌّ رضى الله عنه: إنَّا كنَّا إذا حَمِىَ البأس[5] واحْمَرَّتِ الحدَقُ، نَتَّقِى برسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فما يكونَ أحدٌ أقرب إلى عدوٍّ منه.

* وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: ما سُئل النبى صلى الله عليه وسلم فقال: لا.

---

(١) أى خدمتهم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذى.

(٤) رواه البخارى.

(٥) أى القتال فى ساحة الحرب.

* وقد قالت له خديجة: (إنَّكَ تَحْمِلُ الكَلَّ، وتُكسِبُ المعدومَ، وتُعين على نوائب الحقّ).

* وحُمِل إليه سبعون ألف درهم، فوُضِعَتْ على حصيرٍ، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

* وجاءه رجل فسأله، فقال له: ما عندى شيء، ولكن ابْتَعْ علىَّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه، فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه! فكره النبى صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسولَ الله، أَنْفق ولا تَخْشَ من ذى العرش إقلالاً، فتبسَّم صلى الله عليه وسلم، وعُرِفَ البِشْرُ فى وجهه، وقال: (بهذا أُمِرتُ).

* وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤلف أصحابه ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويُولِّيه عليهم.

* ويحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه.

* يتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه.

* مَن جالسه، أو قاربه لحاجة صابره، حتى يكون هو المنصرف عنه.

* ومَن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول.

* قد وسِع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده فى الحق سواء.

* وكان دائم البشر، سهل الطبع، لين الجانب، ليس بفَظٍّ ولا غليظ، ولا صخَّاب، لا فحاشٍ، ولا عتَّابٍ، ولا مَدَّاح، يتغافل عما لا يشتهى، ولا يقنط منه.

* وعن عائشة رضى الله عنها: ما كان أحد أحسن خُلُقًا من رسول الله، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال: لبيك.

* وقال جرير بن عبد الله رضى الله عنه: ما حَجَبنى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم منذ أسلمتُ، ولا رآنى إلا تبسَّم.

* وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويجاريهم، ويداعب صبيانهم ويُجلسُهم فى حجره. وفى مسند أحمد وسنن الترمذى عن أبى هريرة مرفوعًا: (إنى وإنْ داعبتُكم فلا أقولُ إلا حقا).

* ويجيب دعوة الحر والعبد والأَمَةِ والمسكين، ويعود المرضى فى أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر.

* قال أنس: ما التقم أحد أُذُنَ رسول الله ناجاه فينحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه، وما أخذ أحَدٌ بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة.

* لم يُر قَطٌّ مادًا رجليه بين أصحابه فيضيِّق بهما على أحد.

* ويكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التى تحته، ويعزم عليه فى الجلوس عليها إنْ أبى.

* ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه، حتى يَتَجَوَّزَ فيقطعه بانتهاء أو قيام.

* وعن أنس: كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أُتِى بهدية قال: اذْهَبُوا بها إلى بيتِ فلانةٍ، فإنها كانت صديقةً لخديجةٍ، إنها كانت تحبُّ خديجة(١).

---

(١) وكان هذا بعد وفاتها.

* وعن عائشة قالت: ما غِرتُ على أمرأة، ما غرتُ على خديجة، لما كُنْتُ أسمعُه يذكرُها، وإن كانَ ليذبح الشاة فيُهديها إلى خلائلها، واستاذنتْ عليه أختُها فارتاحَ إليها، ودخلت عليه امرأةٌ فهشَّ لها وأحسنَ السؤالَ عنها، فلما خرجت قال: إنها كانت تأتينا أيامَ خديجةَ، وإن حُسْنَ العهد من الإيمان.

* وكان يصلُ ذوى رحمه، ومن غير أن يوثرهم على من هو أفضل منهم.

* وعن أبى قتادة: لما جاء وفد النجاشى قام النبى صلى الله عليه وسلم يخدمهم، فقال له أصحابه: نكفيك، فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإنى أُحِبُّ أن أُكافئهم.

* وعن أبى أمامة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئًا على عصًا، فقمنا له، فقال: لا تقوموا كما يقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضًا.

* وقال: إنَّما أنا عبدٌ آكُلُ كما يأكل العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ، وكان يركبُ الحمارَ، ويُردِف خلفَه، ويعودُ المساكين، ويُجالسُ الفقراءَ، ويجلسُ بين أصحابِه مختلطًا بهم، حيثُما انتهى به المجلسُ جلسَ.

* وحَجَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على رَحْلٍ رَثٌّ عليه قطيفة ما تُساوى أربعة دراهم، فقال: اللهم حجة لا رياءَ فيها ولا سُمْعة.

* ولما فُتحت عليه مكةُ ودخلها بجيوش المسلمين، طأطأ رأسه على راحلته حتى كاد يَمَسَّ قادمته، تواضُعًا لله تعالى.

* وكان كثير السكوت، لا يتكلم فى غير حاجة، يُعرض عمن تكَلم بغير جميل.

* وكان ضحكه تبسُّمًا، وكلامه فصلاً، لا فضول فيه ولا تقصير.

* وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداءً به.

* مجلسه مجلس حلم وخير وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تُخدش فيه الحرُم.

* إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطير.

* وإذا مَشى مَشى مجتمعًا، يعرف فى مشيته أنه غير ضَجِر ولا كسلان.

* قال ابن أبى هالة: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر.

* وقالت عائشة: كان يحدث حديثًا، لو عَدَّهُ العادُّ أحصاه.

* وكان صلى الله عليه وسلم يحب الطيب والرائحة الحسنة، ويستعملها كثيراً.

* وقد سِيقَتْ إليه الدنيا بحذافيرها، وترادف عليه فتوحها، فأعرض عن زهرتها، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله...

فهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الخلق العظيم، والخير العميم الذى مهما تحدثنا عنه فلن نوفيه حقه. ولهذا سترانا نتحدث عنه طويلا؛ لكى نقول عنه بعد ذلك كما قال الإمام البوصيرى، رضى الله عنه، بعد أن عجز عن مواصلةِ الحديثِ عنه.

فمبلغُ العلمِ فيه أنه بَشَرٌ ... وأنه خيرُ خلقِ اللهِ كُلِّهِمِ

وقبل ذلك يقول:

أعيا الورَىَ فَهْمُ معناهُ فليس يُرى ... للقُرْبِ والبُعْدِ فيه غير منفَحِمِ

كالشمسِ تظهرُ للعينين من بُعُدٍ   صغيرةً وتكِلُّ الطرفَ من أَمَمِ
وكيف يدركُ فى الدنيا حقيقتَه   قومٌ نِيامٌ تَسَلَّوْا عنه بالحُلُمِ

ولله دَرُّ البوصيرى، فلقد قال كذلك متحدثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

محمدٌ تاجُ رُسْلِ اللهِ قاطبةً   محمدٌ صادق الأقوال والكَلِمِ
محمدٌ ثابتُ الميثاقِ حافظُه   محمدٌ طيبُ الأخلاقِ والشِّيَمِ
محمدٌ حاكمٌ بالعدلِ ذو شرفٍ   محمدٌ معدنُ الإنعام والحِكَمِ
محمدٌ خيرُ خلقِ اللهِ من مُضَرٍ   محمدٌ خير رُسْلِ الله كُلِّهِمِ
محمدٌ يومَ بَعْثِ الناسِ شافعُنَا   محمدٌ نورُه الهادى من الظُّلَمِ

فليكن كل هذا، نُصب أعيننا ونحن نحاول الوقوف على بعض الجوانب الخُلُقية فى حياة هذا الرسول العظيم حتى نعرف قدره، وحتى نكثر من الصلاة والسلام عليه؛ تنفيذاً لأمر الله تعالى فى قوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(١).

* ورحم الله إمامنا الشيخ محمود خطاب السبكى، فلقد قال مشيراً إلى هذا فى (المقامات العلية):

والسُّحبُ لا تحكى عطاياهُ فما   أنداه بحراً بالسخاء وأكرما
أَنْعِمْ بمن أَسْنى الكمال له انتمى   مولاه قد صلى عليه وسلما

(١) سورة الأحزاب: ٥٦.

من لم يُصَلِّ عليه كان بخيلاً   صلوا عليه بكرة وأصيلا

والآن وبعد أن عرفنا بعض الجوانب الأخلاقية فى حياة الرسول (إجمالاً) وبعد أن صلينا وسلمنا على هذا النبى المصطفى والرسول المجتبى:

نبدأ الآن فى عرض كل هذا (تفصيلاً).

وأملنا كبير فى أن ينفعنا الله تعالى بما وقفنا وما سنقف عليه، وأن يجعله حُجة لنا لا علينا؛ حتى نكون بهذا أهلاً لأن نُحشر معه صلوات الله وسلامه عليه.

(١) من حسن خلقه صلوات الله وسلامه عليه

عرفنا - قبل ذلك - أن النبى صلى الله عليه وسلم: كان أحسن الناس خُلُقا. وأن الله تعالى قد شهد له بهذا فقال مخاطبًا إياه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١).

* وقد ورد فى هذا أنه صلوات الله وسلامه عليه: مر فى يوم عيد بِصِبْيَةٍ يلعبون، ووجد بجانبهم طفلاً لا يشاركهم فى لعبهم وعليه أثر الحزن، فدنا منه، وسأله عن أمره، فأجابه بأنه يتيم وأن أمه شُغلت بزوج آخر، وليس له من يعوله، وهذا سبب عزلته وحزنه، فسرَّى عنه عليه الصلاة والسلام وقال له: ألا ترضى أن يكون محمد لك أبًا، وعائشة أما، وفاطمة الزهراء أختًا. فمضى - اليتيم - الذى لم يعد يتيما بعد هذا فرحًا مسرورًا، وتربى بين سيد الآباء وأجَلِّ الأمهات، وخير الأخوات.

* وروى الطبرانى عن كعب بن عجرة قال: جلسنا يومًا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد فى رهط منَّا، معشر الأنصار، ورهط من بنى هاشم، فاختصمنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أيُّنا أولى به وأحب إليه.

قلنا: نحن معشر الأنصار آمنَّا به واتبعناه، وقاتلنا معه، وكتيبته ضد عدوه، فنحن أولى برسول الله وأحبهم إليه.

---

(١) سورة القلم: ٤.

وقال إخواننا المهاجرون: نحن الذين هاجرنا مع الله ورسوله، وفارقنا العشائر والأهلين والأموال، وقد حضرنا ما حضرتم، وشهدنا ما شهدتم، فنحن أولى برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحبهم إليه.

وقال إخواننا من نبى هاشم: نحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحضرنا الذى حضرتم، وشهدنا الذىَ شهدتم؛ فنحن أولى برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحبهم إليه.

فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل علينا، فقال: إنكم لتقولونَ شيئًا، فقلنا مثلَ مقالتنا، فقال للأنصار: صدقتُم، من يَردُّ هذا عليكم؟ وأخبرناه بما قال إخوانَنا المهاجرون، فقال: صدقوا، من يَردُّ هذا عليهم؟ ثم قال: ألا أقضى بينكم؟

قلنا: بلى، بأبينا أنت وأُمِّنا يا رسولَ الله، قال:

أما أنتم يا معشر الأنصار: فإنما أنا أخوكم، فقالوا: الله أكبر. ذهبنا به ورب الكعبة.

وأما أنتم يا معشر المهاجرين فإنما أنا منكم، فقالوا: الله أكبر! ذهبنا به ورب الكعبة.

وأما أنتم بنو هاشم مِنِّى وإلىَّ!

فقمنا وكلُّنا راض مغتبط برسول الله صلى الله عليه وسلم.

** فكن - أخا الإسلام - حسن الخلق، اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم، الذى يرغبك فى هذا، فيقول:

* (ما من شىءٍ فى الميزانِ أثقلُ من حُسْنِ الخُلُق)(١)، ويقول:

* (البِرُّ حُسْنُ الخُلُق)(٢)، ويقول:

(١) رواه أحمد، وأبو داود.

(٢) رواه البخارى.

* (أَكْمَلُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم أخلاقًا)(١)، ويقول:

* (إن مِنْ أحبِّكم إلَيَّ وأقربكم منِّى مجلسًا يوم القيامة أَحَاسِنَكُمْ أخلاقًا)(٢).

* وسئل عن أىِّ الأعمال أفضل؟ فقال: (حُسْنُ الخلقِ).

* وسئل عن أكثر ما يُدخِلُ الجنةَ فقال: (تقوى اللهِ وحسنُ الخُلُقِ)(٣).

وقد قرأتُ كذلك فى (منهاج المسلم) آراء السلف فى بيان حسن الخلق، التى أرجو أن تتزود بها، فإليك:

* قال الحسن: حسن الخلق بسط الوجه، وبذل الندى.

* وقال عبد الله بن المبارك: حسن الخلق فى ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال.

* وقال آخر: (حُسْنُ الخلق كفُّ الأذى، واحتمالُ المؤمنِ).

* وقال آخر: حسن الخلق ألا يكون لك هَمٌّ غيرُ الله تعالى.

* وقالوا فى علامة ذى الخلق الحسن: أن يكون كثيرَ الحياءِ، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، بَرا وَصُولاً، وقوراً، صَبُوراً شكوراً رَضيا حليمًا، وفيا عفيفًا، لا لعانًا ولا سبَّابًا، ولا نَمَّامًا ولا مُغتابًا، ولا عجولاً ولا حقوداً، ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشَّاشًا هشَّاشًا، يحب فى الله، ويبغض فى الله، ويرضى فى الله، ويسخط لله،

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه الترمذى وصححه.

** فكن ـ أخا الأسلام ـ متخلقا بالخلق الحسَن الذى وقفت على دلائله، وحسبك ترغيبًا لك فيه وصية الرسول صلى الله عليه وسلم التى يقول فيها:

(اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخَالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ)

رواه الترمذى، وقال حديث حسن، وفى بعض النسخ: حسن صحيح.

(٢) حسن معاملته صلى الله عليه وسلم

وإذا كنا سنذكِّر أنفسنا بحسن معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لكل من حوله من الأهل والخلاَّن ـ فإن هذا سيكونُ معناه أننا سنقف على عنصر هام ينبغى على جميع المسلمين أن يقفوا عليه وينفذوه؛ لأنه الدليل القاطع والبرهان الساطع على صدق انتمائهم إلى هذا الدين؛ ولهذا فقد ورد فى الأثر: (الدينُ المعاملةُ).

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس معاملة، إذا استلف سلفًا قضى خيرًا منه، وإذا استلف من رجل سلفًا قضاه إياه ودعا له، فقال: بارك الله فى أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء.

ومن الأمثلة الواردة فى هذا، أنه صلوات الله وسلامه عليه:

* اقترض بعيرًا، فجاء صاحبه يتقاضاه، فأغلظ للنبى صلى الله عليه وسلم، فهمَّ به أصحابه، فقال: دَعُوه، فإن لصاحبِ الحقِّ مقالاً.

* واشترى مرة شيئًا وليس عنده ثمنه، فأربح فيه، فباعه وتصدَّق بالربح على بنى المطلب، وقال: لا أشترى بعد ذلك شيئًا إلا وعندى ثمنه.

* وتقاضاه غريم له دَيْنًا فأغلظ عليه، فهَمَّ به عمر بن الخطاب. فقال: مَهْ يا عمر، كنتُ أحوجَ إلى أن تأمرنى بالوفاءِ، وكان ـ هو ـ أحوجَ أن تأمره بالصبر.

ومن الأمثلة العظيمة التى ترينا كيف كان تعلق قلوب أصحابه به لدرجة أنهم افتدوه بآبائهم وأمهاتهم؛ لأنه كان بارا بهم وعطوفًا عليهم.

ما جاء فى مضمونه، أنه:

* انطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلي سوق عكاظ مرة فأوصته عمته خديجة ـ رضى الله عنها ـ أن يبتاع لها غلامًا ظريفًا عربيا إن قدر عليه، فلما جاء إلى السوق وجد زيد بن حارثة يُباع فيها، فأعجبه ظرفه فابتاعه، وقدم به على خديجة رضى الله عنها، وقال لها: إنى اشتريتُ لكِ غلامًا ظريفًا عربيا. فإن أعجبك فخذيه، وإلا فدعيه، فإنه قد أعجبنى، فلما رأته خديجة أعجبها، فأخذته، فتزوجت بعدئذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عندها، فأعجب النبى صلى الله عليه وسلم ظرفه، فاستوهبه منها، فقالت: هو لك، فإن أردت عتقه فالولاء لى، فأبى عليها، فوهبته له: إن شاء أعتق، وإن شاء أمسك.

فثبت زيد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم إن زيدًا خرج فى إبلٍ لأبى طالب إلى الشام، فمر بأرض قومه، فعرفه عمه، فقام إليه، فقال له: مَن أنت يا غلامُ؟ قال: غلامٌ من أهل مكة، قال: من أنفسهم، قال: لا، قال: فحرٌّ أنت أم مملوك؟ قال: بل مملوك، قال: لمن؟ قال: لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال له: أعربىٌّ أنت أم أعجمىٌّ؟ قال: عربى، قال: ممن أهلك؟ قال: من بنى عبد وُدٍّ، قال: ويحك! ابن من أنت؟ قال: ابن حارثة بن شراحيل، قال: ما اسم أمك؟ قال: سُعْدَى، فعرف أنه ابن أخيه حارثة، فدعا أباه، وقال: يا حارثة، هذا ابنك؟ فأتاه حارثة، فلما نظر إليه عرفه، ثم قال له: كيف صنع مولاك إليك؟ فقال له زيد: يؤثرنى على أهله وولده، وَرُزِقتُ منه حُبا لا مثيل له، وأخلاقًا عالية لا نظير لها، فلا أصنع إلا ما شئت.

فركب معه أبوه، وعمه وأخوه، حتى قدموا مكة، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له حارثة: يا محمد، أنتم أهل حَرَمِ الله وجيرانه وعند بيته، تفكون العانى، وتطعمون الأسير، ابنى عبدك، فامْنُنْ علينا وأحْسِنْ إلينا فى فدائه، فإنك ابن سيد قومه، وإنا سندفع لك فى الفداء ما أحببت، فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له: أعطيكم خيراً من ذلك، قالوا: وما هو؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أُخَيِّرُه، فإن اختاركم فخذوه بغير فداء، وإن اختارنى فكفوا عنه، قالوا جزاك الله خيراً؛ فقد أحسنت.

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً، وقال له: يا زيد، أتعرف هؤلاء؟ قال: نعم، هذا أبى وعمى وأخى، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأنا من قد عرفت، فإن اخترتهم فاذهب معهم، وإن اخترتنى فأنا من تعلم، فقال زيد: ما أنا بمختار عليك أحداً أبداً، أنت منى بمكان الوالد والعم، فقال له أبوه وعمه: يا زيد، تختار العبوديةَ على الربوبيةِ! فقال: ما أنا بمفارق هذا الرجل.

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصه عليه قال: اشهدوا أنه حُرٌّ، فطابت نفس أبيه وعمه لما رأوا من كرامة الرسول صلى الله عليه وسلم وعطفه وشفقته وحسن خُلُقِه مع ولدهم، وثمرة كبدهم.

وقد بقيت صداقة الرسول صلى الله عليه وسلم هذه إلى ما بعد موت زيد، حيث عامل أسامة ابنه معاملة أب رحيم لابن بارٍّ كريم.

** وهكذا نرى أهمية هذا الخلق الكريم الذى لو تعامل الناس به لما كان هناك جائع ولا محروم، ولا ظالم ولا مظلوم.

ولهذا، فقد قال الحكماء: لو أنصف الناس لاستراح القاضى.

فلتكن - أخا الإسلام - حَسَنَ المعاملة لإخوانك وجيرانك، بل وأهل بيتك؛ حتى تسعهم ويسعوك، وحتى تكون بهم ولهم عونًا على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، وحتى نكون جميعًا بسبب هذا فى عالم يسوده الحب والوئام، وليس الحقد والخصام.

(٣) خلق العفو والعدل في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا كان لنا أن ندور كذلك حول خُلُق العفو والعدل فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فإننا بهذا سنزيح الستار عن أعظم النماذج الحية والدروس المستفادة من تحمل وصبر وعفو وعدل هذا النبى العظيم الذى ضرب أعظم الأمثلة على رقى خلقه صلواته وسلامه عليه فى السراء والضراء، وفى مواطن الضعف والقوة، التى لا تظهر معادن الرجال على حقيقتها إلا فيها.

ولنبدأ بالأمثلة الدالة على خلق العفو والعدل فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

* فى غزوة بدر الكبرى مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين صفوف المسلمين يعدلها بجريدة فى يده، فمر برجل خارج عن الصف، فضربه بجريدة ليعتدل، فأصابت بطنه، فقال الرجل: أوجعتنى يا رسول الله، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فاستخلص لى حقى منك، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: هذا بطنى فاقتص منه. فاعتنقه الرجل، وقَبَّلَ بَطْنَهُ تَبَرُّكًا به.

* وحدث أن سرقت امرأة من أرفع الأسر فى بنى مخزوم، ومن أكبر البيوتات فيها، فأراد رسول الله أن يقيم عليها الحدَّ، فهال الأمرُ قريشًا،

وأرسلوا إلى رسول الله (أسامةَ بنَ زَيْد) ـ وكان الرسول يصفيه الود، ويؤثره بالحب ـ ليكلمه فى أمرها؛ ليعفو عنها، فكلمهُ أسامة، فقال رسول الله: يا أسامة: أتشفع فى حد من حدود الله؟! ثم قام فخطب فقال:

(إنما أهلك الذين من قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تَركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)(١).

* ولما رجع رسول الله صلى الله من غزوة الطائف قسم الغنائم، فأعطى منها شيئًا كثيراً لأناس ضعف إسلامهم يتألفهم لدين الله، وأعطى أناسًا لم يسلموا؛ ليحبب إليهم الإسلام، فقال رجل من المنافقين: هذه قسمة ما أُريدَ بها وَجْهُ الله، فغضب ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى احمر وجهه وقال: وَيْحكَ! إنْ لم أَعْدِلْ فمن يُعْدِل؟!

وهذا موقف آخر ينبغى للقضاة بصفة خاصة أن يتعظوا به، وأن يأخذوا منه درسًا:

* فعن أم سلمة زوج النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: (إنَّما أنا بَشَرٌ، وإنَّه يأتينى الخصْمُ، فلعلَّ بعضكم أن يكونَ أبلغَ من بعضٍ، فأحْسَبُ أنه صادقٌ، فأقضى له بذلك، فمن قضيتُ له بحقٍّ مسلمٍ فإنما هو قطعةٌ من النارِ فليأخذْها أو ليتركْها).

** فلتكن ـ أخا الإسلام ـ متعظا بهذه النماذج الموجزة التى تشير إلى عدل الرسول صلى الله عليه وسلم، وتمكنه من نفسه بتلك الصورة التى تجعله متحكما فيها لا متحكما فى غيره من هؤلاء الذين قد يحدث منهم ما يثير غضبه، وكيف لا وهو المثل الأعلى فى كل خير يحتذى به فيه؟

(١) متفق عليه.

وحسبك ترغيبا لك فى خلق العدل الذى هو أساس الملك ـ أن تنفذ أمر الله تعالى فى قوله:

﴿ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾(1)، والإقساط هو العدل، والمقسطون هم العادلون. وقد رغب النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الإقساط فقال: (إنَّ المقسطينَ عندَ اللهِ على منابرَ من نورٍ، الذينَ يَعْدِلُونَ فى حكمِهم وأهليهم وما وَلُوا)(2).

وإياك إياك أن تكون عكس هذا ـ ظالماً؛ لأن العدل إن دام عَمَّر، والظلم إن دام دَمَّر.

** وأما عن الأمثلة الأخرى المتعلقة بعفو الرسول صلى الله عليه وسلم، والتى ينبغى علينا أن نقتدى به فيها، حتى نكون من المشار إليهم فى قول الله تبارك وتعالى:

﴿... وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ.. ﴾(3)، فقد قرأت، منها، أنه صلوات الله وسلامه عليه:

* وفى السنة التاسعة للهجرة، أرسل على بن أبى طالب فى خمسين فارسًا لهدم صنم طيئ، فسار إليه وهدمه وأحرقه، وحارب عباده وهزمهم، واستاق نعمهم وشاءهم، وعاد بكثير من الغنائم والسبايا.

ولما عرضت السبايا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفت جارية تقول: يا محمد، إن رأيت أن تُخَلِّيَ عنى فافعلْ، ولا تُشْمتْ بى أحياءَ العرب، فإنى بنتُ سيدِ قومى، وإنَّ أبى كان يَحمِى الذِّمارَ، ويَفُكُّ العانى،

(1) سورة الحجرات ـ من الآية: 9.

(2) رواه مسلم.

(3) سورة آل عمران ـ من الآية: 134.

ويُشْبِعُ الجائعَ، ويُطْعِمُ الطعامَ، ويُفشى السلامَ، ولم يَرُدَّ طالبًا، أنا بنتُ (حاتم الطائى) سيد أجواد العرب، ومضرب المثل فى الكرم والجود. فبدا التأثر على ـ وجه ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: (يا جاريةُ، هذه صفاتُ المؤمنين حقًا، لو كان أبوكِ مسلمًا لترحَّمنا عليه، خَلُّوا عنها، فإنَّ أباها كان يُحب مكارمَ الأخلاقِ، واللّهُ يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ).

فتقبلت الجارية عفوَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم بالشكر والامتنان.. ثم قالت تدعو له:

شكَرَتْكَ يَدٌ افْتَقَرَتْ بعد غِنًى، ولا مَلَكَتْكَ يَدٌ استَغْنَتْ بعدَ فَقْرٍ، وأصاب اللهُ بمعروفكَ مواضعَهُ ولا جعلَ لكَ إلى لئيمٍ حاجةً، ولا سَلَبَ نعمةَ كريمٍ إلا وجعلكَ سببًا لِرَدِّها عليه.

ثم انصرفت بعد ذلك إلى أخيها (عدى بن حاتم) وأخبرته بما كان من صفح الرسول وسمو عفوه بعد أن قالت له: جئتُك من عند خير الناس، ثم عادت معه بعد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلما.

* وعن أنس رضى الله عنه، قال: كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم، فدخلَ أعرابىٌّ وجذبه من طوقه جذبةً عنيفةً ـ وكان الرداء خشنًا غليظًا، فجرح عُنُقَ النبىِّ ـ ثم قال: يا محمدُ، معنى جملان فاحمل لى عليهما من مال الله الذى عندك، فإنك لا تعطينى من مالك ولا من مال أبيك. فسكت النبىُّ، ثم قال: المالُ مالُ الله وأنا عبدُه، ويُقادُ منك يا أعرابى ما فعلت بى (يقصد تُعاقَبُ على ذنبك) فقال الأعرابىُّ: لا، فقال له الرسول: لمَ؟ قال: لأنك لا تكافئ السيئةَ بالسيئة، فضحك عليه الصلاة والسلام، ثم أمر أن يُحْمَل له على بعيرٍ شعيرٌ، وعلى الآخر تمرٌ.

* وذات يوم كان النبى صلى الله عليه وسلم نائمًا ـ وحيدًا ـ تحت شجرة، فانتهز الفرصة عدوٌ من أعدائه وَهمَّ بقتله صلوات الله وسلامه عليه،

ورفع السيف فعلاً ليضربَه بِه، ولكنَّ هيبةَ النبوةِ أخذته، فارتعدت فرائصه ولم تتماسك أصابعه على مقبض السيف، فوقع من يده، فاستيقظ رسول الله، ونظر إليه نظرة ازْدِراءٍ واستخفافٍ، وتركه من غير انتقام مع قدرته عليه.

وقيل: إنه عندما شهر العدو السيف على الرسول سأله العدو: مَن يحميك مِنِّى الآن؟ فقال: الرسول: اللَّه. فارتعد العدو وسقط السيف من يده، فالتقطه النبى صلى الله عليه وسلم، ثم قال له: مَن يحميك مِنِّى الآن؟ فقال: عفوك، فعفا عنه النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن مكَّنه الله تعالى منه. فكان هذا ـ كما قيل ـ سببًا فى إسلام الرجل.

* يوم أن دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا فى عشرة آلاف من جند الله ـ أمر فَحُطمت الأصنام التى كانت فوق الكعبة، ثم بعد ذلك وقف أمام الكعبة بعد أن صلى بأصحابه: فرأى الأعداء يرتعدون أمامهم، فقال لهم: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاءُ أى الأحرار ـ لا تَثْرِيبَ عليكم اليومَ يغفرُ اللهُ لكم، وهو أرحمُ الراحمين.

فكانت النتيجة لهذا العفو الشامل أن دخل أكثرهم فى دين الله أفواجًا.

وقد يُشير إلى هذا قول الله تعالى:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾(1).

** وهكذا كما رأيت ـ أخا الإسلام ـ كان العفو من شيم النبى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.. الذى كان بهذا الخلق الكريم ينفذ أمر الله

(1) سورة النصر كاملة.

تعالى فى قوله:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ..﴾[1].

فليكن هذا هو خُلقك الذى أرجو أن تتمثل فيه قول القائل الحكيم: (إذا قدرتَ على عدوِّك فتذكَّر قدرةَ اللهِ عليك)، مع ملاحظة قول الله تعالي:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[2].

(١) سورة آل عمران ـ من الآية: ١٥٩.

(٢) سورة الشورى: ٤٣.

(٤) خلق الصبر وتحمل الأذى فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا كنا سنذكر بخلق الصبر وتحمل الأذى فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم - فإننا بهذا كذلك سنقف على أهم عنصر نحتاج إليه فى حياتنا الأولى؛ حتى نستطيع أن نعايش الناس فى تلك الغابة الدنيوية التى نرى فيها الكثير من الذئاب البشرية... بل ما هو أشنع من هذا كما يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه مشيراً إلى هذا الذى نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافينا جميعًا منه:

نَعيبُ زمانَنا والعَيْبُ فينا ... وما بزماننا عَيْبٌ سِوانا
ونهجو ذا الزمانَ بغيرِ ذنبٍ ... ولو نطقَ الزمانُ لنا هجانا
وليسَ الذئبُ يأكلُ لحمَ ذئبٍ ... ويأكلُ بعضنا بعضًا عِيانا

** ولقد كان الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مثلا أعلى فى الصبر وتحمل الأذى:

* روى البخارى عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المسجد - الحرام - وهو يصلى، فقال أبو جهل: ألا رجلٌ يقومُ إلى فرث جزور[1] بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد؟ فقام

(١) فرث الجزور: أى الروث الذى يكون فى بطن الناقة.

عقبه بن أبى مُعيط ـ عليه لعنة الله ـ وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فلم يقدر أحد من المسلمين الذى كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم، ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القَذَرَ ورمته.

* ومن ذلك أيضا ما رواه البخارى فى صحيحه قال: بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى حِجرِ الكعبة إذْ أقبل عقبة بن أبى معيط، فوضع ثوبه فى عنق رسول الله، فخنقه خنقًا شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ؟ ﴾(١).

إلى غير ذلك مما هو مبسوط فى كتب السيرة

وكان هذا العنف يشمل جميع المسلمين، وعلى الأخص الضعفاء منهم، كبلال بن رباح، وعمار بن ياسر وأخيه وأبيه وأمه، وخباب بن الأرتّ، إلى غير هؤلاء الذين صمدوا فى مواجهة الباطل حتى زهق..

* وذات يوم مَرَّ أبو جهل برسول الله عند الصَّفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره، من العيب فى الإسلام، فصبر الرسول ولم يكلمه. وفى تلك اللحظة كانت مولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع شتم أبى جهل للرسول، ثم انصرف عنه المصطفى ورجع إلى بيته.

فلم يلبث حَمزة بن عبد المطلب أن أقبل، متوشحًا قوسه، راجعًا من الصيد والقنص، وكان حمزة عم الرسول أعزَّ فتى فى قريش، وأشد قوة، فلما مَرَّ بمولاة عبد الله بن جدعان، قالت لحمزة: يا أبا عمارة، لو رأيتَ ما لقى ابن أخيك محمد منذ وقت قصير من أبى جهل، لقد وجده هاهنا

(١) غافر ـ من الآية: ٢٨.

جالسًا، فآذاه وسبَّه وشتَمه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، وسكت محمد ولم يكلمه.

فتألم حمزة ألمًا شديدًا، فخرج يسعى وأسرع ولم يقف، مُعِدا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به، ونظر فوجده جالسًا فى القوم، فأقبل حمزة نحوه، ورفع قوسه، فضربه بها، فشجه شجة منكرة، ثم قال له: أتشتم محمدًا؟ إننى على دينه، أقول ما يقول محمد، فرُدَّ ذلك علىَّ إن استطعت.

فقام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة، لينصروا أبا جهل منه، وقالوا له: يا حمزة، ما نراك إلا قد أسلمت! قال حمزة: ومن يمنعنى، وقد استبان لى منه أنه رسول الله، وأن الذى يقوله حق؟

فقال: أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحًا.

وثبت حمزة على إسلامه، فعرفت قريش أن الرسول قد عزَّ وقوى بإسلام عمه حمزة، وأن عمه حمزة سيُدافع عنه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

فلتكن ـ أخا الإسلام ـ متجملا بالصبر كرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سيما إذا كنت من الدعاة إلى الله تبارك وتعالى، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؛ لأنك إذا كنت من هؤلاء الفضلاء فإنك ستتعرض غالبًا لمثل ما حدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما حدث لأغلب الدعاة إلى الله فى كل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فتلك سنة الله فى خلقه كما قال تعالى مشيرًا إلى هذا فى قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾(١).

(١) سورة الفرقان ـ من الآية: ٣١.

كما أشار الله تعالى إلى هذا على لسان سيدنا لقمان فى وصية يقول فيها لولده:

﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(١). ثم يقول له:

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾(١).

وأيضًا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾(٢) ثم يقول: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾(٢).

فليكن كل هذا نصب عينيك وأنت تواجه أعداء الله ورسوله بإعلان كلمة الحق التى يجب أن تكون مدوية على الدوام؛ حتى نكون بإعلانها من خير أمة أخرجت للناس، وإلا كُنَّا ـ والعياذ بالله ـ من الذين لُعنوا ﴿ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾(٣).

وإليك ـ أخا الإسلام ـ بعض الأحاديث الشريفة التى أرجو أن تكون مرغبة لك فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مهما كلفك هذا:

* عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مَنْ رأى منكم منكراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيدِه، فإن لم يستطعْ فبلسانِه، فإن لم يستطِع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)

رواه مسلم.

---

(١) سورة لقمان ـ من الآية: ١٧.

(٢) سوة العصر.

(٣) سورة المائدة ـ آخر الآية: ٧٨ ثم كل الآية ٧٩.

* وعن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العُسْرِ واليُسْرِ، والمَنْشَط والمَكْرَه، وعلى أَثَرَةٍ(١) علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تَرَوْا كُفراً بواحًا(٢) عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقولَ بالحقِّ أينما كُنَّا لا نخاف فى اللهِ لومة لائمٍ)

رواه البخارى ومسلم.

* عن تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (الدين النصيحة) قاله ثلاثا، قال: قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: (للهِ ولرسولِه ولأئمةِ المسلمينَ وعامتِهم).

رواه البخارى ومسلم واللفظ له.

* وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: يأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾(٣)

وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنَّ الناسَ إذا رأَوُا الظالمَ فلم يأخذوا على يديْه أَوْشَكَ أن يَعُمَّهُمُ اللهُ بعقابٍ من عندِه)

رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح.

وروى الحاكم وصححه: (إذا رأيتَ أمتى تهابُ أن تقولَ للظالم يا ظالمُ فقد تُوُدِّعَ(٤) منهم).

---

(١) الأثرة بفتح الهمزة والثاء: الاستئثار.

(٢) البواح: بفتح الباء: أى جهاراً من باح بالشىء يبوح به أى أعلنه.

(٣) سورة المائدة ـ من الآية: ١٠٥.

(٤) فى النهاية، أى أُسلِمُوا إلى ما استحقوه من النكير عليهم.

* وعن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (مثلُ القائمِ فى حدودِ اللهِ والواقع فيها كَمَثَلِ قومٍ استهموا[1] على سفينةٍ فصارَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها، فكان الذين فى أسفلِها إذا استَقَوْا منَ الماءِ مَرُّوا على مَن فوقَهم فقالوا: لو أنَّا خرقنا فى نصيبِنا خرقًا ولم نُؤْذِ من فَوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هَلَكُوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم[2] نجوا ونَجوا جميعًا)

رواه البخارى والترمذى.

* وعن ابن مسعود رضى الله عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما مِن نبىٍّ بعثه اللهُ فى أمتِه قبلى إلا كانَ له من أمتِهِ حواريُّونَ وأصحابٌ يأخذونَ بسنتِه ويقتدون بأمرِه، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلوف يقولون ما لا يفعلون، ويَفعلون ما لا يُؤمرون، فَمَنْ جاهدهم بيده فهو مؤمنٌ، ومن جاهدَهم بلسانِه فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بقلبِهِ فهو مؤمنٌ، وليس وراء ذلك من الإيمانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ)

رواه مسلم.

** وكن دائما وأبدًا حكيما فى دعوتك إلى الله تعالى؛ تنفيذًا لأمر الله تعالى فى قوله:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ .. ﴾[3]، وقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[4].

---

(١) استهموا، أى اقترعوا.

(٢) من أخذت على يديه، أى منعته من الذى يريد فعله، كأنك أمسكت بيده.

(٣) سورة النحل - من الآية ١٢٥.

(٤) سورة البقرة - من الآية ٨٣.

وذلك حتى تكون من الموفقين فى دعوتك إلى الله. وحسبك توضيحًا لهذا أن تقرأ قول الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام عندما كلفهما سبحانه أن يذهبا إلى فرعون حتى يبلغاه دعوة الله:

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[1].

وقد ورد فى الحديث الشريف: (جربتُ اللينَ والسيفَ فوجدتُ اللينَ أقطع)

ولله دَرُّ العربىِّ الأصيل الذى قال لأبنائه:

أبَنِىَّ إن البرَّ شىءٌ هيِّنٌ   وجهٌ طليقٌ وكلامٌ لُيِّن

(١) سورة طه: ٤٤.

(٥) خلق الرحمة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا كنا سندور حول خلق الرحمة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم: فإننا بهذا سنقف - كذلك - على عنصر من أهم العناصر الأخلاقية التى ينبغى علينا أن نقف عليها، وأن نكون من المنفذين لها حتى نكون بهذا من الرحماء، بل وحتى نستحق بهذا رحمة الله. فقد ورد فى الحديث الشريف: (إنما يرحمُ اللهُ من عبادِهِ الرحماءَ)(١) وقوله: (ارحموا مَنْ فى الأرضِ يرحمْكم مَن فى السماء)(٢) وقوله: (من لا يَرْحَم لا يُرْحَم)(٣).

وقوله: (لا تُنْزَعُ الرحمة إلا من شَقِىٍّ)(٤).

ولهذا كان لابد أن ندرس وننفذ عنصر الرحمة مع جميع إخواننا المؤمنين بصفة خاصة حتى يتحقق المشار إليه فى قول النبى صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ المؤمنينَ فى توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم كَمَثَلِ الجَسَدِ إذا اشتكى منه عُضْوٌ تَداعَى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحُمَّى)

رواه مسلم.

---

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه الطبرانى والحاكم بسند صحيح.

(٣) رواه الشيخان والترمذى، وفى رواية: (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله تعالى).

(٤) رواه أبو داود والترمذى بسند حسن.

والرحمة(١) ـ وإن كانت حقيقتها رقة القلب وانعطاف النفس المقتضى للمغفرة والإحسان ـ لن تكون دائمًا مجرد عاطفة نفسية لا أثر لها فى الخارج، بل إنها ذات آثار خارجية، ومظاهر حقيقية تتجسم فيها فى عالم الشهادة.

ومن آثار الرحمة الخارجية العفو عن ذى الزلة، والمغفرة لصاحب الخطيئة، وإغاثة الملهوف، ومُساعدة الضعيف، وإطعام الجائع، وكسوة العارِى، ومداواة المريض، ومواساة الحزين.. كل هذه من آثار الرحمة التى ينبغى أن يبذلها، ويوصى بها، ويدعو إليها؛ مصداقا لقول الله تبارك وتعالى:

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾(٢).

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى فى خلق الرحمة، كما أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا فى قوله:

* ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾(٣).

وقوله تعالى:

* ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤).

---

(١) كما يقول صاحب كتاب (منهاج المسلم) أكرمه الله.

(٢) سورة البلد ـ الآيتان: ١٧ و ١٨.

(٣) سورة آل عمران ـ من الآية: ١٥٩.

(٤) سورة التوبة: ١٢٨.

وقوله تعالى:

* ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وحسبه أنه كان بهذا متصفًا بصفة من صفات الله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[2] الذى قال متحدثا عن نفسه فى القرآن الكريم:

* ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

* ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[4].

* ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[5].

* ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾[6].

** ولهذا أنِس[7] المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من رجال ونساء، كما يأنس الأطفال إلى الأمهات والآباء، وكان أُنسهم منبعثًا من حب وإجلال واطمئنان إلى سماحة نفسه ورحمته،

فقد استأذن عمر بن الخطاب على النبى، وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه وأصواتهن عالية، فلما استأذن عمر أسرعت كل منهن إلى

---

(١) سورة الأنبياء ـ من الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الفاتحة: ٣.

(٣) سورة الأعراف ـ من الآية: ٥٦.

(٤) سورة الحجر ـ من الآية: ٥٦. (ويقنط) أى ييأس.

(٥) سورة البقرة ـ من الآية: ٦٤.

(٦) سورة الكهف ـ من الآية: ٥٨.

(٧) كما فى كتاب (من أخلاق النبى) للدكتور أحمد الحوفى.

حِجابها، فدخل عمر ورسول الله يضحك، فقال عمر: مِمَّ تضحك يا رسول الله؟ قال: عجبتُ لهؤلاء لما سَمِعْنَ صوتَك تبادَرْنَ الحجابَ، فقال عمر: أنت أحق أن يَهبنك يا رسول الله، ثم أقبل عليهن عمر فقال: يا عدوات أنفسهن أَتَهَبْنَنى ولا تَهَبْنَ رسول الله؟ قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ من رسول الله. قال صلى الله عليه وسلم: إيهًا يابن الخطاب، والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فَجا إلا سلك فجا غير فَجِّك(١).

** ومن مظاهر رحمته - صلوات الله وسلامه عليه - التى تعددت واتسعت للأصدقاء والأعداء، وشملت الأحرار والأرقاء، وامتدت إلى الكبار وإلى الصغار، واستوعبت الأناسِىَّ والحيوان - أنه صلى الله عليه وسلم:

* أتاه سَبْىٌ، فشكت إليه فاطمة ما تلقى من مشقة فى خدمة بيتها، وطلبت منه خادمًا من السَّبى يكفيها مُؤْنَةَ بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد، وقال: لا أُعطيك خادمًا، وأدَعُ أهلَ الصُّفَّة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم السَّبى، وأنفق عليهم - على أهل الصفة(٢) - أثمانهم(٣).

فاقتضت رحمته بفقراء المهاجرين المنقطعين للعبادة وتعلُّم القرآن فى الصُّفَّة أن يؤثرهم على ابنته، فلا يستجيب لرغبتها أن يُعطيها خادمًا من السبى يعاونها على العمل الشاق بدارها، وأعلمها فى صراحة أن بيع واحد من السبى لإنفاق ثمنه على فقراء الصفة خير من إعطائها إياه، ونصح لها أن تستعين على جَهد العمل بالتكبير والتسبيح والتحميد.

---

(١) الإحياء - ٣ / ٤٥.

(٢) الصُّفة: سقيفة المسجد، وكان عددهم نحو أربعمائة، وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله.

(٣) شرح الزرقانى - ٤ / ٣٠٢.

وهاجر رجل إلى رسول الله من اليمن، وأراد الجهاد، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: هل باليمن أبواك؟ قال: نعم، قال: هل أذنَا لك؟ قال الرجل: لا، فقال الرسول: فارجع إلى أبويك فَاسْتَأْذِنْهُمَا، فإن فعلا فجاهدْ، فبرَّهما ما استطعت، فإنَّ ذلك خير ما تلقى اللهَ به بعد التوحيد.

* وجاء آخر إليه ليستشيرَه في الجهاد، فقال: ألكَ والدةٌ؟ قال: نعم، قال: فَالْزَمْها؛ فإن الجنةَ عند رجليها.

* وقدم عليه رجل يطلب البيعة على الهجرة وقال: ما جئتك حتى أبكيتُ والدَيَّ، فقال: ارجع إليهما فأضحِكهُمَا كَمَا أبكيتَهُما[1].

* وشكا إليه رجل أنه يتأخر عن صلاة الصبح مع الجماعة؛ لأن فلانًا يُطيلُ بالناس، فغضب رسول الله، وقال: (إن منكم مُنَفِّرين، فأيُّكم صلى بالناس فَلْيَتَجَوَّزْ - فَلْيُخَفِّفْ - فإن فيهم الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجة)[2].

* وقال صلى الله عليه وسلم: (إني لأَقُومُ في الصلاةِ أُريدُ أن أُطَوِّلَ فيها، فأسمعُ بكاءَ الصبيِّ، فأتجوَّزُ - أخفف - في صلاتي، كراهيةَ أن أَشُقَّ على أُمِّه).

* لم يكن النبي يكثر دخول بيت بالمدينة غير بيت أم سُليم[3] إلا على أزواجه، فقيل له: لِمَ تخص أم سليم؟ فقال: إني أَرْحَمُها، قُتِل أخوها معي)[4].

---

(١) مسند أحمد ١٠ / ٤٦، ٧٢. والإحياء ٢ / ١٩٥

(٢) فتح المبدى ١ / ٢٥٥.

(٣) كانت أم سليم خالته من الرضاع أو النسب، أما أخوها فهو حرام بن ملحان قتل يوم بئر معونة في عسكر النبي..

(٤) فتح المبدى ٢ / ٣٠٣.

* قال عبد الله بن مسعود: إنى لأذكر أول رجل قطع النبى يده، أُتِى بَسارقٍ فقطعه، فكأنَّما أُسِفَّ[(١)] وجهه، فقالوا: يا رسول الله، كأنك كرهتَ قطعه، فقال: (وما يمنعُنى، لا تكونوا عَوْنًا للشياطين على أخيكم).

* وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلاعبُ الحسنَ والحسينَ رضى الله عنهما ويُقَبِّلُهما ويحملهما على عاتقه وهما صغيران.

ودخل الحسن - والنبى صلى الله عليه وسلم يصلى - فركب الحسن ظهره وهو ساجد، فأبطأ فى سجوده حتى نزل الحسن. فلما فرغ قال له بعض أصحابه: لقد أطلتَ سجودك! فقال: (إن ابْنى ارتحلَنى فكرهتُ أن أعجله).

* وورد أنه صلى الله عليه وسلم قَبَّل الحسن رضى الله عنه، وعنده أحد أصحابه. فقال له الصحابى: إن لى عشرة من الولد ما قَبَّلْتُ منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (من لا يَرحم لا يُرحم).

* وعن عائشة رضى الله عنها قالت: (قَدمَ أناسٌ من الأعرابِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أَتُقَبِّلُونَ صبيانكم؟ فقال: نعم، قالوا: لكنَّا والله ما نُقَبِّلُ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوَأَمْلِكُ إن كان اللهُ نزعَ من قلوبِكم الرحمةَ؟)!!

* وعن أنس بن مالك قال: ما رأيتُ أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان إبراهيمُ مُسْتَرضَعًا فى عوالى المدينة، فكان ينطلقُ ونحن معه فيدخل البيتَ، وإنه لَيدخَّن، وكان ظئره[(٢)] قَيْنًا، فيأخذه فيقبله، ثم يرجع.

(١) سفى عليه رماد لشدة تغيره.

(٢) الظئر: المرضع، ويسمى زوجها أيضا ظئرًا، وهو المراد هنا.

* وكان عليه الصلاة والسلام فى بعض أسفاره وغلام أسود يقال له أنجشة يحدو فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أنجشة، رويدك[1] سوقًا بالقوارير).

إنه فى هذا الحديث يأمره بالرفق فى السير بالنساء اللاتى يشبهن القوارير الزجاجية فى ضعفها وسرعة انكسارها، وذلك أن الإبل إذا سمعت الحداءَ أسرعت فى المشى واستلذته، فأزعجت الراكبَ وأتعبته، فنهاه عن ذلك؛ لأن النساء تؤذيهن شدة الحركة، ويُخاف سقوطهن. وهذه شفقةٌ عظيمةُ من النبى صلى الله عليه وسلم بالنساء وعطف سامٍ عليهن.

* وكان من بالغ رأفته صلوات الله وسلامه عليه أنه إذا أَمَّ الناسَ فى الصلاة تخفف؛ رأفة بالضعفاء وذوى الضرورات.

* وكان لا يجلس إلى أحد منِ أصحابه وهو يُصلى إلا خَفَّفَ صلاته، وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته، بل كان فى موعظته للناس، وهى من أهم الأمور، يقصد إلى التخفيف شفقة ورحمة بهم.

* قال عبد الله بن مسعود: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتَخَوَّلُنا بالموعظة مخافة السَّآمة علينا).

* وروى أن أعرابيا جاء إليه صلوات الله وسلامه عليه يطلب عطاء فأعطاه. ثم قال له: هل أحسنتُ إليك؟ فقال الأعرابى: لا، ولا أجملتَ، فغضب المسلمون من هذا الرد الجافى وهَمُّوا به، فأشار الرسول إليهم أن كُفوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئًا، ثم قال: هل أحسنتُ إليك؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: إنك قلتَ ما قلتَ، وفى نفسِ أصحابى من ذلك شىء، فإن

(1) أى سق بهن على مهل.

أحببتَ فَقُلْ بين أيديهم ما قلتَ بين يديَّ حتى يذهبَ ما في صدورِهم عليك، قال: نعم.

فلما كان الغد جاء الأعرابي، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي، أكذلك؟ قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلي ومَثَلُ هذا: مثل رجل له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نُفوراً، فناداهم صاحبها: خلُّوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قُمام(1) الأرض فردَّها حتى جاءت واستناخت، وشدَّ عليها رحلها واستوى عليها، وأنا لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار).

* ومن رفقته صلوات الله وسلامه عليه ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: أن رجلاً قيل إنه من بني إسرائيل كان سائراً في طريق واشتدَّ عليه العطش، فقابلته بئر فنزلها يستقي منها، وبعد أن روى خرج منها، فرأى كلبًا يخرج لسانه ويعض التراب الندى، عله يجد فيه ما يرطب جوفه الملتهب. ويدفع عنه حرقة العطش، فأخذته الرحمة به لما أحسَّ من ألم العطش من قبل، فعاد ونزعَ خفه ونزل البئر وملأه ماء، ثم أمسكه بفيه(2) ليعالج بيده الصعود ويرقى. فقدم الماء للكلب وسقاه حتى أطفأ ظمأه، فأثنى الله عليه، وقبل عمله الطيب، وغفر له ما تقدم من ذنبه.

فسأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعضُ أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، ومن بينهم سراقة بن مالك بن جعشم، وهل لنا يا رسول الله في الإحسان إلى البهائم ثواب؟ فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ لنا في الإحسانِ إلى كل حيوان حَيٍّ ثوابًا وأجراً).

(1) بضم القاف: ما تلقمه منها.

(2) بفيه: أي بِفَمِهِ.

* وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال: (كان أحبَّ ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة هدفٌ(١)، أو حشائش نخل(٢). فدخل حائطًا(٣) لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه(٤) فقال: أفلا تتقى اللهَ فى هذه البهيمةِ التى مَلَكَّكَ اللهُ إياها؟! فإنه شكا إلىَّ أنك تُجيعُه وتدأبه)(٥).

* وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأينا حُمَّرَة(٦) معها فرخان لها، فأخذناهما، فجاءت الحُمَّرة تُعَرِّشُ(٧)، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (من فَجَعَ هذه بولدها، ردُّوا ولدها إليها).

ورأى قرية نمل قد أحرقناها، فقال: (مَن أحرقَ هذه؟ قلنا: نحن، قال: لا ينبغى أن يُعَذِّبَ بالنارِ إلا ربُّ النارِ)(٨).

* ومر النبى صلى الله عليه وسلم على بعير قد لحق ظهره ببطنه. فقال: (اتَّقُوا اللهَ فى هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحةً، وكلوها صالحةً).

** وهكذا نرى كيف كان النبى صلوات وسلامه عليه مثلاً أعلى فى خلق

(١) الهدف: ما ارتفع من بناء وغيره.

(٢) أى نخلات مرتفعات مجتمعات.

(٣) الحائط: أى البستان.

(٤) ذفرى البعير: الموضع الذى يرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران.

(٥) أى تتعبه بكثرة استعماله.

(٦) الحمر: نوع من الطير فى شكل العصفور.

(٧) أى ترفرف وترخى جناحيها وترنو إلى الأرض لتقع عليها ولا تقع.

(٨) أخرجه أبو داود.

الرحمة. وكيف لا؟ وهو (الرحمة المهداة) كما قال صلوات الله وسلامه عليه عن نفسه. وقال تعالى مخاطبًا إياه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾(١)، أى: لجميع الخلق من إنس وجن، ومؤمنين وكافرين.

فهو رحمة للمؤمنين بالهداية، ورحمة للمنافقين بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب.

وقد جعله الله بالمؤمنين، رءوفًا، رحيما، فأعطاه اسمين من أسمائه ـ سبحانه ـ فقال: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢).

ومن رحمته وشفقته صلى الله علسه وسلم على أمته تخفيفه وتسهيله عليهم، كقوله عليه الصلاة والسلام: (لولا أن أَشُقَّ على أمتى لأمرتُهم بالسواكِ مع كلِّ وُضوءٍ)(٣).

وكان الرسول معروفًا بالرأفة والرحمة، ورقة القلب، وطيبة النفس، والعطف على الإنسان، والرفق بالحيوان، يُمرِّضُ الديك إذا مرض، ويفتح الباب للهرة إذا لجأت إليه، فقد وصفه الله جل شأنه فى قوله:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤).

عزيز عليه ما عنتّم: أى شديد على نفسه ما يشق عليكم.

قالت عائشة رضى الله عنها: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا: اغسلى وجه أسامة(٥)، فجعلت أغسله وأنا أَنِفَة(٦) فضرب يدى، ثم

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٢) سورة التوبة ـ من الآية: ١٢٨.

(٣) رواه مالك والشافعى.

(٤) سورة التوبة: ١٢٨.

(٥) أى أسامة بن زيد.

(٦) أنفة: أى مستنكفة، مظهرة التضرر.

أخذه، فغسل وجهه، ثم قَبَّله، ثم قال: قد أُحْسن بنا إذْ لم يكن جارية.

وذات يوم تعثَّر الحسن، والنبى صلى الله عليه وسلم على منبره، فنزل فحمله، وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1]، أى بلاء ومحنة، فلا تطيعوهم فى معصية الله.

فكن ـ أخا الإسلام ـ متخلقا بخلق هذا النبى العظيم فى الرحمة والرأفة؛ حتى تكون بهذا من الرحماء الذين سيرحمهم الله تبارك وتعالى، كما يقول صلوات الله وسلامه عليه:

(إنما يرحمُ اللهُ من عبادِه الرحماء)[2].

(١) سورة التغابن ـ من الآية: ١٥.

(٢) رواه البخارى.

(٦) خلق التواضع فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا كنا كذلك سندور حول خلق التواضع فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فإن هذا سيكون معناه أننا سنعيش مع أهم عنصر ينبغى علينا أن نكون من المتخلقين به؛ وذلك لأن التواضع من الأخلاق المثالية والصفات العالية التى رَغَّبَ الله تعالى فيها، فقال لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١)، وقال: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا .. ﴾(٢).

وقال فى الثناء على أوليائه بوصف التواضع فيهم: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٣).

وقال فى جزاء المتواضعين: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾(٤).

---

(١) الشعراء: ٢١٥.

(٢) الإسراء ـ من الآية: ٣٧.

(٣) المائدة ـ من الآية: ٥٤

(٤) القصص ـ من الآية: ٨٣.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللهَ أوحى إليَّ أنْ تَواضَعُوا، حتى لا يفخرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغى أحدٌ على أحدٍ)(١). وقال: (ما بعثَ الله نبيًا إلا رَعَى الغنَم، فقال له أصحابه: وأنت؟ قال: نعم، كنتُ أرعاها على قراريطَ لأهل مكةَ)(٢). وقال: (لو دُعِيتُ إلى كُراعِ شاةٍ أو ذراعٍ لأجبتُ، ولو أُهْدِيَ إلي ذراعٌ أو كُراعٌ لقبلتُ)(٣).

ومن الأمثلة الدالة على تواضعه صلى الله عليه وسلم:

** أنه كان صلوات الله وسلامه عليه يحب التواضع، والظهور بطبيعته الحقيقية التى لا تكلف فيها ولا تَصَنُّع، ولا خُيلاء ولا رياء، ولا نفاق ولا طلاء، وعلى قدر حبه للتواضع كان يكره الكبر والتكبر ويمقت الغطرسة والتعاظم، ويبغض الفخر بالأحساب والأنساب، والتظاهر بالغنى والجاه والسلطان، والقوة والعظمة، ففى جميع أطوار حياته كان المثلَ الكامل، متواضعًا فى غير ضعف، سهلاً ليِّنا فى غير عنف، فمع علو منصبه كان أكثر الناس تواضعًا.

* واشترك فى بناء المسجد بالمدينة، واعتمد على نفسه فى كل عمل، ولم يتكل على أحد ليحل محله فى العمل، ومع أنه كان سيد العرب والعجم، كان يعيش عيشة طبيعية سهلة، مجردة عن مظاهر السلطة والسيطرة.

* وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم: يتواضع لكل مسلم، ولا يأنف، ولا يتكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يَقْدُمُ من السفر، فيتلقاه الصبيان،

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخارى.
(٣) رواه البخارى.

فيتلطف بهم، ويقف من أجلهم، ويأمر بهم فيُرفعون إليه، فيرفع منهم بين يديه، ومن خلفه ، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم، وربما تفاخر الصبيان بعد ذلك، فقال بعضهم لبعض: حملنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه، وحملك أنت وراءه، وكان يُؤْتَى بالصبى الصغير ليدعوَ له بالبركة، وليُسَمِّيَهُ، فيأخذه، فيضعه فى حجره، فربما بالَ الصبىُّ، فيصيح به بعض من يراه، فيقول: لا تُزْرِمُوا(١) الصبى بوله، فيدعه حتى يقضى بوله، ثم يفرغ من دعائه له وتسميته، ويُسَرُّ أهله به. فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعد البول.

* وكان من تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه كان يعود المرضى، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة العبد، ويأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد، ويخصِفُ(٢) نعله بنفسه، ويُرَقِّعُ ثوبَه معتمداً على نفسه، مع أنه كان فى استطاعته أن يعيش كما يعيش الملوك. بل وأكثر وأكثر.. ولكنه أبى..

* وكان يُساعد أهل بيته فى صنع ما يحتاجون إليه، وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

* وقد أَتَى رجل لمقابلة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فارتعد الرجل من هيبته.

فقال له الرسول: (هَوِّن عليك، فلستُ بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد)(٣). رواه الحاكم بسند صحيح.

* وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال لبيك.

---

(١) زرم البول: انقطع. ولا تُزْرموه: أى تقطعوا عليه بوله.

(٢) خصف النعل: خرزها وأصلحها.

(٣) القديد: اللحم المقدَّد.

* وذات يوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسافرًا مع جماعة من أصحابه، فلما قرب ميعاد الطعام عزموا على إعداد شاة يأكلونها. فقال أحد الحاضرين معه: سأقوم أنا بذبحها، وقال آخر: سأقوم أنا بسلخها، وقال الثالث: سأقوم أنا بطبخها. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (وعلىَّ جَمْعُ الحَطَبِ).

فقال له الأصحاب الذين كانوا معه: يا رسول الله، نحن نكفيك العمل، ونعمل بدلاً منك.

فقال عليه الصلاة والسلام: (علمتُ أنكم تكفونُنى، ولكنىِّ أكره أن أتميَّزَ عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه مُمَيَّزًا بين أصحابه).

* وفى يوم خرج صلوات الله وسلامه عليه وهو متوكئ ومعتمد على عصًا فى يده، فقام له أصحابه، فقال: (لا تقوموا كما يقومُ الأعاجم، يُعَظِّمُ بعضُهم بعضًا):

لأنه صلى الله عليه وسلم: كان يحب التواضع، ويكرهُ التعاظم والتكبر.

* وكان صلى الله عليه وسلم يجلس فى المكان الخالى الذى يجده فى المجلس، ويختلط بأصحابه ويزورهم، ويتكلم معهم، ويلعب مع أبنائهم، ويجعلهم يجلسون فى حجره. وإذا دعاه عبده أو جارية أو فقير أو مسكين فإنه يجيب الدعوة ولا يرفضها، وإذا مَرِضَ مريض زاره فى مرضه، وإذا كان فى بيته قام بخدمة نفسه ولا يجد فى ذلك عيبًا.

* وعند ما توفى ابنه إبراهيم، فكسفت الشمس، فقال الناس: إن الشمسَ كُسِفَت لموت إبراهيم - قام النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد،

وقال: (إن الشمسَ والقمرَ آيتانِ من آيات الله، لا تنكسفانِ لموتِ أحدٍ، ولا لحياتهِ، فإذا رأيتمُ ذلك فادعوا اللَهَ، وصلُّوا، وَتصدقُوا).

* وكان إذا جلس مع الناس إن تحدثوا فى طعام أو شراب تحدث معهم، وإن تكلموا فى الدنيا تَحَدَّثَ معهم؛ رفقًا بهم، وتواضعًا لهم.

وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية، ويضحكون، فيبتسم إذا ضحكوا، ولا يزجرهم إلا عن حرام.

* وكان مع علو منصبه ورفعة درجته ومنزلته أشد الناس تواضعًا، وحسبك أنه خُيرٌ بين أن يكون نبيا ملكًا أو نبيا عبدًا، فاختار أن يكون نبيا عبدًا. ففى الحديث يقول صلوات الله وسلامه عليه: (لا تُطْرونى كما أطْرَتِ النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله).

* وجاءته امرأة فى عقلها شىء، فقالت: إن لى إليك حاجة، فقال: : يا أم فلانة، فى أى طرقِ المدنية شئت أجلس إليك، حتى أقضى حاجتك، فجلست. . فجلس النبى صلى الله عليه وسلم إليها، حتى أعطاها حاجتها.

* وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبى صلى الله عليه وسلم قال: كان أجودَ الناس كفا، وأوسعَ الناس صدرًا، وأصدقَ الناس لهجةً(١)، وأوفاهم ذمةً(٢)، وألينَهم عريكةً(٣)، وأكرَمهم عشيرةً، من رآه بديهة(٤) هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته(٥): لم أر قبله ولا بعده مثله، وما سئل عن شىء قط إلا أعطاه، وما سُئل شيئا قط فقال: لا.

---

(١) لهجة: أى لسانا.

(٢) ذمة: أى عهدًا.

(٣) العريكة: أى الطبيعة.

(٤) بديهة: أى على غير معرفة.

(٥) يقول ناعته: أى واصِفه.

* وحج عليه الصلاة والسلام على رَحْل رث، وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم، فقال: (اللهمَّ اجْعَلْهُ حجا لا رياءَ فيه ولا سُمْعَة).

* وعن قيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنهما قال: (زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أراد الانصراف قَرَّب له سعدٌ حماراً ليركبَه وطأ عليه قطيفة، وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال سعد: يا قيس اصحبْ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال قيس: فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: اركب فأبيتُ، فقال: إما أن تركبَ وإما أن تنصرف). وفى رواية: (اركب أمامى فصاحبُ الدابةِ أَوْلَى بمقدمها) وقد امتثل قيس وركب.

** فكن - أخا الإسلام - منتفعًا بهذا الخلق الكريم، الذى يؤكد أنه صلوات الله وسلامه عليه كان (علي خلق عظيم). وإياك إياك أن تكون عكس هذا متكبراً؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول ناهيًا عن الكبر: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(1).

ومعنى: (تُصَعِّر خدك للناس) أى: تميله وتعرض به عن الناس تكبراً عليهم (والمرح)، أى التبختر.

وقال تعالى عن قارون: ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾(2)

إلى قوله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ الآيات(3).

---

(1) لقمان: 18 .

(2) القصص: 76.

(3) أى الآيات من 76 - 82 من القصص.

كما ورد كذلك فى السنة الترهيب من الكبر وإعجاب المرء بنفسه:

* فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخلُ الجنةَ من كان فى قلبه مثقالُ ذرةٍ من كبرٍ) فقال رجل: إن الرجل يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حَسَنًا ونعلُه حسنةً؟ قال: (إن اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ، الكبر بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس). رواه مسلم.

(وبطر الحق) أى: يجعل ما جعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا. (وغمط الناس) أى احتقارهم.

* وعن حارثة بن وهبٍ رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ألا أخبرُكم بأهلِ النارِ كُلُّ عُتُلٍّ جوَّاظٍ مستكبرٍ) متفق عليه.

و(العُتُلّ)، أى: الغليظ الجافى و(الجوَّاظ)، بفتح الجيم وتشديد الواو، وبالظاء المعجمة، أى: الجموع المنوع، وقيل: الضخم المختال فى مشتيه، وقيل: القصير البطين.

* وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: (احتَجَّتِ الجنةُ والنارُ، فقالت النار: فِيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فِيَّ ضعفاء الناس ومساكينُهم. فقضى اللهُ بينهما: أنَّك الجنة رحمتى أرحمُ بِكِ من أشاء، وأنك النارُ عذابى أُعذِّبُ بك مَن أشاء، ولكليكما علىَّ ملؤها)

رواه مسلم.

** وحتى تعرف - أخا الإسلام - بل ويتأكد لك أن مظاهر الدنيا وزخرف

أهلها لا قيمة له عند الله - إليك كذلك نص هذا الحديث الشريف المتفق عليه الذى ورد:

* عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال: مر رجل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال لرجل عنده جالس: (ما رأيُك فى هذا؟) فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حَرِىٌّ إن خطب أن يُنْكَحَ، وإن شَفَع أن يُشَفَّع. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مَرَّ رجل آخر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما رأيُك فى هذا؟) فقال: يا رسولَ الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حَرِىٌّ إن خَطَبَ ألا يُنْكَحَ، وإن شَفَع ألا يُشَفَّع، وإن قال ألا يُسْمَعَ لقوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (هذا خيرٌ من مِلْءِ الأرضِ مثل هذا).

و(حَرِىٌّ هو) بفتح الحاء وكسر الراء وتشديد الياء أى: حقيق. و(.. شفع أن يُشَفع)، أى: إذا رجا أمرًا يُجاب لحسبه أو شرف نسبه وظهور فخره.

و(إن خطب ألا ينكح)، أى: ألا يُجاب لفقره،

وفى أُسْد الغابة: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أعطيتَ الأقرع ابن حابس وعينية بن حصن مائة من الإبل وتركت جُعَيْلا، فقال صلى الله عليه وسلم: (والذى نفسى بيده لَجُعَيْلٌ خيرٌ مِن طِلاع الأرضِ مثل عُيَيْنَةَ والأقرعِ).

** فلاحظ كل هذا - أخا الإسلام حتى تكون متواضعًا لا متكبِّرا.

وحسبك أن تعلم، بالإضافة إلى ما وقفت عليه: أنه لا يتواضع غير الرفيع، ولا يتكبر غير الوضيع.

ولله درُّ من أشار إلى هذا المعنى فى قوله:

تواضعْ تكُن كالنَّجْمِ لاحَ لناظِرِه على صفحاتِ الماءِ وَهْوَ رفيعُ
ولاتكُ كالدخانِ يعلو بنفسِهِ إلى طبقاتِ الجوِّ وَهْوَ وَضِيعُ

** مع ملاحظة كذلك، أن ليس من الكبر أن تتجمل بالجديد ـ مادمت مقتدرًا ـ تحدثًا بنعمة الله عليك، فقد قال الله تعالى فى قرآنه:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(١)، وفى الحديث: (إن اللهَ يحبُّ أن يرَى أثر نعمتِه على عبدِه).

ومن أجمل ما قرأت فى هذا، ما نُسِب إلى الإمام مالك رضى الله عنه، وهو:

حَسِّن ثيابكَ ما استطعتَ فإنها زَينُ الرجال بها تَعِزُّ وتكْرُمُ
ودعِ التَّخَشُّنَ فى الثياب تواضعًا فالله يعلم ما تُكِنُّ وتكْتُم
فرثيثُ ثوبِك لا يزيدُك رفعةً عند الإلـه وأنتَ عبدٌ مجرمُ
وجديد ثوبك لا يضرك بعد أن تخشى الإلـهَ وتتقى مَا يَحْرُمُ

---

(١) الضحى: ١١

(٧) خلق الحياء فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا كنا ـ أخا الإسلام ـ سندور حول: (خُلُقِ الحياء) فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه ينبغى علينا أن نعلم أولاً أن الحياء هو أهم شعبة من شُعب الإيمان ـ بعد: لا إله إلا الله ـ بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح المتفق عليه: (الإيمانُ بِضعٌ وسبعونَ، أو بضع وستون شعبة، فأفضلُها: لا إلهَ إلا اللهُ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شُعْبَةٌ من الإيمان)(١)، والشعبة: أى القطعة والخصلة. والإماطة: أى الإزالة.

كما ورد عنه صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال مشيراً إلى أهمية الحياء فى حياة الأفراد والجماعات:

* (الحياءُ لا يأتى إلا بِخَيْرٍ) رواه الشيخان، وفى رواية مسلم: (الحياءُ خيرٌ كلهُّ).

* (الحياءُ من الإيمان، والإيمانُ فى الجنةِ، والبذاء من الجفاء، والجفاءُ فى النار).

رواه أحمد بسند صحيح

(١) البضع بكسر الباء ويجوز فتحها: من الثلاثة إلى العشرة.

ومعنى: أن الجفاء فى النار، أى: أن صاحبه فى النار كما أن صاحب الإيمان فى الجنة.

وذلك لأن البذاء نقيض الحياء، والبذاء فحش فى القول والفعل وجفاء فى الكلام، والمسلم لا يكون فاحشًا ولا مُتَفَحِّشا، ولا غليظًا ولا جافيًا، إذ هذه صفات أهل النار، والمسلم من أهل الجنة إن شاء الله، فلا يكون من أخلاقه البذاء ولا الجفاء، وشاهد هذا هو الحديث السابق الذى وقفنا عليه

** وخُلُق الحياء فى المسلم غير مانع له أن يقول حقا أو يطلب علمًا، أو يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر.. فقد شفع مرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد حبُّ رسول الله وابن حِبِّه فلم يمنع الحياء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول لأسامة فى غضب: (أتشفعُ فى حدٍّ من حدودِ اللهِ يا أسامةُ؟ والله لو سَرَقَتْ فلانةٌ لقطعتُ يدَها)(١).

* ولم يمنع الحياء أمَّ سليم الأنصارية أن تقول: يا رسول الله: إن الله لا يستحى من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا هى احتلمتْ؟ فيقول لها الرسول صلى الله عليه وسلم ـ ولم يمنعه الحياء ـ (نعم، إذا رأت الماء)(٢).

* وخطب عمر مرة فعرض لغلاء المهور، فقالت له امرأة: أيعطينا الله وتمنعنا يا عمر، ألم يقل الله:

﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾(٣)

فلم يمنعها الحياء أن تدافع عن حق نسائها ولم يمنع عمر أن يقول معتذرًا: كلُّ الناسِ أفقه منك يا عمر.

* كما خطب مرة المسلمين وعليه ثوبان، فأمر بالسمع والطاعة، فنطق

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخارى.

(٣) النساء: من الآية ٢٠.

آحد المسلمين قائلاً: فلا سمع ولا طاعة يا عمر. . عليك ثوبان وعلينا ثوب واحد. فنادى عمر بأعلى صوته: يا عبد الله بن عمر، فأجابه ولده: لبيك أبتاه، فقال له: أنشدك الله، أليس أحد ثوبىَّ هو ثوبك أعطيتنيه؟ قال: بلى والله، فقال الرجل : الآن نسمع ونطيع يا عمر. فانظر كيف لم يمنع الحياء الرجل أن يقول، ولا عمر أن يعترف.

* والمسلم كما يستحى من الخلق فلا يكشف لهم عورة، ولا يقصر فى حق وجب لهم عليه، ولا ينكر معروفًا أسدوه إليه، لا يخاطبهم بسوء، ولا يجابههم بمكروه، فهو يستحى من الخالق، فلا يقصر فى طاعته، ولا فى شكر نعمته. وذلك بما يرى من قدرته عليه، وعلمه به، ممتثلاً قول ابن مسعود رضى الله عنه: استَحْيُوا من الله حقَّ الحياء، فاحفظوا الرأسَ وما وعى، والبطنَ وما حَوَى وذكْرَ الموتِ والبِلَى)[1]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (فالله أحقُّ أن يُستحيا منه)

رواه البخارى.

وتمام الحديث حتى تنتفع به، هو:

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله، عوراتُنا ما نأتى منها وما نذر؟ قال: (احْفَظْ عورتَك إلا من زوجِك أو ما ملكتْ يمينُك، قلت: يانبى الله، إذا كان القوم بعضهم فى بعض؟ قال: إن استطعت ألا يراها أحد فلا يرينها. قلت: إذا كان أحدُنا خاليا؟ قال: فالله أحق أن يُسْتحيَا منه).

ومن أجمل ما قرأت فى هذا: أن الإمام عليا كرم الله وجهه قال لابنه الحسن عليه رضوان الله فى وصية من أعظم وصاياه:

(١) أخرجه المنذرى مرفوعاً ورجع وقفه على ابن مسعود رضى الله عنه.

استحى من ثلاث:

* استحى من مطالعة الله إياك وأنت مقيم على ما يكره.

* واستحى من الحَفَظَةِ الكرام الكاتبين.

* واستحى من صالحى المؤمنين).

هذا، ولما كان موضوعنا هو (حياء رسول الله صلى الله عليه وسلم) فإنه ينبغى لنا بعد أن وقفنا على هذا التقديم الهام، أن نقف على بعض النماذج الحية المتعلقة بخلق الحياء فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، والتى منها:

* أنه صلوات الله وسلامه عليه كان أشد الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاءً:

قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: (كان عليه الصلاة والسلام أشد حياءً من العذراء(١) فى خدرها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه فى وجهه، وكان لطيف البشرة، رفيق الظاهر، لا يشافه أحدًا بما يكرهه حياء وكرم نفس).

وقالت عائشة رضى الله عنها: (كان عليه الصلاة والسلام إذا بلغه عن أحد ما يكرهه، لم يقل: ما بال وفلان يقول: كذا وكذا؟ بل يقول: ما بالُ أقوامٍ يصنعون أو يقولون كذا؟ ينهى عنه، ولا يُسمىٍّ فاعله)(٢).

* وكان صلى الله عليه وسلم: يتوصل بالكتابة عما يضطر إلى التعبير عنه مما يكره التصريح به:

---

(١) أى البكر حال اختلائها بالزوج الذى لا تعرفه من قبل تستحى منه. والحديث صحيح متفق عليه.

(٢) نور اليقين ٣٩٥.

ذكرت عائشة أن امرأة سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن غُسلها من المحيض، فعرفها كيف تغتسل، ثم قال لها: (خذى فِرْصَةً من مسك فتطهرى بها، قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: سبحان الله، تطهرى، تقول عائشة - فاجتذبتُها إلىَّ، فقلت لها: تَتَبَّعِى بها أثر الدم).

وروى أنه قال لتلك المرأة: تطهرى بها، ثلاث مرات. ثم استحيا فأعرض بوجهه(١).

* كذلك قال لامرأة رفاعة - حينما سألته وقد تزوجت رجلاً فطلقها قبل أن يدخل بها: هل تحل لزوجها الأول الذى كان قد طلقها ثلاثاً: (حتى تذوقى عُسَيْلَتَه ويذوق عُسَيْلَتَكِ)(٢).

* وكان صلى الله عليه وسلم لا يثبت بصره فى وجه أحد، ويعرض عمن يتكلم بغير جميل، ويتغافل عما لا يشتهى من الحديث(٣).

ومن أجمل الصور التى تؤكد قمة (حياء) الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه:

* كان بعض المسلمين يتحينون طعام رسول الله، فيدخلون بيوته، ويجلسون ينتظرون إنضاج الطعام، ومستأنسين لمحادثة بعضهم لبعض، وكان رسول الله يضيق بطول جلوسهم، وكثرة أحاديثهم، ولكن حياءه يمنعه أن يأمرهم بالخروج؛ لأن هذا الأمر يشق عليهم، فتولى الله عن النبى صلى الله عليه وسلم إرشادهم، ولهذا قالت السيدة عائشة: حسبك فى الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم(٤).

(١) فتح المبدى ١/ ١٧٠، والإحياء ٢/ ٣٢٤، فرصة، أى قطعة.
(٢) الإحياء ٢/ ٣٢٤.
(٣) الإحياء ٢/ ٣٢٤.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٢٠.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ(١) وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾(٢).

** فكن ـ أخا الإسلام ـ متخلقا بخلق الحياء، حتى تكون مؤمنًا حقًا.

وإياك إياك أن تكون من المجاهرين بالمعصية. وحسبك تحذيرًا لك، هذا الحديث الشريف:

* (كلُّ أمتى معافًى إلا المجاهرين، وإن من الجهار أن يعمل الرجلُ بالليل عملاً ثم يُصبحُ وقد ستره اللهُ تعالى، فيقول: عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه: يصبح يكشف ستر الله عنه)(٣).

بل وحسبك تهديدًا إن لم تكن والعياذ بالله من أهل الحياء، هذا الحديث الشريف الذى رواه البخارى.

* عن أبى مسعودٍ عقبةَ بن عَمْرٍو الأنصارى البدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ مما أدركَ الناسُ من كلام النبوة الأولى إذا لم تَسْتَحِ فاصنعْ ما شئتَ)

فقد قال بعض مفسرى هذا الحديث الذى يدور مدار الإسلام كله: معناه أنك إذا كنت لا تستحى من الله تعالى ولا تراقبه فأعط نفسك مُناها وافعل ما تشاء، فيكون الأمر فيه للتهديد لا للإباحة، ويكون كقوله تعالى:

(١) إناه، أى: نُضجه.

(٢) سورة الأحزاب: من الآية ٥٣.

(٣) الجامع الصغير ٢/ ١٦٤، وفتح المبدى ٣/ ٣٠٨.

﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾(١) وكقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ.. ﴾(٢) الآية.

** مع ملاحظة ما قاله العلماء: وهو أن حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح - من الأقوال والأفعال والأخلاق - ويمنع من التقصير فى حق ذى الحق...

قال فى (رياض الصالحين): وروينا عن أبى القاسم الجنيد رحمه الله تعالى: الحياء رؤية الآلاء (أى النعم) ورؤية التقصير فيتولد - أى فيتحصل - بينهما حالة تُسمى حياء. والله أعلم.

---

(١) فصلت - من الآية: ٤٠

(٢) الإسراء - من الآية :٦٤.

(٨) خلق السخاء فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا كنا ـ أخا الإسلام ـ سندور ـ كذلك ـ حول (خلق السخاء) فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فإن هذا سيكون معناه أننا سنقف على أهم صفة من صفات المؤمنين. الذين قال الله تعالى فى وصفهم: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(١).

لأن الإنفاق فى الخير هو الكرم والجود والسخاء عن رضًا فيما يعظم نفعه وخطره، أو بذل المال فى سبيل من سبل الخير والبر.

وقد ذكر القاضى عياض أن هذه الألفاظ متقاربة المعانى، وقال: إن بعضهم فرّق بينهما، فجعلوا الكرم الإنفاق بطيب النفس، وسموه حرية، وهو ضد النذالة، وإن السخاء سهولة الإنفاق، وتجنب اكتساب مالا يُحمد، وهو الجود، وهو ضد التقتير، وإن السماحة التجافى عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس، وهى ضد الشكاية(٢).

ولكن هذه تفرقة فيها تعسف وتكلف؛ لأن اللغة لا تقرها، أى أنه قد جاء فى المعاجم اللغوية أن الكرم والجود والسخاء معانيها واحدة.

---

(١) سورة الأنفال: من الآية ٣.

(٢) الشفا ١/ ٨٥.

** ولهذا نرى أن الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم يحض على البذل فى سبيل الله فيقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١).

ويقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢) ويقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾(٣).

** وعلى العكس نهى الله سبحانه وتعالى عن البخل فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٤). وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(٥).

** وكذلك ورد فى السنة المطهرة ما يُرغِّبُ فى الإنفاق، ويُرَهِّبُ من الشُّح:

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٦١.

(٣) سورة آل عمران: ٩٢.

(٤) سورة آل عمران: ١٨.

(٥) سورة التوبة: آخر الآية ٣٤ ثم كل الآية ٣٥.

* فعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لا حَسَدَ إلا فى اثنتينِ، رجلٍ آتاه الله مالاً فسلَّطه على هَلَكَتِه فى الحقّ(١)، ورجلٍ آتاه الله حكمةً(٢) فهو يقضى(٣) بها ويُعَلِّمُهَا) متفق عليه، ومعناه: ينبغى ألا يُغبط(٤) أحد إلا على إحدى هاتين الخصلتين..

* وعن عَدى بن حاتِم رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اتقوا(٥) النارَ ولو بِشِقِّ تمرةٍ)(٦) متفق عليه.

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يُصبِحُ العبادُ فيه إلا مَلَكانِ ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أَعطِ مُنفقًا خَلَفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ مُمسِكًا(٧) تَلَفًا)(٨) متفق عليه.

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (بَيْنا رجلٌ يمشى بفلاة(٩) من الأرض فسمع صوتًا فى سَحابة: اسق حديقةَ فلانٍ، فَتَنَحَّى(١٠) ذلك السحابُ، فأفرغ ماءه فى حَرَّة، فإذا شرجة من تلك الشِراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فَتَتَبَّع الماء، فإذا رجلٌ قائم يُحوِّل الماء بمسحاته فقال له: يا عبدَ اللهِ، ما اسمُك؟ قال: فلانٌ للاسم الذى سمع فى السحابة، فقال له: يا عبد الله، لِمَ تسألنى عن اسمى؟ فقال: إنى سمعتُ

---

(١) أى إنفاقه فى القرب والطاعات.

(٢) أى علمًا.

(٣) أى بين المتنازعين

(٤) الغبطة معناها أن يتمنى الإنسان الخير كفلان حتى يفعله مثله.

(٥) أى اتخذوا بينكم وبينها وقاية من صالح الأعمال.

(٦) أى نصفها.

(٧) أى عن الإنفاق.

(٨) أى فوات أعمال البر والتشاغل بغيرها.

(٩) فلاة: أى أرض لا ماء فيها.

(١٠) أى امتثل ما أمر تعظيماً لله وحده.

صوتًا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلانٍ لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أمَا إذ قُلتَ هذا، فإنى أنظر(١) إلى ما يخرج منها(٢): فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالى(٣) ثُلثًا، وأرد فيها ثلثه)

رواه مسلم.

(الحَرَّة): الأرض الملبسة حجارة سوداء (والشرجة) بفتح الشين المعجمة وإسكان الراء: هى مسيل الماء.

* ولقد كان الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أجودَ الناس وأبعدهم عن الشح. لدرجة أنه كان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطى عطاءً يعجز عنه الملوك، ويعيش هو عيشة الفقراء، فيأتى عليه الشهر والشهران لا يوقد فى بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع(٤).

* وكان ينفق فى سبيل الله ما استطاع أن ينفق، وهو يستقل ما أنفق، وكان يعطى العطاء الجزل، فلا يستكثر ما أعطى، وما سئل عن شىء قط على الإسلام إلا أعطاه! وما سُئل شيئًا قط فقال: لا!

* أتاه رجل فسأله، فأعطاه غَنَمًا سدت بين جبلين، فرجع إلى قومه، وقال: أسلموا، فإنه محمدًا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة.

* وحُمل إليه تسعون ألف درهم، فوضعها على حصير، ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

---

(١) أى أبين لك عملى...

(٢) أى من الأرض.

(٣) أى الذين أعولهم من أهل وولد وزوجة وخادم.

(٤) شرح الزرقانى ٤/٣٠٢.

* ولما قفل من حُنين جاءه الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى شجرة، فخطفت رداءه، فوقف وقال: أعطونى ردائى، لو كان لى عَدَدُ هذه العِضاه(١) نَعَمًا لقسمتُها بينكم، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذّابًا ولا جبانًا(٢).

* وأُتِي بمال من البحرين ، فقال: انثروه فى المسجد، وكان أكثرَ مالٍ أُتِيَ به، فخرج إلى الصلاة، ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاةَ جاء فجَلسَ إليه، فما كان يَرَى أحدًا إلا أعطاه، وما قام وثَمَّ منها درهم(٣).

* وبلغ به الكرم أنه كان يستحى أن يرد سائله خالى اليدين معتذراً بالفاقة:

جاءه رجل فسأله، فقال: ما عندى شىء، ولكن ابتع(٤) علىَّ، فإذا جاءنا شىء قضيناه. فقال عمر بن الخطاب؛ يا رسول الله، قد أعطيتَه من قبل، فما كَلَّفك الله ما لا تقدر عليه.

فكره النبى ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله: أنفق، ولا تَخْشَ من ذى العرش إقلالاً، فتبسم النبى، وعُرِفَ البِشْرُ فى وجهه، ثم قال: بهذا أُمِرْتُ(٥).

وقد تعددت مظاهر الكرم فى ألوان ومناسبات شَتَّى، منها ما يلى:

* قال جابر: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس أتاه صبى،

---

(١) العضاه: شجر شائك كثير فى الصحراء.

(٢) فتح المبدى ٢/ ٣٣٩، والإحياء ٢/ ٣٣٧، وصحيح مسلم ١٥/ ٧٢.

(٣) فتح المبدى ١/ ١٩٨.

(٤) ابتع: أى اشتر.

(٥) المواهب اللدنية ٢٠٩، والإحياء ٢/ ٣٢٧.

فقال: إن أُمِّي تَسْتَكْسِيكَ درعًا،(١) فقال رسول الله: من ساعة إلى
يظهر، فعد إلينا.

فذهب الصبى إلى أمه، فقالت له: عد إليه، فقل له: إن أمى تس
الدرعَ الذى عليك. فدخل رسول الله داره، ونزعَ قميصَه، وأعطاه ا
وقعد عريانا، وأذَّن بلالٌ، وانتظر المسلمون، فلم يخرج النبى للصلاة(٢)

* وأتته امرأة بِبُرْدة، فقالت: يا رسول الله، أكسوك هذه، فأخذ
محتاج إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال: يا رسو
ما أحسن هذه، فاكْسُنيها! فقال: نعم فلما قام النبيُّ لامَ الصحابةُ ا
وقالوا له: إنك تعرفُ أن النبيَّ محتاج إليها، وأنه لا يُسأل شيئًا فيمنعه

* وكان جوده عليه الصلاة والسلام كله لله، وفى ابتغاء مرضاة الل
كان يبذل المال تارةً لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه فى سبيل الله، وتارة
به من يقوى الإسلامُ بإسلامهم.

** فكن ـ أخا الإسلام ـ منتفعا بكل تلك النماذج أو المظاهر ال
العظيمة التى أرجو أن تكون سَبَبًا فى سخائك تَشَبُّهًا برسول الله صل
عليه وسلم.

وذلك حتى تكون كذلك من الفائزين بثواب الإنفاق فى سبيل الله
إطعام الفقراء والمساكين، المشار إليه فى قول الله تبارك وتعالى:

* ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾(٣) وقوله:

(١) الدرع : أى القميص.

(٢) الكشاف ١/٥٤٦.

(٣) سبأ ـ من الآية: ٣٩.

* ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾(١).

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله تعالى: أَنْفِقْ يابنَ آدمَ يُنْفَقْ عليك) متفق عليه.

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما نَقَصَتْ صدقة من مال، وما زادَ الله عبدًا بعفوٍ إلا عِزا، وما تواضع أحدٌ للهِ إلا رفعه اللهُ عزَّ وجَلَّ)

رواه مسلم

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (السخىُّ قريبٌ من الله، قريبٌ من الجنة، قريبٌ من الناس، بعيدٌ من النار. والبخيلُ بعيدٌ من اللهَ، بعيدٌ من الجنة، بعيدٌ من الناسِ، قريبٌ من النار. ولَجَاهلٌ سَخِىٌّ أحبُّ إلى اللهِ عزَّ وَجلَّ من عابد بخيل).

رواه الترمذى والبيهقى والطبرانى(٢).

** ومن أجمل ما قرأت حول تطبيق هذا الخلق الحميد:

* أن عائشة رضى الله عنها بعث إليها معاوية بمال قَدْره مائةٌ وثمانون ألفَ درْهم، فدعت بطبق، فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت لجاريتها: هَلُمِّى(٣) فَطُورِى، فجاءتها بِخُبْزٍ وزيت، وقالت لها: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟.

(١) البقرة ـ من الآية: ٢٧٢.

(٢) بسند ضعيف للترمذى.

(٣) أحضرى طعام الإفطار.

فقالت لها: (لو كنتِ ذَكّرتينى لفعلتُ).

* وأنه لما تجهز الرسول صلى الله عليه وسلم لحرب الروم، وكان المسلمون وقتئذ فى ضيق كبير وعسر شديد حتى سُمِّىَ جيش الرسول فيها (جيش العسرة) خرج عثمان بن عفان رضى الله عنه بصدقة قدرها عشرة آلاف دينار وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، وخمسون فرسًا، فجهز بذلك نصف الجيش جميعَهُ.

* وفى أحد الأعوام انحبس المطر وشحت المياه، فوجد أحد يهود المدينة الفرصة سانحة للإضرار بالمسلمين والتضييق عليهم، وكان يملك بئرًا غزيرة المياه اسمها بئر (رومْة).

فأقبل الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون له سوء الحال وقد أجهدهم العطش وأرهقهم الظمأ، وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما إن سمع النبى صلى الله عليه وسلم يبشر بالجنة من يشترى بئر (رومْة) حتى أسرع فى ذلك، وجعلها وقفًا للمسلمين، فكانت نَفْحَةً من نفحات إيمان عثمان عليه رضوان الله.

* وفى يوم شديد عسير وقد خلت أسواق (المدينة) من الأغذية والأطعمة، وألم بالناس الكرب والضنى أقبل عليه فى داره نفر من تجار المدينة وقد علموا بنبأ وصول قافلة محملة بالبضائع المختلفة من الشام تخص عثمان. فعرضوا عليه شراءها بما فيها قائلين: نعطيك ضعفها ربحًا خالصًا، فأبى وقال: هناك مَن أعطانى أكثر.. فألحوا فى الطلب وزادوا فى الربح، وهو يأبى ويقول: هناك من أعطانى أكثر، حتى وصلوا معه إلى عرض ثمانية أضعاف، ثم قالوا: نحن تجار (المدينة) ولا نعلم فيها أحدًا يستطيع أن يعرض أكثر مما عرضنا، فأجابهم (رضى الله عنه): الله سبحانه وتعالى أعطانى الحسنة بعشرة أمثالها.

فانفضوا من عنده، ثم فرق الأرزاق فى المسلمين؛ طمعًا فى فضل الله وثوابه. فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

* وروى أن عبد الله بنَ عامر اشترى من خالد بن عقبة بن أبى معيط داره التى فى سوق مكة بسبعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع عبد الله بكاء أهل خالد، فسأل عن ذلك، فقيل له: يبكون لدارهم، فقال لغلامه: ائْتِهم وأَعلِمْهم أن الدارَ والدراهمَ جميعًا لهم.

* وروى أن الإمام الشافعي رحمه الله، لما مرض مرضه الذى تُوفى فيه أوصى بأن يُغسِّلَهُ فلان، فلما تُوفى دَعَوْا من أوصى بتغسيله، فلما حضر قال: أعطونى تذكرتَه، فأعطوه إياها، فإذا فيها على الشافعى دَيْن قدره سبعون ألف درهم، فكتبها الرجل ليقضيها لأصحابها، وقال: هذا غُسْلى إيَّاه، وانصرف.

* وجاء رجل من الأنصار إلى ابن عباس رضى الله عنهما، فقال له: يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه قد وُلِد لى فى هذه الليلة مولود وإنى سميتُه باسمك تبركًا، وإن أمه ماتت، فقال له: بارك الله لك فى ولدك، وآجرك على المصيبة، ثم دعا بوكيله، وقال انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتى دينار؛ لينفقها على تربيته، ثم قال للأنصارى: عد إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفى العيش يبس، وفى المال قلة، فقال الأنصارى جُعلتُ فِداك، لو سبقتَ حاتمًا(١) بيوم ما ذكرتْهُ العربُ.

* وجاء رجل إلى معاوية رضى الله عنه فقال: سألتُك بالرحم الذى بينى وبينك إلا قضيتَ حاجتى، فقال معاوية: أمِن قريش أنتَ؟ قال: لا، فقال:

---

(١) يعنى حاتمًا الطائى.

فأىٌّ رحم بينى وبينك؟ قال: (رحم آدم عليه الصلاة والسلام) قال معاوية: (رحم مَجْفُوَّةٌ. والله لأكوننَّ أول من وصلَها، ثم قضى له حاجته).

** وهكذا ترى ـ أخا الإسلام ـ كيف كان هؤلاء الفضلاء يقتدون بمَثَلِهم الأعلى، صلوات الله وسلامه عليه، فى هذا الخلق الكريم الذى إن تخلقنا جميعًا به ـ إن شاء الله ـ كنا من المؤمنين حقا. وبالله التوفيق.

(٩) خلق الصدق فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا كنا سندور ـ كذلك ـ حول خُلق الصدق فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فإن هذا سيكون معناه أننا سنقف من خلال هذا على أهم ما ينبغى لنا ـ نحن المؤمنين ـ أن نكون من المتخلقين به.

وذلك لأن الصدق من متممات الإيمان، ومكملات الإسلام.

ولهذا نرى أن الله تعالى قد أمر به وأثنى على المتصفين به فقال:

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾(١)،

وقال فى الثناء على أهله:

* ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾(٢)

وقال ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾(٣)

وقال: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾(٤).

---

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) الأحزاب ـ من الآية ٢٣.

(٣) الأحزاب ـ من الآية ٣٥.

(٤) الزمر: ٣٣.

وفى السنة المطهرة يقول حبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه:

(عليكم بالصدق، فإنَّ الصدقَ يهدى إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يَصْدُقُ، ويتحرَّى الصدقَ، حتى يُكتَب عند الله صدِّيقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذبَ يَهْدِى إلى الفجور، وإن الفجورَ يهدى إلى النار، وما يزال الرجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكْتَبَ عند الله كَذَّابًا).

رواه مسلم

وحسبك - أخا الإسلام - كما قرأت فى نص الحديث - أنك إذا تحريت الصدق كنت بهذا من الصدِّيقين. مع ملاحظة أن الصِّديقيَّة مرتبة عظيمة قبل مرتبة النبوة مباشرة. كما أشار الله تعالى إلى هذا مرتين فى سورة مريم، فقال:

* ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(١).

* ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(٢).

** هذا، بالإضافة إلى الثمرات الأخرى التى يجنيها الصادقون، والتى منها:

* راحة الضمير، وطمأنينة النفس، لقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه (الصِّدْقُ طمأنينةٌ) رواه الترمذى وصححه بلفظ: (دع ما يُرِيبُكَ إلى ما لا يُرِيبُكَ، فإنَّ الصدقَ طمأنينةٌ، والكذب ريبةٌ).

* **والبركة فى الكسب، وزيادة الخير** لقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

---

(١) سورة مريم: ٤١.

(٢) سورة مريم: ٥٦.

(البَيِّعَان بالخيار ما لم يتفرَّقا، فإن صَدَقَا وَبيَّنَا بُورِكَ لهما فى بيعهما، وإن كَتَما وكذبا مُحِقَتْ بركةُ بيعهما).

رواه البخارى.

* والفوز بمنزلة الشهدا، لقوله عليه الصلاة والسلام: من سأل اللهَ الشهادة بصدقٍ بلَّغه اللهُ منازلَ الشهداءِ وإن ماتَ على فراشه).

رواه مسلم.

* والنجاة من المكروه، فقد حُكِيَ أن هاربًا لجأ إلى أحد الصالحين وقال له: أخفنى عن طالبى، فقال: نَم هنا. وألقى عليه حزمة من خُوص، فلما جاء طالبوه وسألوا عنه قال لهم: هاهو ذا تحت الخوص، فظنوا أنه يسخر منهم فتركوه، ونجا ببركة صدق الرجل الصالح.

بل حسبك أولاً وأخيرًا أنك بسبب الصدق ستكون من أهل البر الذى سيوصلك إلى الجنة التى هى أسمى غاياتك، وأقصى أمانيك.

بل وحسبك تحذيرًا لك من الكذب، أنك به ستكون ـ والعياذ بالله ـ من أهل النار التى فيها ما فيها من الأهوال والشدائد التى نسأل الله تعالى أن يعافينا منها جميعًا.

** وحسبى ـ بعد هذا التقديم السريع أن أقف معك على بعض النماذج الحية من خُلُقُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى: (الصدق):

فقد أجمع الذين عرفوا النبىَّ صلى الله عليه وسلم وخالطوه منذ صباه على أنه صادق أمين، وأنهم لم يسمعوا من فمه أكذوبة قط، ولم يشكُّوا فى خبر من أخباره، أو يستريبوا فى قول من أقواله:

* فالسيدة خديجة لم تجد ما تهدئ به رَوْعَهُ حين أتاها خائفًا بعد أن نزل عليه الملَكُ يقول: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾(١) خيراً من قولها له: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، ووالله إنك لَتَصلُ الرحمَ، وتصدقُ الحديثَ، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكَلَّ، وتَقْرى الضيفَ، وتعين على نوائب الحقِّ(٢).

* وقريش أعلنت أنه صادق حينما جمعها ليصدع بالدعوة جهرة، وصعد الصَّفَا فقال: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه، فقالوا: ما لك؟ قال: أرأيتمُ إن أخبرتُكم أن العدوَّ مُصَبِّحُكم أو مُمسِّيكم، أما كنتم تصدقوننى؟ قالوا: بلى، ما جَرَّبنا عليك كذبًا، قال: فإنى نذيرٌ لكم بين يَدَىْ عذاب شديد، فقال أبو لهب: تَبا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ.. ﴾(٣)

* على أنهم - وإن كذبوه فى دعوى النبوة - لم يجرؤ أحد منهم على وصفه بالكذب فى سواها، فقد قال أبو جهل للنبى إننا لا نُكَذِّبك، وما أنت فينا بمكَذَّب، ولكن نُكَذِّبُ بما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾(٤).

ولقى الأخنس بن شريف أبا جهل يوم بدر فقال: يا أبا الحكم ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا، أخبرنى عن محمد، صادق أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إن محمداً لَصَادق، وما كذب قط(٥).

(١) العلق: ١

(٢) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٠٥ والكل: الضعيف. وتقرى: تطعم وتكرم

(٣) سورة المسد ١ - ٣، تبَّت، أى هلكت وخسرت.

(٤) سورة الأنعام - من الآية ٣٣.

(٥) الشفا ١/ ١٠٥.

* ثم تآمرت قريش على أن تشيع فى الوافدين إلى مكة أن محمداً ساحر، فردها عن هذه الفرية عدو من ألد أعدائه هو النضر بن الحارث. إذ قال لهم: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثًا، فكان أرضاكم فيكم، وكان أصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صُدغَيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم: ساحر، لا، والله ما هو بساحر.

* ولما سأل هرقل إمبراطور الروم أبا سفيان فى ركب من قريش بعد صُلح الحديبية: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال: ما كان لِيدَعَ الكذبَ على الناسِ ويكذب على الله(١).

* وجاء فى وصف على بن أبى طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان أصدق الناس لهجة.

* وجاء فى حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرف فى وجهه غضبه ورضاه(٢).

فكان لا يقول المنكر، ولا يقول فى الرضا والغضب إلا الحق، ويعرض عمن تكلم بغير جميل.

وكان أحسن الناس رضًا، إذا سُرَّ رَضِىَ، فإن وعظ وعظ بجد، وإن غضب - وليس يغضب إلا لله - لم يقم بغضبه شىء حتى ينتصرَ له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصرُ لها(٣).

** فكن - أخا الإسلام - متخلقًا بهذا الخلق الكريم الذى لابد أن تكون

---

(١) فتح المبدى ١/٣٣ وصحيح مسلم ١٢/ ١٠٤ وتاريخ الطبرى ٣/٨٦.

(٢) الإحياء ٢/٣٣٦.

(٣) الإحياء وهامشه ٢/٣٢٦.

من المتخلقين به بوصفك مؤمنا؛ فقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل: (أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: نعم! قيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم! قيل له: أيكون المؤمن كذابا؟ قال: لا..)(١)، كما ورد عنه أنه قال: (يُطبَعُ المؤمنُ على الخلال كلها، إلا الخيانة والكذب)(٢).

فإياك إياك أن تكون من أهل الكذب؛ لأن الكذب من صفات المنافقين، فقد ورد:

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومَن كانت فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ من نفاقٍ حتى يدعَها ـ أى يتركها: إذا اؤتُمِنَ خان، وإذا حَدَّث كَذَبَ، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)(٣) متفق عليه.

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (كفى بالمرءِ كَذِبًا أن يُحدِّثَ بكل ما سمِعَ).

رواه مسلم.

** وإتماما للفائدة، أحب أن أذكر الأخ المسلم بما جاء فى كتاب: (رياض الصالحين)، تحت عنوان:

بيان ما يجوز من الكذب

فقد قال:

اعلم أن الكذب ـ وإن كان أصله محرمًا ـ يجوز فى بعض الأحوال

(١) أخرجه مالك.

(٢) أخرجه أحمد

(٣) فجر، أى: بالأيمان الكاذبة والدعاوى الباطلة.

قد أوضحتها فى كتاب: (الأذكار)، ومختصر ذلك: أن الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب، ثم إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحًا كان الكذب مباحًا، وإن كان واجبًا كان الكذب واجبًا: فإذا اختفى مسلم من ظالم يرى قتله أو أَخْذَ ماله وأخفى ماله، وسُئل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه، وكذا لو كان عنده وديعة وأراد ظالم أخذها وجب الكذب بإخفائهما.

والأحوط فى هذا كله أن يُوَرِّيَ، ومعنى التورية أن يقصد بعبارته مقصودًا صحيحًا، ليس هو كاذبًا بالنسبة إليه وإن كان كاذبًا فى ظاهر اللفظ وبالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب، ولو ترك التورية وأطلق عبارة الكذب فليس بحرام فى هذا الحال.

واستدل العلماء على جواز الكذب فى هذا الحال بحديث أم كلثوم رضى الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ليس الكذَّابُ الذى يُصلح(۱) بين الناس فينمى خيراً أو يقول خيراً)(۲) متفق عليه. زاد مسلم فى رواية: قالت أم كلثوم: ولم أسمعه يرخص فى شىء مِمَّا يقول الناس إلا فى ثلاث: تعنى الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته(۳)، وحديث المرأة زوجها.

** ومن أجمل ما قرأت من أمثلة الصدق الرفيعة، ما يأتى:

* روى الترمذى عن عبد الله بن أبى الحمساء، قال: بايعتُ رسول الله

---

(۱) أى: يكذب ليصلح بين الناس.

(۲) أى: يبلغ خيراً.

(۳) أى: بما يرضيها.

صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يُبعث وبَقِيَتْ له بَقِيَّةٌ، فوعدتُه أن آتيه بها في مكانه فنسيتُ، ثم ذكرت بعد ثلاث(١)، فجئت فإذا هو في مكانه، فقال: يا فتى، لقد شققتَ عليَّ، أنا هَاهُنا منذ ثَلاَثٍ أنتظرك(٢).

ومثل هذا الذى حصل لنبينا عليه الصلاة والسلام ما حصل لجده الأعلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليهما الصلاة والسلام - حتى أثنى الله تعالى عليه فى كتابه العزيز بقوله: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾(٣).

* خطب الحجاج بن يوسف يومًا، فأطال الخطبة، فقال أحد الحاضرين: الصلاةَ فإن الوقتَ لا ينتظرُك، والربَّ لا يَعْذِرُك، فأمر بحبسه.. فأتاه قومه وزعموا أن الرجل مجنون، فقال الحجاج: إن أَقَرَّ بالجنون خلصته من سجنه، فقال الرجل: لا يسوغ لى أن أجحد نعمة الله التى أنعم بها علىَّ وأثبتُ لنفسى صفةَ الجنون التى نزهنى الله عنها، فلما رأى الحجاج صِدْقَهُ خَلَّى سبيله.

* روى الإمام البخارى رحمه الله تعالى، أنه خرج يطلب الحديث من رجل فرآه قد هربت فرسه، وهو يشير إليها برداء كأن فيه شعيراً، فجاءته فأخذها، فقال البخارى: أكان معك شعير؟ فقال الرجل: لا، ولكن أوهمتها، فقال البخارى: لا آخذ الحديث ممن يكذب على البهائم. فكان هذا مثلاً عاليا فى مجرى الصدق.

* وقد قرأت كذلك أن أبا اليزيد البسطامى رحمه الله بعد أن مات أبوه

---

(١) أى من الليالى.

(٢) رواه أبو داود بسند صالح.

(٣) سورة مريم: ٥٤.

وهو فى مقتبل العمر أراد أن يُسافر إلى بغداد ليطلب العلم النافع هناك.. فطلب من أمه أن تأذن له بهذا، فأذنت له بهذا، ثم أعطته عشرين ديناراً هى كل ميراثه من أبيه، بعد أن عاهدته على أن يكون صادقًا وألا يكذب أبدًا، فعاهدها على هذا، ثم سافر بعد ذلك مع القافلة المتجهة إلى بغداد.

وفى الطريق أغار اللصوص على جميع أفراد القافلة، وأخذوا كل ما معهم من مال ومتاع، باستثناء أبى اليزيد؛ لأن أحد اللصوص سأله أمعك شىء من المال؟ فقال أبو اليزيد: نعم، معى عشرون ديناراً. ففهم اللص أن مثل هذا لا يمكن أن يكون عاقلاً، ولاسيما عندما رآه رثَّ الثياب، ولهذا تركه وانصرف مع بقية اللصوص إلى رئيسهم فى داخل مغارة فى الجبل. وهناك وبعد أن ألقوا أمامه بما أخذوه من أفراد القافلة من مال ومتاع، سألهم: هل أخذتم من أفراد القافلة كل شىء؟ قالوا: نعم، أما أحدهم ـ وهو الذى كان قد سأل أبا اليزيد عن الذى معه ـ فقد حكى لرئيس العصابة ما كان بينه وبين أبى اليزيد، فقال له: أحضره بين يدى، فأحضره، فسأله كبير اللصوص: أمعك شىء من المال؟ قال: نعم معى عشرون ديناراً، فتعجب كبير اللصوص، ثم قال له: وأين هى؟ فوضعها بين يديه، فقال له: لماذا اعترفت بهذه السهولة، ثم وضعت المال أمامى بدون تردد؟ فقال أبو اليزيد: لأننى عاهدت أُمِّى على أن أكون صادقًا وعلى ألا أكذب أبدًا.

فقال كبير اللصوص، وهو يبكى! يا سبحان الله. أنت تخاف أن تَخُون عهد أمك، ونحن لا نخاف أن نخون عهد الله! ثم قال:

اعلم يا رجل أننى قد تُبتُ الآن على يديك. ثم أمر برد ما سُلِب من أفراد القافلة، فلما فعل هذا، قال جميع أفراد العصابة من اللصوص: إذا كنت قد فعلت هذا ـ وأنت كبيرنا ـ فإننا نعلن كذلك توبتنا جميعًا إلى الله تبارك وتعالى على يد هذا الشاب الصادق.

** فلا حظ كل هذا ـ أخا الإسلام ـ حتى تكون بسبب هذا صادقًا فى حديثك، ومعاملتك، وعزمك، ووعدك، وفى جميع أحوالك مع الله ومع الناس. وحتى تكون بسبب كل هذا ـ إن شاء الله تعالى ـ من أهل الجنة (.. فإنَّ الصِّدْقَ يهدى إلى البِرِّ وإن البِرَّ يهدى إلى الجنة..) والله ولى التوفيق،

(١٠) خلق الوفاء فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا كنا ـ أخا الإسلام ـ سندور حول (خلق الوفاء) فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم. فإن هذا سيكون معناه أننا سنقف ـ كذلك ـ على أهم درس ينبغى لنا أن ننفذه فى حياتنا العامة والخاصة. وذلك حتى نكون من أهل الوفاء الذى معناه(١): القيام بما يجب للعهد من رعاية وأداء، سواء أكان العهد معتمداً على توثيق مكتوب أم على وعد شريف، أم لم يكن متعاقداً عليه؛ لأنه مما تُلزِم به الفطرة السليمة والعقل الرشيد والوجدان الحى، كالوفاء لصاحب الجميل.

وحسب الوفاء بالوعد تشريفًا أن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾؟(٢).

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهد؛ لأنه من التقوى، والله يحب

(١) كما جاء فى كتاب: (من أخلاق النبى) للدكتور أحمد محمد الحوفى ـ أكرمه الله ـ ص ٣٥٢.

(٢) سورة التوبة ـ من الآية: ١١١.

عباده الأتقياء: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(١)، ولأنه الوسيلة إلى نيل ما وعد الله به عباده الأوفياء، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾(٢)

ولأن العهد مما يُسأل الخلقُ عنه يومَ القيامة: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾(٣)

ولأن الوفاء من صفات أصحاب العقول الراجحة المبرأة من الأهواء: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾(٤).

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كما قال على بن أبى طالب ـ أوفى الناس ذمة(٥)، وقد عُظم وفاؤه واتسع، فشمل كل ضروب الوفاء.

وإليك بعض مظاهر وفاء الرسول صلى الله عليه وسلم، والتى منها:

(ا) وفاؤه لنعم الله

فقد قدَّر نعم الله حق قدرها، فأجهد نفسه فى القيام بشكرها:

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتىٰ تَتَفطَّر(٦) قدماه، فقُلتُ له: لماذا تصنع هذا يا رسولَ اللهِ وقد غفرَ اللهُ لك ما تقدَّمَ من ذنبِكَ وما تأخر؟

(١) سورة آل عمران: ٧٦.
(٢) سورة البقرة ـ من الآية: ٤٠.
(٣) سورة الإسراء ـ من الآية: ٣٤.
(٤) سورة الرعد ـ آخر الآية :١٩ ثم كل الآية: ٢٠.
(٥) الإحياء ٢/ ٣٣٧.
(٦) تتفطر : أى تتشقق.

قال: أفلا أُحِبُّ أن أكون عبداً شكوراً؟

(٢) وفاؤه بالعهد

فقد وَفَى رسول الله بكل عهد عاهد عليه، فلم يَسْتَجِبْ لما كانت تقتضيه الضرورة أحيانًا من العذر، ولم تخوله المصلحة أن ينكث العهد، ولا أن يرتضى نكثه مهما تكن البواعث.

ويكفى أن أذكر هنا ثلاثة أمثلة، لكل منها أعظم الدلالة على الوفاء بالعهد:

* **فأما المثال الأول**، فهو أن حذيفة بن اليمان، قال: ما منعنى أن أشهدَ غزوةَ بدرٍ إلا أنى خرجتُ أنا وأبى حُسَيلٌ من مكة إلى المدينة مُهاجِرِيْن، فأخذَنا كفارُ قريش فقالوا: إنكما تريدان محمداً؟ فقلنا: ما نريد إلا المدينة، فَخَلَّوْا سبيلنا بعدِ أن أخذوا منا عهد الله وميثاقه ألاَّ نقاتل معه، فلما كانت غزوة بدر أردنا أن نشترك فيها، فأخبرنا رسول الله بما كان بيننا وبين قريش، فقال: انصرفا، نَفِى لهم بعهدِهم، ونستعينُ بالله عليهم(١).

إن هذا العمل العظيم الذى فعله الرسول صلى الله عليه وسلم ليس وفاء فحسب، بل هو أسمى ما يصبو إليه الوفاء، وذلك أن الوفاء بالعهد فى وقت السلم فضيلة، فإذا كان فى حرب متصلة مع عدو ضارى العداوة، متصل المكيدة، متلاحق الغدر، فإنه أفضل الفضيلة.

ثم إن وفاء الشخص بعهده فضيلة، فإذا ما حَضَّ غيره على الوفاء بعهد لم يشارك هو فيه، ولم يُشِر به، ولم يقره، ولم يشهد عليه، وهو يعلم أنه

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٣٩٥، وصحيح مسلم ١٢/١٤٤ والإصابة ٢/١٣، وأسد الغابة ١/٣٩٠.

عهد باطل؛ لأنه قام على الاضطرار وعلى التحايل للفرار، ويعلم أن نقض هذا العهد يزيد عدد جنوده ويقوى جيشه فى وقت كان فيه جيشه قليل العدد، إن الوفاء حينئذ ليس فضيلة فحسب، بل هو أعظم الفضيلة.

لهذا كان أمر النبى لحذيفة وأبيه بالوفاء بعهدهما، أعلى ما يصبو إليه الخُلُقُ العظيم من درجات الوفاء بالعهد.

* **وأما المثال الثانى**، فإنه بينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب معاهدة الحديبية مع قريش جاءه أبو جندل بن سُهَيْل يرسف فى قيوده ويعلن إسلامه، فرده رسول الله إلى قريش، وفاء بالعهد الذى لم يتم توقيعه، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين كيف أُرَدُّ إلى قريش وقد جئت مسلما؟ ألا ترون ما لقيتُ؟

وكان قد عُذِّبَ عذابًا شديدًا، فاشتد الأمر على المسلمين، وقالوا: كيف نَرُدُّ إلى المشركين من جاءنا مسلمًا، وهم لا يردون إلينا من جاءهم مُرْتَدا؟ فقال النبى: إنه من ذهب منا إليهم فَأَبْعَدَهُ الله، ومن جاء منهم فرددناه إليهم فسيجعلُ الله له مخرجًا(١).

* **وأما المثال الثالث**، فهو أن أبا بَصير، عتبة بن أسيد فرَّ إلى المدينة بعد عهد الحديبية، وكان ممن حَبَسَتْهم قريش فى مكة، فبعثت قريش إلى رسول الله تطلب رده، فقال له الرسول: يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القومَ ما قد علمتَ، ولا يصلحُ لنا فى ديننا الغدرُ، وإن اللهَ جاعلٌ لك ولمن معك من المُسْتَضْعَفِين فرجًا ومخرجًا، فانطلقْ إلى قومك(٢).

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٢٢.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٣٧.

وقد حدث ما توقعه الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن أبا بصير قتل مرافقه القرشى، وهرب إلى ساحل البحر، ولحق به أبو جندل، ثم لحق بهما كل رجل أسلم من قريش، وهنالك اجتمعت عُصْبة، وجعلوا يتعرضون لقوافل قريش المترددة بين الحجاز والشام، ويسلبونها ويقتلون رجالها، فبعثت قريش إلى النبى تناشده الله تعالى والرحم أن يستقدم هؤلاء إليه، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدموا إليه بالمدينة(١).

(٣) وفاؤه للوالدين

فلقد عرف النبى الأُمِّىُّ اليتيم ما يجب للوالدين من بر وتكريم وإيثار مهتديًا بما أمر به القرآن الكريم، وبما توحى به المشاعر الطاهرة والخلق الكريم والوفاء بالجميل.

* قالت أسماء بنت أبى بكر: قَدِمَتْ علىَّ أمى وهى مشركة، حينما عاهد رسول الله قريشًا عهد الحديبية ـ وكان أبو بكر قد طلَّقها فى الجاهلية ـ ومعها هدية لى، فبعثتُ إلى رسول الله أستفتيه، فقلت: إن أمى قدِمَتْ علىَّ، وهى راغبة، أفادْخِلُها بيتى؟ فأرسل إلىَّ يقول: نعم، أدخلى أمك وصِليها(٢).

* وجاء رجل إلى النبى يستأذن فى الجهاد، فسأله رسول الله: أَحَىٌّ والداك؟ قال: نعم، قال: فارجع فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرَّهُما(٣).

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٣٨.

(٢) الاستيعاب ٩٠٥، ١٧٨١ وفتح المبدى ٢/ ٢٥٩.

(٣) فتح المبدى ٢/ ٢٢٢ وتيسير الوصول ٢/ ٤٥.

ومعنى هذا أنه حتم على الابن الذى يريد الجهاد أن يأذن له والداه.

وجمهور الفقهاء على حرمة الجهاد إذا رفض الوالدان أو رفض أحدهما(١).

* أمَرَ النبى بأن يَودَّ الابن من كان أبوه صديقًا له؛ لأن هذا ضرب من الوفاء للأب.

فقد لقى عبد الله بن عمر بن الخطاب رجلا من الأعراب، فسلم عليه عبد الله، وحمله على دابته، وأعطاه عمامة كانت على رأسه ، فقال له عبد الله بن دينار: أصلحك الله، إنهم الأعراب، وهم يَرْضَوْنَ باليسير، فقال ابن عمر: إن أبا هذا كان وادًا لعمر بن الخطاب، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أبر البر صلة الرجُل أهل وُدِّ أبيه بعد أن يُوَلِّىَ الأب(٢).

* وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن لى مالاً وولدًا، وإن أبى يحتاج مالى. فقال: أنت ومالك لأبيك، إن أولادكم من أطيب كسبكم، فكلوا من كسب أولادكم(٣).

وقال أبو هريرة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (رغِم أنفُه، رغِم أنفُه، وغِم أنفُه، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكِبَرِ، أحدهما أو كلاهما، ثم لم يدخل الجنة)(٤) أى: إن برهما - وبخاصة عند الكبر والضعف - سبب فى دخول الجنة.

---

(١) فتح المبدى ٢/ ٣٢٢.

(٢) تيسير الوصول ٢/ ٤٦ والإحياء ٢/ ١٩٣.

(٣) تيسير الوصول ١/ ٤٤.

(٤) تيسير الوصول ٢/ ٤٤.

(٤) وفاؤه للزوجة

فقد عاش صلوات الله وسلامه عليه وفيا لذكرى زوجته السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ ولم يُلْهِهِ عن هذا الوفاء زواجه بالسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أو السيدة حفصة ـ رضى الله عنها ـ أو غيرهما، بل كان يذكرها بالتقدير على مسمع من السيدة عائشة، فتغار منها، حتى لقد قالت له مرة: هل كانت إلا عجوزاً بَدَّلَكَ الله خيراً منها؟ فغضب وقال: (لا، والله ما بدَّلنى الله خيراً منها، آمنَتْ بى إذ كفر الناسُ، وصدقتْنى إذْ كَذَّبنى الناسُ، وواستنى بما لها إذ حَرمنى الناس، ورزقنى اللهُ منها الولدَ دون غيرها من النساءِ)(١).

وكان إذا أُتِىَ بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانةٍ، فإنها كانت صديقةً لخديجةَ، إنها كانت تُحِبُّ خديجةَ.

وكان يذبح الشاة فيهديها إلى خلائل خديجة.

واستأذنت عليه أخت خديجة فارتاح إليها، ودخلت عليه امرأة فهشَّ لها وأحسنَ السؤال عنها، فلما خرجت قال: إنها كانت تأتينا أيامَ خديجة، وإنَّ كَرَمَ العهدِ من الدِّين(٢).

(٥) وفاؤه لقرابة الرضاع

فقد كان يعطف عطفًا كبيراً على مرضعته السيدة حليمة السعدية. وكان يحتفى بها إذا جاءته، ويتلقاها هاتفًا: أُمِّى، أُمِّى، ويفرش لها رداءه، ويلمس ثديها بيده الكريمة، إشعاراً بإعزازه هذا الثدى الذى رضع منه.

---

(١) فتح البارى ٩/ ٢٨٥ والاستيعاب ٢/ ٧٤١ وأسد الغابة ٥/ ٤٣٨.

(٢) الشفا ١/ ٩٩ والإحياء ٢/ ١٦٥.

وقدمت حليمة السعدية على النبى بعد زواجه من السيدة خديجة، فاستعانت به على أعباء الدهر، فكلم السيدة خديجة، فمنحتها بعيراً وأربعين شاة.

ثم وفدت عليه بعد غزوة حنين، فلما رآها قال: مرحباً بأمِّى، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، ثم قال: اشفَعِى تُشَفَّعِى، وسلى تُعْطَىْ.

قالت: قَوْمِى، فقال: أما حَقِّى وحق بنى هاشم فهو لك.

فقام الناس من كل ناحية وقالوا: وحقُّنا يا رسول الله(١).

ثم وصلها بعدُ، وأخدمها، ووهب لها سهامه بحنين، فاشتُرِيَتْ بَعْدُ من عثمان بن عَفان بمائه ألف درهم.

* وكان له مرضعة أُخرى اسمها ثُوَيْبَة، كانت أرضعته أيَّامًا قبل أن يصير إلى حليمة، فلما كبر وعلم ذلك حفظ لها جميلها، فحمل السيدة خديجة على أن تعتقها من أبى لهب، فرفض، فجعل النبى يواليها بمعروفه مدة إقامته بمكة، ولما هاجر إلى المدينة لم يغفل عن صلتها وكسوتها، فلما فتح مكة سأل عنها وعن ابنها سَرُوح الذى رضع معه، فأُخبر أنهما ماتَا، فسأل عن أقاربهما، فلم يجد أحداً(٢).

* ولما جىء بأخته من الرضاع الشيماء - فى سبايا هوازن، وتعرفت له، بسط رداءه، وقال: إن أحببتِ أقمت عندى مكرمة مُحَبَّبَةً، أو متَّعتك ورجعتِ إلى قومك، فاختارت قومها، فمتَّعَهَا. أى: أعطاها متاعًا، ثم أعادها إلى قومها معززة مكرمة.

(١) يريدون أن يقولوا له: ونحن كذلك لها حقُّنا إكرامًا لك يا رسول الله.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٧٠ هامش.

* وأقبل عليه أبوه من الرضاع، فوضع له بعض ثوبه، فقعد عليه(١).

* ولم يقتصر على هذا الوفاء للأحياء من قرابة الرضاع، بل مده إلى الموتى، فإنه لما تُوفى عثمان بن مظعون، أخوه من الرضاع - مهاجرٌ، أسلم قديمًا وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة - أمر النبى بأن يُرش قبره بالماء، ووضع حجرًا على القبر، وقال: أتعلَّم به قبر أخى، وأدفن إليه من مات من أهلى(٢).

(٦) وفاؤه بالموعد

فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يَعِدُ فلا يخلف موعده، ويظن الناس مثله حِرَاصًا على الوفاء بمواعيدهم.

قال عبد الله بن أبى الحمساء العامرى: بعتُ للنبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث، وبَقِيَتْ من المبيع بقية لم يتسلمها، فوعدته أن آتيه بها فى مكان البيع، فنسيت الموعد، فذكرته بعد ثلاث(٣)، فجئته، فإذا هو فى مكانه لم يفارقه، فقال لى: لقد شَقَقْتَ علىَّ؛ أنا هاهنا منذ ثلاثٍ أنتظرك(٤).

(٧) وفاؤه للوطن

فقد أحب مكة أعظم الحب؛ لأنها مكان البيت الحرام، ولأنها مدرج طفولته، وملعب صباه، ومشرق رسالته، ومقام أحبابه، لكن المشركين اضطروه إلى الهجرة منها، فجعل ينظر إليها وهو يفارقها نظرة المشُوق الوفىِّ

---

(١) الشفا ١/ ٩٩ والإحياء ٢/ ١٦٥، ١٧٥.

(٢) نور اليقين ١/ ١٣.

(٣) يبدو أنها ثلاث ساعات تقريباً؛ لأن بقاء النبى فى مكانه ينتظره ثلاث ليال غير مقبول.

(٤) شرح الزرقانى ٤/ ٢٧٦.

الذاكر، فلما كادت تغيبُ عن بصره ودَّعها بقوله: (واللهِ إنَّك لأحبُّ البلاد إلى نفسى، ولولا أن أهلَك أخرجونى ما خرجتُ).

(٨) وفاؤه لصاحب الجميل

فقد كان صحابته جميعا يدينون بفضله العظيم عليهم، وكانوا يعتقدون أن فضله يعجزهم عن شكره، ولكن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان وفِيا لصحابته يحبهم ويقربهم، ويذكر ما لبعضهم من جميل.

من هذا قوله عن أبى بكر: ما أحدٌ أعظم عندي يداً من أبى بكر، واسانى بنفسهِ ومالهِ، وأنكحنى ابنتَه.

وقوله عن أبى بكر وعمر معًا: أبو بكر وعمر منى بمنزله السمع والبصر.

ومثل قوله عن علىٍّ: علىٌّ أخى فى الدنيا والآخرة.

ومثل قوله عن الأنصار كلهم وهو فى مرض الموت! استوصوا بالأنصار خيراً، إنهم عَيْبَتِى(١) التى أويتُ إليها، فأَحْسِنُوا إلى محسنِهم، وتجاوزوا عن مسيئهم.

وكان يحفظ لصاحب الجميل جميله، ويكافئه عليه:

قال محمد بن مَسْلَمَة: كنا يومًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لحسان بن ثابت: يا حسان، أنشدنا من شعر الجاهلية ما عفا الله لنا فيه.

فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن عُلاثة، مطلعها:

علقمةُ ما أنتَ من عامرٍ   الناقصِ الأوتارِ والواترِ

(١) عَيْبتى: أى موضع سرى.

فقال النبى: يا حسان، لا تنشدنى مثل هذا بعد اليوم.

قال حسان: يا رسول الله تنهانى عن رجل مشرك مقيم عند قيصر؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم: يا حسان: (أشْكَرُ الناسِ للناسِ أشكرُهم لله، وإن قيصرَ سأل أبا سفيان بن حرب عنى، فتناول منى، وسأل هذا فأحسن القول، فشكره رسول الله على ذلك)(١).

وكان من حواضنه جارية اسمها أم أيمن، فظل طيلة حياته يذكر صنيعها ويودها، وقد رغَّب فى زواجها بقوله: من سَرَّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن، وكان يناديها بقوله: يا أُمِّى(٢).

(٩) وفاؤه للحيوان

فقد ثبت أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يأمر بالوفاء للحيوان لقاء ما عَمِل وخدم. فقد أقبلت ليلى، امرأة أبى ذر، على ناقة من إبل رسول الله بعد غزوة ذى قَرَدٍ، فقالت: يا رسول الله، إنى قد نذرتُ لله أن أنحرَها إن نَجاَّنى الله عليها، فآكلَ من كبدها وسنامها.

فتبسَّم رسولُ اللهِ ثم قال: بئس ما جَزَيتِها أن حملَك اللهُ عليها، ونجَّاكِ بها، ثم تنحرينها، إنه لا نذرَ فى معصيةِ الله، ولا فيما لا تَمْلِكين، إنما هى ناقةٌ من إبلى، فارْجِعى إلى أهلك على بركةِ الله(٣).

** فتذكر كل هذا ـ أخا الإسلام ـ حتى تكون إن شاء الله تعالى من أهل الوفاء تشبُّها برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال الله تعالى

(١) كنز العمال ٢/١٥٢.

(٢) الطبقات لابن سعد ١٦٢/٧.

(٣) سيرة ابن هشام ٢٩٧/٣ وكتاب المغازى ٥٤٨.

مرغبا إيانًا فى الاقتداء به: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(١).

وحسبك - ترغيبًا لك فى التخلق بهذا الخلق العظيم - بصفة خاصة - أن تقرأ معى هذه الأحاديث الشريفة التى يحضنا فيها الرسول صلى الله عليه وسلم على الوفاء فيقول:

* (أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حَدَّثَ كذبَ، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصمَ فَجر)(٢).

* (اسْمَحْ يَسَمحْ الله لك)(٣).

* (من البرِّ أن تصلَ صديقَ أبيك)(٤)

* (من أَحَبَّ أن يصلَ أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه من بعده)(٥).

* (عدةُ المؤمن دين، وعِدة المؤمن كالأخذ باليد)(٦).

* (العِدة دَيْنٌ)، ويل لمن وعَدَ ثم أخلفَ! ويل لمن وعد ثم أخلف! ويل لمن وعد ثم أخلف!)(٧)

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) فتح المبدى ١/ ٦٥.

(٣) فتح المبدى ٢/ ١٨٦.

(٤) الجامع الصغير ٢/ ٣٣٢.

(٥) الجامع الصغير ٢/ ٣٤١.

(٦)، (٧) كنز العمال ٢/ ٧١.

(١١) خلق طيب العشرة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا كنا ـ أخا الإسلام ـ سندور حول موضوع: (طيب العشرة) فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الخاصة والعامة. فإن هذا سيكون معناه أننا سنعيش مع عنصر من أهم العناصر الخلقية التى ينبغى لنا ـ نحن المؤمنين بصفة خاصة ـ أن نكون على صلة بها على الدوام قولاً وفعلاً، حتى تدوم المودة والمحبة بيننا، وحتى يتحقق المثل المشار إليه فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين فى تَوادِّهم وتراحمِهم وتعاطفِهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى)

رواه مسلم.

وهذا المثل لن يتحقق إلا بالحبِّ الصادق الذى لابد أن يكون لله وفى الله..

* فعن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ من عباد الله ناسًا ما هم بأنبياءَ ولا شهداءَ يغبطُهم(١) الأنبياءُ

---

(١) الغبطة تمنى مثل ما للغير من غير تمنى زواله..

والشهداءُ بمكانهم من الله) قالوا: يا رسول الله، فتخبرنا من هم؟ قال: (هم قوم تحابُّوا بروح الله(١) على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطَوْنَها، فوالله، إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، ولا يخافونَ إذا خاف الناسُ) وقرأ هـذه الآية: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٢)

رواه أبو داود

** ولقد كان حبيبنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مثلاً أعلى فى هذا الحب الصادق الذى كان ولايزال ـ سببًا فى ترابط قلوب المؤمنين بتلك الصورة التى صارت مضرب الأمثال فى حياة المحبين الصادقين.

** ولقد أحب المسلمون النبى حبا سما على حبهم لأنفسهم وأبنائهم وأموالهم(٣)؛ لأنه رسول الهداية، وصاحب الشريعة، ولأنه كان يمتلك قلوبهم بطيب عشرته، ودماثة صحبته، وحلاوة رُفقَته، وظرف معاملته، فيشعرون أنه ـ على رفعة قدره، وعلاء مكانته ـ واحدٌ منهم، ولكنهم يأوون إلى ظل منه لا نظير له فى سواه.

وقد امتد هذا الظل الوريف فاتسع للأحرار والأرِقَّاء، وللرجال والنساء، وللأقارب والبعداء، والكبار والأطفال، وفى المجتمعات والخلوات.

وهاك بعض النماذج المشيرة إلى كل هذا:

(أ) طيب عشرته مع زوجاته

* فقد كان يسابق السيدة عائشة فى العَدْو، فسبقته يومًا، وسبقها يومًا، فقال لها: هذه بتلك.

---

(١) أى بالقرآن، فهو طريق التحابب...

(٢) يونس: ٦٢.

(٣) كما جاء فى كتاب (من أخلاق النبى) للدكتور أحمد الحوفى، أكرمه الله.

* قالت السيدة عائشة: سمعت أصوات أناس من الجبشة وغيرهم، وهم يلعبون فى يوم عاشوراء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتُحبِّين أن تَرَىْ لَعِبَهَم؟ فقلت: نعم. فأرسل إليهم، فجاءوا إلى المسجد، وقام رسول الله بين البابين، فوضع كفه على الباب، ومد يده، ووضعتُ ذقنى على يده، وجعلوا يلعبون وأنظر، ثم قال: يا عائشةُ حسبُك؟ فقلت: نعم، فأشار إليهم فانصرفوا.

وذكرتْ أن النبى كان يسترها بردائه وهى تنظر إلى ألعاب الحبشة بحرابهم فى المسجد، فلما زجرهم عمر قال النبى: دَعْهم، أَمْنًا بنى أرفدة(١).

* وروى البخارى ومسلم أن أبا بكر دخل على عائشة وعندها جاريتان تُدفِّفَان(٢) وتضربان، والنبىُّ متَغَش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبى عن وجهه، وقال: دعهما يا أبا بكر؛ فإنها أيام عيد.

* وكانت أزواجه يراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يومًا إلى الليل، وكان يقول للسيدة عائشة: إنى لأعرف غضبك من رضاك، قالت: وكيف تعرفه؟ قال: إذا رضيت قلت: لا وإله محمد، وإذا غضبِت قلت: لا وإله إبراهيم، قالت: صدقتَ، إنما أهجر اسمك(٣)!

* وكان يعدل بين زوجاته فى العطاء والمبيت، ويقول: اللهم هذا جهدى فيما أَملِكُ، ولا طاقةَ لى فيما تملِكُ ولا أَملِكُ، يعنى الحب(٢).

---

(١) فتح المبدى ١/٢٠٧، ٣٠٦ والإحياء ٢/ ٤٠ وأرفدة: جد الحبشة الأكبر.

(٢) أى تضربان على الدف

(٣) الإحياء ٢/ ٤٠.

(٤) الإحياء ٢/ ٤٥.

* وكثيراً ما أوصى بالنساء خيراً، وبيَّن أنه لا غضاضة ولا ضَير فى أن يداعب الرجلُ زوجتَه، فقال: اللهو فى ثلاث: تأديب فرسك، ورميك عن قوسك، وملاعبتك أهلك(١).

ونهى عن ضربهن فقيل له: يا رسول الله إنهن قد فسدن، فقال: اضربوهن، ولا يضربُ إلا شرارُكم(٢).

لقد كان عليه الصلاة والسلام أنبل زوج معاملة، وأطيب زوج عشرة، حسبنا قوله: خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلى(٣).

* وبعد مقتل بنى قريظة اصطفى رسول الله لنفسه ريحانة بنت عمرو بن خُنافة، فكانت عنده حتى تُوفى عنها وهى فى مِلْكِه، فرفعها من سَبِىٍّ إلى مكانة رفيعة هى إحدى أمهات المؤمنين.

وكان قد عرض عليها أن يتزوجها، ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله، بل تتركنى فى ملكك، فهو أخَفُّ علىَّ وعليك، فتركها.

وكانت حينما سباها قد أبت الإسلام، وأصرت على اليهودية، فضاق بأمرها، ولكنه لم يجبرها على أن تسلم، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه، فقال: إن هذا لثعلبة بن سَعْيَة يبشرنى بإسلام ريحانة، فجاء ثعلبة فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة، فسره ذلك من أمرها(١).

(٣) طيب عشرته مع صحابته

فقد ورد أنه:

---

(١) كنز العمال ٧/ ٣٣١ وعيون الأخبار ٤/ ٨١.

(٢) الطبقات الكبرى ٨/ ١٤٧.

(٣) كنز العمال ٨/ ١/ ٢٥.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٢٢.

* ما أسَرَّ أحدٌ إلى النبى خبراً، فَنَحَّى النبى رأسَه، حتى يكون هو الذى يُنَحِّى رأسه.

* وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يرسلها الآخر.

* وإذا استقبل الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزع.

* وإذا لقى الرجلَ يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون الرجل هو المنصرف.

* وكان لا يقطع على أحد حديثه، حتى يتجوز فيقطعه بنهى أو قيام.

* وإذا لقى أحدًا من أصحابه بدأ بالمصافحة، ثم أخذ بيده فشابكه، ثم شد فقبض عليها(١).

وكان يكنى أصحابه بكناهم، إكرامًا لهم، وإدخالاً للسرور على نفوسهم، ويكنى من لم تكن له كنية فتصير كنية له، فقد كنى عبد الله بن مسعود بأبى عبد الرحمن مع أنه لا ولد له، وكنى أنس بن مالك ببَقْلة، وكنى صهيب بن مالك بأبى يحيى، وكنى أبا بكرة بهذه الكنية؛ لأنه تدلَّى من الطائف ببكرة.

* وكان يكنِّى النساء اللاتى لهن أولاد ويبتدئ الكنى للاتى لم يلدن، مثل تكنيته للسيدة عائشة بأم عبد الله(٢)، وتكنيته أم خالد وكانت صغيرة.

* وكان يكنى الصبيان، كقوله لأخى أنس بن مالك يا أبا عُميْر(٣).

---

(١) الإحياء ٢/٣٢٢.

(٢) يقصد عبد الله بن الزبير ابن أختها أسماء.

(٣) الإحياء ٢/٣٢٣.

* وكان يعطى من جلس إليه نصيبه من وجهه، فلا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه.

* وإذا قدم عليه أحد وهو يصلى خَفَّفَ صلاته، وأقبل عليه فقال: ألك حاجة؟ فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته.

* وكان يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، وآثره بالوسادة التى تحته، ليجلس عليها، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يقبل: جاء جرير بن عبد الله البجَلى إلى مجلس الرسول وهو مكتظ، فلم يجد مكانًا، فقعد على الباب، فلف رسولُ اللهِ رداءه، فألقاه إليه، وقال له: اجلس على هذا.

فأخذه جرير ووضعه على وجهه، وجعل يقبله ويبكى، ثم رده إلى النبى وقال: ما كنتُ لأجلسَ على ثوبك، أكرمَك اللهُ كما أكرمتنى. فنظر النبى يمينًا وشمالاً، وقال: (إذا أتاكم كَرِيمُ قوم فَأكْرِمُوه)(١).

* وكان يجلس مع أصحابه فلا يمد رجليه.

* وكان يوجه نصحه لهم فى رفق، ولا يشافه أحدًا بما يكره: دخل عليه رجل تبدو صفرةُ الزعفرانِ على جسمه، فكرهها النبى، ولكنه لم يقل شيئاً، فلما خرج قال النبى لبعض جلسائه: لو قلتم له يدعُ هذه الصفرة(٢).

* وبال أعرابى فى المسجد والنبى حاضر، فسارع بعض الصحابة إلى منعه، فقال النبى: لا تُزْرِمُوه(٣)، وأَهريقُوا على بوله سَجْلاً من ماء، فإنما بُعِثتم مُيَسِّرين لا معسرين. ثم قال: إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من القذر والبول والخلاء(٤).

---

(١) الإحياء ٢/ ١٧٥.

(٢) المواهب اللدنية ٢/ ١٧٥.

(٣) أى لا تقطعوا بوله.

(٤) فتح المبدى ١/ ١٤٨ والإحياء ٢/ ٣٣٦.

* وأُتِىَ بقدح، فشرب منه، وعن يمينه غلام والأشياخ عن يساره، فقال: يا غلام، أتأذن لى أن أُعطِىَ الأشياخَ؟ قال الغلامُ: ما كنتُ لأُوثِرَ أحدًا بفضلى سواك يا رسولَ الله، فأعطاه القدحَ.

* وقال رجل من الأنصار لغلام له قصَّاب(١): اجعل لى طعامًا يكفى خمسة، فإنى أُريد أن أدعو: النبى خامس خمسة. فدعاهم، فجاء معهم رجل، فقال النبى إن هذا قد تَبِعنَا ، فإن شئت أن تأذنَ له فَأْذَنْ له(٢)، وإن شئت أن يرجع رجع.

فقال الأنصارى: لا، بل قد أذنتُ له.

* ودخل غيضَةً مع بعض أصحابه، فاجتنى منها سِواكَيْن، أحدهما مُعْوَجٌّ والآخر مستقيم، فدفع المستقيم إلى صاحبه، فقال له الرجلُ: يا رسولَ اللهِ، كنتَ أحقَّ بالمستقيمَ مِنِّى.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما من صاحب يصحبُ صاحبًا ولو ساعة من نهارٍ إلا سُئِل عن صحبتِه: هل أقامَ فيها حقَّ اللهِ أم أضاعَهُ؟)(٣).

* وكان يقول لأصحابه: (لا يُبْلِغْنِى أحدٌ منكم عن أحدٍ من أصحابى شيئًا، فإنى أُحِبُّ أن أخرجَ إليكم وأنا سليمُ الصدرِ)(٤).

* وكان إذا فقد الرجلَ من إخوانه ثلاثةَ أيام سأل عنه، فإن كان غائبًا دعا له، وإن كان شاهدًا زاره، وإن كان مريضًا عاده(٥).

---

(١) قصَّاب : أى جزار.

(٢) اللؤلؤ والمرجان ٣/ ٢٤.

(٣) الإحياء ٢/ ١٥٤.

(٤) الإحياء ٢/ ٣٣٦.

(٥) تيسير الوصول ٤/ ٣٠.

(٣) طيب عشرته مع الخدم والأرقاء

* فقد كان زيدُ بن حارثة مولًى للنبى قبل البعثة، ثم ظهر أبوه بعد طول غياب، فأراد أن يسترده من النبىِّ، فرفض زيد أن يعود مع أبيه، وآثر أن يبقى مملوكًا لرسول الله، على أن يصير حُرا، يُعلى مكانته، ويُرضى أباه.

وإن هذا الإيثار ليدل على أنه كان أسير العشرة الأبوية، والعطف الكريم، والحدب الرحيم، وإلا لفرح زيد فرحتين: إحداهما العودة مع أبيه، والأخرى خلاصه من الاسترقاق.

ولم يكن زيدٌ يتوقع ما فاجأه به النبى، فإنه كافأ هذا الإيثار بما يستحقه، فأعتق مولاه.

ثم زاده تكريمًا فزوجه من زينب بنت جحش، وهى بنت عمة رسول الله، ومن عقائل قريش أصحاب النُّعْرة، وذوى السيادة والجاه.

ثم بعثه قائدًا للجيش الذى وجهه إلى مؤتة، وقال: إن أُصيبَ زيد فجعفر ابن أبى طالب على الناس، وإن أُصِيبَ جعفرٌ فعبد الله بن رواحة على الناس. وكان فى الجيش خالد بن الوليد، خرج متطوعًا؛ ليدل ببلائه على حسن إسلامه.

فانظر إلى جيش فيه خالد وجعفر وابن رواحة يرأسه عَتِيق.

فلما قُتِل زيدٌ فى الغزوة، أعد النبى جيشًا آخر ليتجه إلى الشام، وولَّى عليه أسامة بن زيد وهو فى نحو العشرين، وكان فى الجيش سيدان من سادة المسلمين هما أبو بكر وعمر.

* وقد سَنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم أروع أدب فى معاملة الأرقاء فى عهد الطبقية والاعتزاز بالأنساب، فقال: (لا يقولنَّ أحدكم عبدى ولا أَمَتى؛

كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، وليقل: غلامى وجاريتى، وفتاى وفتاتى).

وفى الوصية نفسها أشعر الأرِقَّاء بأنهم عبيد الله، لا عبيد الناس، فقال: (ولا يقول المملوكُ ربِّى ولا ربَّتى، وليقل سيدى وسيدتى؛ فكلكم عبيدُ الله، والربُّ الله سبحانه وتعالى)(١).

* وكثيرًا ما أوصى بالأرقاء، كقوله فى خطبة الوداع: أَطْعِمُوهم مما تأكلون، واكْسُوهم مما تلبسون، فإن اللهَ قد ملَّككم إياهم، ولو شاء لملَّكَهُم إياكم).

* وأرسل وصيفة فى أداء عمل، فأبطأت عليه، فقال لها: (لولا خوفُ القصاصِ لأوجعتُكِ بهذا السواكِ).

* وقال أنس بن مالك : خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لى أُفٍّ قط، ولا قال لشىء صَنَعْتُه: لِمَ صنعتَه؟ ولا قال لشىء تركتُه: لم تركتَه؟ ولا أمرنى بأمر فتوانيتُ فيه فعاتبنى عليه، فإن عاتبنى أحدٌ من أهله قال: دعوه، فلو قُدِّرَ شىء كان(٢).

* وقال أنس بن مالك: إن النبىَّ أرسلنى فى حاجة، فتشاغلتُ بصبيان يلعبون فى السوق، وإذا رسولُ اللهِ قد قَبَضَ ثيابى من ورائى، فنظرتُ إليه وهو يضحكُ، فقال: يا أُنَيسُ اذهبَ حيث أمرتُك.

* وكان عقبة بن عامر الجُهنىُّ صاحب بغلة رسول الله يقودها به فى الأسفار، وقد روى أن الرسول كان ينزل عن دابته، ويُركبه إياها.

---

(١) الإحياء ٢/١٤١.

(٢) الإحياء وهامشه ٢/٣٢١.

** ومن طِيب عشرته صلوات الله وسلامه عليه، فى شئونه المختلفة:

* أنه كان إذا جلس إلى طعام يأكل مما يليه(١).

* وإذا غسل الخبز واللحم غَسل يديه غسلاً جيداً.

* ولا يتنفس فى الإناء، بل ينحرف عنه، ونهى من يشرب أن يتنفس فى الإناء، فإذا أراد أن يتنفس فليؤخر الإناء عنه ثم يتنفس(٢).

* ولم يأكل الثوم والبصل والكُرَاثَ؛ لأنه يناجى جبريل.

* وما ذمَّ طعامًا قط، فإذا أعجبه أكله، وإن لم يعجبه تركه، ولكنه لا يُبغِّضُه إلى غيره، فقد كان يعاف الضَّبَّ والطحال، ولا يُحرِّمُهُما، وعَلَّل امتناعه عن أكل الضَّبِّ بأنه ليس من أرض قومه ولا من طعامهم(٣).

* وإذا عطس غَضَّ صوته، واستتر بثوبه أو بيده، أو غطَّى وجهه وفمه(٤).

* وإذا كره من إنسان شيئًا، قال: (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟).

* قال عمران بن حُصَين: كانت لى من رسول الله منزلة وجاه، فقال لى: يا عمران، إن لك عندنا منزلة وجاهًا، فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله؟ قلت: نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله، فقام، فقمتُ معه حتى وقف بباب فاطمة، فقرع الباب، وقال: السلام عليكم، أأدخل؟فقالت: ادخل يا رسولَ الله، قال: أنا ومن معى؟ قالت: ومن معك يا رسول الله(٥).

---

(١) أى من أمامه فى الإناء.

(٢) الإحياء ٢/ ٣٣٠.

(٣) الإحياء ٢/٣٢٩.

(٤) السيرة الحلبية ٣/ ٣٧٧، والإحياء ٢/ ١٨٣.

(٥) الإحياء ٤/ ١٧١.

* ولم يكتف بالأدب الرفيع يأخذ به نفسه، بل أوصى الآخرين، وأرشدهم إلى المجاملة اللطيفة، فقد ورد عن ابن عمر أن رسول الله قال: إذا وُضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى تُرفع المائدة، ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم، ولْيتعلَّل؛ فإن الرجل يُخجل جليسه فيقبض يده، وعسى أن تكون له فى الطعام حاجة(1).

** فهذا ـ أخا الإسلام ـ هو(2):

مُحمدٌ أشرفُ الأعراب والعَجمِ مُحمدٌ خيرُ من يمشى على قَدم
مُحمدٌ باسطُ المعروف جامعهُ مُحمدٌ صاحبُ الإحسان والكرمِ
مُحمدٌ تاجُ رُسْلِ اللهِ قاطبةً مُحمدٌ صادقُ الأقوال والكَلِمِ
مُحمدٌ ثابتُ الميثاقِ حافظُهُ مُحمدٌ طيبُ الأخلاق والشِّيَم
مُحمدٌ رُوِيَتْ بالنورِ طينتُه مُحمدٌ لم يزل نورًا من القِدمِ
مُحمدٌ حاكمٌ بالعدلِ ذو شَرفِ مُحمدٌ معدنُ الإنعامِ والحِكَمِ
مُحمدٌ خيرُ خَلق اللهِ من مُضَرِ مُحمدٌ خيرُ رسُل اللهِ كُلِّهِمِ
مُحمدٌ دينُه حَقٌ ندينُ به مُحمدٌ مجملاً حقا على عَلَمِ
مُحمدٌ ذِكرُه رَوْحٌ لأنفسنا مُحمدٌ شُكْرُهُ فرضٌ على الأُمَمِ
مُحمدٌ زينةُ الدنيا وبَهجَتُها مُحمدٌ كاشفُ الغُمَّاتِ والظُّلَمِ

(1) هامش الإحياء ٣/ ٢٧٢.

(2) وهذه القصيدة للإمام البوصيرى رحمه الله تعالى.

مُحَمدٌ سيدٌ طابتْ مناقِبُهُ   مُحمدٌ صَاغه الرحمنُ بالنِّعَمِ
مُحمدٌ صفوةُ البارى وخِيرتُه   مُحمدٌ طاهِرٌ من سائر التُّهَمِ
مُحمدٌ باسِمٌ للضيفِ مُكرِمُهُ   مُحمدٌ جارُه والله لم يُضَمِ
مُحمدٌ طابتَ الدنيا ببعثتِه   مُحمدٌ جاء بالآيات والحِكَمِ
مُحمدٌ يوم بَعْثِ الناسِ شافعُنا   مُحمدٌ نورُه الهادى من الظُّلَمِ
مُحمدٌ قَائِمٌ لِلَّهِ ذو هِمَمٍ   مُحمدٌ خَاتِمٌ للرُّسْل كُلِّهِمِ

** وهو أيضاً، الذى(١):

أعيا الورى فهمُ معناه فليس يرى   للقربِ والبعدِ فيه غير مُنفَحِمِ
كالشمسِ تظهرُ للعينين من بُعُدٍ   صغيرةً وتكِلُّ الطرفَ من أمَمِ
وكيف يُدرك فى الدنيا حقيقتَه   قومٌ نِيَامٌ تَسَلَّوا عنه بالحلمِ
فمبلغُ العلم فيه أنَّه بَشَرٌ   وأنَّه خَيْرُ خلقِ اللهِ كُلِّهِمِ

** وحسبى - أخا الإسلام - فى نهاية هذا التذكير الموجز بِخُلُقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن أُذَكِّرَك ونفسى بحديثٍ قدسىٍّ يتحدث الله سبحانه وتعالى عن خلق حبيبه المصطفى صلواتُ الله وسلامه عليه، وخلق أصحابه الفضلاء الذين كانوا بسببِ هذا الخلق الكريم نجومًا يهتدى بهم، ويُقتدى بِفَعالهم. وكانوا رجالاً كما تحدث الله سبحانه وتعالى عنهم فى قوله: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ .. ﴾(٢):

---

(١) وهذه الأبيات أيضاً من قصيدة للإمام البوصيرى رحمه الله..
(٢) النور: ٣٧.

فدانت لهم الأُمم، وخَضَعت لسلطانهم الرقاب، وكان فضل الله عليهم عظيما. وحتى تكون إن شاء الله من أهل هذا الفضل العظيم، إليك نص الحديث القدسى الذى ورد:

* عن قتادة عن كعب قال: أوحى الله تعالى إلى أشعياء النبى: (إنى مُبتعثٌ نبيا أمينًا، أفتح به آذانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا، وأعينًا عُميًا، مولدُه مكة، ومُهَاجَرُهُ طَيْبَة(١)، وملكُه الشام، عبدى المتوكل المصطفى المرفوع، الحبيب المتحبب المختار، لا يجزى بالسيئة السيئةَ، ولكن يَعْفُو ويصفحُ ويغفرُ، رحيمًا بالمؤمنين، يبكى للبهيمة المثقلة، ويبكى لليتيم فى حجر الأرمَلة.

ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا صَخَّابٍ فى الأسواق، ولا مُتزىٍّ بالفُحش، ولا قَوَّال بالخنا، أُسَدِّدُهُ بكل جميلٍ، وأهب له كلَّ خلق كريم، أجعل السكينةَ لِباسَه، والبرَّ شعارَه، والتقوى ضميره، والحكمة مقوله، والصدق والوفاءَ طبيعتَه، والعفوَ والمغفرةَ والمعروفَ خُلُقَه، والعدلَ سيرته، والحقَّ شريعته، والهُدى إمامَه، والإسلامَ ملته، وأحمدَ اسْمَه.

أهدى به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به الخمالة(٢)، وأسَمِّى به النكرة(٣)، وأكثر به بعد القلَّة، وأُغْنى بعد العَيلة(٤)، وأؤلف به بين قلوب وأهواء مشتتة وأمَم مُختلفة، وأَجعل أمته خير أُمَّة أُخرِجَت للناس: أمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وتوحيدًا لى، وإيمانًا بى، وإخلاصًا لى، وتصديقًا لما جاءت به رسلى وهم رعاة الشمس(٥). طوبى لتلك القلوب والوجوه والأرواح التى أخلصتَ لى.

---

(١) أى المدينة المنورة.

(٢) الخمالة: أى الكسل.

(٣) أسمى به النكرة: أى أجعلها معرفة.

(٤) أى: أغنى به بعد الفقر.

(٥) رعاة الشمس: أى يعملون بالنهار.

ألهمتهم التسبيح والتكبير والتحميد والتوحيد في مجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم، يُصفُّون في المساجد كَمَا تُصَفُّ الملائكةُ حول عرشي، هُمُ ولاَتِي وأنصاري، أنتقم لهم من أعدائي عَبَدةِ الأوثان، يُصَلُّون لي قيامًا وقعودًا وركوعًا وسجودًا، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي ألوفًا، ويقاتلون في سبيلي صُفوفًا وزُحوفًا

أختم بكتابهم الكتب، وبشريعتهم الشرائع، وبدينهم الأديان، فمن أدركهم فلم يؤمن بكتابهم، ولم يدخل في دينهم وشريعتهم فليس مِنيِّ وهو مني برىء، وأجعلهم أفضل الأُمم، وأجعلهم أمة وسَطًا ليكونوا شُهداء على الناس.

إذا غضبوا هَلَّلُوني(١)، وإذا قُبضوا كَبَّروني(٢)، وإذا تنازعوا سَبَّحوني(٣)، يُطهِّرون الوجوه والأطراف(٤)، ويَشُدُّونَ الثيابَ إلى الأنصاف(٥)، ويُكَبِّرُونَ ويُهَلِّلُون على التلال والأشراف.

قربانُهم دماؤُهم(٦). وأناجِيلُهم صدورُهم(٧)، رهبانًا بالليل، ليوثاً بالنهار(٨). ينادي مناديهم في جو السماء(٩) لهم دَوِيٌّ كدوي النحل(١٠).

---

(١) أي قالوا: لا إله إلا الله.

(٢) أي قالوا: الله أكبر.

(٣) أي قالوا: سبحان الله.

(٤) أي عندما يتوضئون.

(٥) أي عندما يلبسون ملابس الإحرام.

(٦) أي عندما يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم.

(٧) أي أنهم يحفظون كتاب الله في صدورهم وكذلك سنة نبيهم.

(٨) أي أسودًا بالنهار في ميادين العمل الشريف.

(٩) كناية عن الأذان.

(١٠) كناية عن قراءة القرآن.

طوبى لمن كان منهم وعلى دينهم، ومناهجهم، وشريعتهم، ذلك فضلى أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم).

** وحتى تشكر الله على أن جعلك من أمة هذا النبى العظيم، وتقول كما قال القائل:

ومما زادنى شرفًا وتيهًا وكدتُ بأخمصى أطأُ الثُّريَّا(١)
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيَّرتَ أحمدَ لى نَبِيًّا

وإليك كذلك نص هذا الحديث الشريف الذى ورد :

* عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنَّ موسى لما نزلت عليه التوراةُ قرأها فوجد فيها ذكر هذه الأمة ـ قال: يارب، إنى أجد فى الألواحِ أمةً هم الآخرون السابقون، فاجعلها أمتى، قال: تلك أمة أحمد!

قال: يا رب، إنى أجد فى الألواح أمة، هم السابقون المشفوع لهم، فاجعلها أمتى، قال : تلك أمة أحمد!

قال: يا رب، إنى أجد فى الألواح أمة، هم المستجيبون المستجاب لهم، فاجعلها أمتى، قال: تلك أمه أحمد!

قال: يا رب، إنى أجد فى الألواح أمة، أناجيلهم فى صدورهم يقرءونها ظاهرًا(٢)، فاجعلها أمتى، قال: تلك أمة أحمد!

---

(١) أى كدت أضع قدمى فوق النجوم.

(٢) أى أنهم يحفظون القرآن فى صدورهم. وتلك خصوصية لهم دون غيرهم.

قال: يا رب، إنى أجد فى الألواح أمة، يأكلون الفىء(١)، فاجعلها أمتى، قال: تلك أمة أحمد!

قال: يا رب، إنى أجد فى الألواح أمة، يجعلون الصدقة فى بطونهم يؤجرون عليها(٢)، فاجعلها أمتى، قال: تلك أمة أحمد!

قال: يا رب، إنى أجد فى الألواح أمة، إذا هَمَّ أحدهم بسيئة ولم يعملها لم تُكتب(٣)، وإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلها أمتى، قال: تلك أمة أحمد!

قال: يا رب، إنى أجد فى الألواح أمة، إذا هَمَّ أحدهم بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كُتِبت له عشر حسنات، فاجعلها أمتى، قال: تلك أمة أحمد!

قال: يا رب، إنى أجد فى الألواح أُمَة يُؤتَوْنَ العلم الأول والعلم الآخر(٤)، فيقتلون قرون الضلالة المسيخ الدجال(٥)، فاجعلها أمتى، قال: تلك أمة أحمد!

قال: يا رب، فاجعلنى من أمة أحمد، فأُعْطِىَ عند ذلك خَصْلَتَيْنِ قال الله تعالى: يا موسى، إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى، فخذ ما آتيتُك وكن من الشاكرين، فقال: قد رضيتُ يارب).

وصلِّ اللهمَّ على سيدِنا محمدٍ النبىِّ الأُمِّىِّ وعلى آله وصحبه وسلم:

أزكى صلاة مَعْ سلامٍ عاطرٍ ينمو به يوم الحصادِ حَصادى

---

(١) أى أحلت لهم الغنائم، دون جميع الأمم السابقة، فقد كانت الغنائم قبل ذلك.. تجمع فى الميدان ثم تحرق.

(٢) أى إنهم يثابون على طلب الرزق..

(٣) وفى رواية كتبت له حسنة.

(٤) أى علم الأولين والآخرين.

(٥) أى يقتل فى زمانهم المسيخ الدجال.

مراجع الكتاب

* القران الكريم.
* عيون التاريخ والسير.. للإمام عبد الرحمن بن الجوزى.
* السيرة النبوية..
* من أخلاق النبى.. للدكتور أحمد محمد الحوفى.
* أخلاق النبى.. للإستاذ أحمد محمد مرسى (تحقيق).
* فقه السيرة.. لصاحب الفضيلة الشيخ محمد الغزالى.
* التاج الجامع للأصول.. لفضيلة الشيخ منصور على ناصف.
* أنت تسأل والإسلام يجيب.. لفضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى.
* المقامات العلية.. للإمام محمود خطاب السبكى.
* القرآن والنبى.. للإمام الدكتور عبد الحليم محمود.
* هدى الرسول.. مختصر من زاد المعاد.. للأستاذ محمد أبو زيد.
* الدين الخالص.. للإمام الشيخ محمود خطاب السبكى.
* رياض الصالحين.. للإمام النووى.
* تيسير الوصول.. إلى جامع الأصول.. لابن الربيع الشيبانى.
* عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم.. للأستاذ محمد عطيه الأبراشى.
* منهاج المسلم.. لفضيلة الشيخ أبو بكر الجزائرى.

دليل الموضوعات

هذا الكتاب

كما سيرى الأخ المسلم والأخت المسلمة يتناول هذا الكتاب أهم موضوع يتعلق بالحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

ألا وهو (الصفات الخِلقية والخُلقية) لرسول الله (محمد) صلوات الله وسلامه عليه الذى قال الله تبارك وتعالى مخاطباً إياه ﴿ وإنك لعلى خُلق عظيم ﴾ والذى أوصانا الله تبارك وتعالى بأن نقتضى به فقال ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

فلنكن إن شاء الله تعالى من المنتفعين بهذا العلم النافع ، والله ولى التوفيق .

الناشر

الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبدالخالق ثروت- تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣- فاكس ٣٩٠٩٦١٨- برقياً دار شادو- ص ب ٢٠٢٢ - القاهرة
AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO